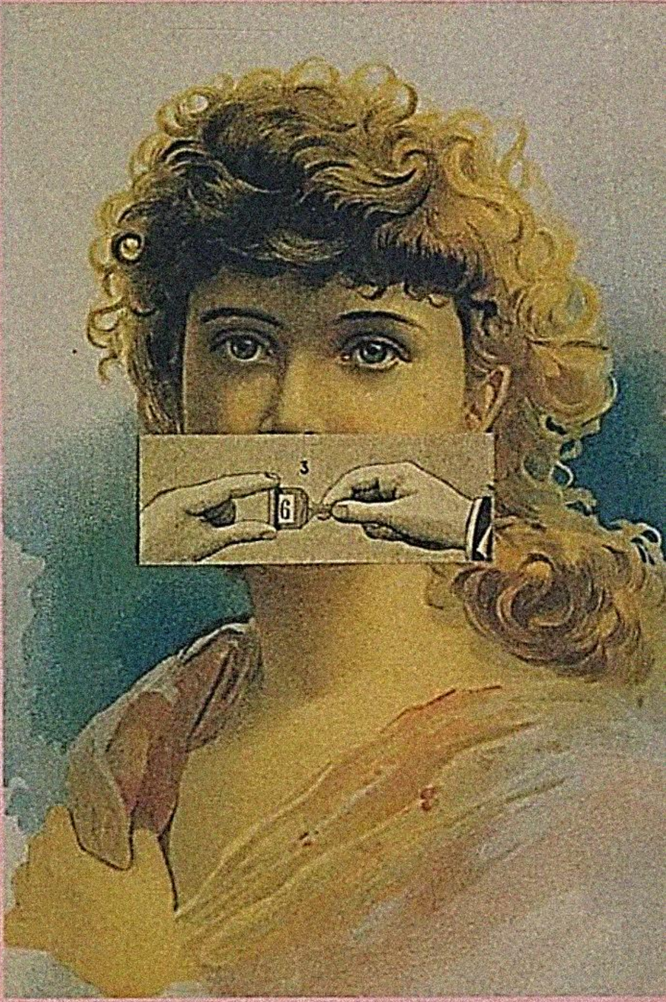
إدوارد تي. هول

اللغة الصامتة



■

"اللغة الصامتة:
يوضح كيف تؤثر العوامل
الثقافية في الفرد بطريقة
خفية ودون أن يدري".

ترجمة: لميس فؤاد اليحيى
مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي

الأهلية

إدوارد تي. هول

اللُغة الصامتة



ترجمة: لميس فؤاد اليحيى

مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي

الأهلية

اللغة الصامتة

الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، بجانب مطعم القدس

هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط

بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة

مكتب بيروت

لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات

هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

اللغة الصامتة

تأليف : إدوارد تي. هول

ترجمة : لميس فؤاد اليحيى / الأردن ◆ مراجعة وتدقيق : محمود الزواوي / الأردن

الطبعة العربية الأولى ، 2007

حقوق الطبع محفوظة

◆

الغلاف : **علي الحسيني** 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن

الصف الضوئي والإخراج : **علي الحسيني**

المحتويات

مقدمة

انقضى ما يزيد على ثلاثين سنة منذ ظهور كتاب *اللغة الصامتة* لأول مرة. في هذه الفترة حدثت أشياء كثيرة لتؤيد المعتقدات الأساسية لهذا الكتاب. من ناحية ثانية، عندما تم نشره، كنت منهمكاً في عملي إلى حد كبير لدرجة أنني فشلت في أن أقدِّر بشكل كامل مدى الحاجة إلى مشاهدات واستبصارات من معالجة عدة ثقافات.

في الواقع، أن كتاب *اللغة الصامتة* هو ترجمة ليست من لغة إلى أخرى، ولكن من سلسلة من اتصالات معقدة وغير شفوية وسياقية إلى كلمات. العنوان يلخص ليس فقط محتوى الكتاب، ولكن أيضاً واحدة من أعظم مفارقات الثقافة. لا يقتصر الأمر على أن الناس "يتحدثون" إلى بعضهم بدون استخدام كلمات، ولكن يوجد عالم كامل من السلوكيات غير المُكتَشَفة وغير المُختَبَرة ومسلم بها إلى حد كبير. إنها تعمل خارج

إدراك واع وجنباً إلى جنب مع الكلمات. أولئك الأشخاص منّا ذوو الإرث الأوروبي، يعيشون في "عالم الكلمة" الذي نعتقد أنه حقيقي، ولكن مجرد أننا نتحدث لا يعني أن باقي ما نتواصل معه بسلوكنا ليس له القدر نفسه من الأهمية. وفي حين أنه لا يوجد شك في أن اللغة تصوغ التفكير بطرق بارعة بشكل استثنائي، يجب على البشر، في النهاية، أن يتعاملوا مع حقيقة الأنظمة الثقافية الأخرى والتأثير المتغلغل الذي تمارسه هذه الأنظمة على الكيفية التي يتم فيها إدراك العالم، وكيف *تُختَبر الذات* وكيف تُنظَم الحياة نفسها. كما يجب أن نعوِّد أنفسنا على حقيقة أن الرسائل على مستوى الكلمة تعني شيئاً واحداً وأنه في بعض الأحيان هناك شيء آخر مختلف تماماً يتم التواصل معه على مستوى آخر. إن فترة ثلاثين عاماً ليست وقتاً كافياً للتحقق من هذه النقاط، بالتأكيد هناك حاجة إلى وقت أطول بكثير قبل أن يتم إدراك جميع معانيها الضمنية.

إن الصلة بين اللغة والإشارات أقرب بكثير منها بين اللغة والأنظمة الثقافية الأخرى التي وصِفَت هنا ـ الزمان والمكان، على سبيل المثال. قد تكون الكلمة والإشارة قابلتين للتبادل، ولكن هذا ليس صحيحاً بالنسبة للزمان أو المكان. المكان، الذي هو موضوع كتابين، *البعد الخفي* و *رقصة الحياة*، لا يتواصل فقط بالمعنى الأكثر عمقاً، ولكنه ينظم كل شيء في الحياة فعلياً. من الأكثر سهولة أن ترى كيف يمكن أن ينظم المكان النشاطات والأعراف من إدراك الأسلوب البارع الذي تنظم فيه اللغة مقومات العقل. إن الأمر الأكثر صعوبة هو تقبُّل الحقيقة بأن أنماط ثقافتنا

فريدة بكل معنى الكلمة، ولذلك فهي ليست عالمية. إن هذه الصعوبة التي يعاني منها البشر في الانسلاخ عن جلودهم الثقافية هي التي حفزتني بأن أحوّل مشاهداتي ونماذجي التصورية إلى كتاب.

إحدى فوائد تأليف كتاب التي تبقى بعد أن تزول نزوات التغيير المؤقتة هي أن الشخص يحصل على تغذية راجعة من القراء ـ ليس فقط كلمات تشجيع، ولكن تأييد مع أمثلة. أحب أنْ أعبر عن تقديري العميق لأولئك الذين كتبوا لي رسائل من جميع أنحاء العالم. وقد تُرجم الكتاب إلى الصينية والهولندية والبولندية والفرنسية والإيطالية والصرب ـ كرواتية.

كنت منهمكاً لعدة سنوات في اختيار وتدريب الأمريكيين الذين يعملون في دول أجنبية في خدمة الحكومة والعمل التجاري. وقد بقيت مقتنعاً بأن القسم الأكبر من الصعوبة التي نعاني منها مع الناس في الدول الأخرى تنشأ من حقيقة أن ما هو معروف عن الاتصال المتعلق بمعالجة عدة ثقافات قليل جداً. وبسبب ذلك فإن القسم الأكبر من النوايا الحسنة والجهود العظيمة لشعبنا تم هدرها في برامجنا للمعونة الخارجية. عندما يتم إرسال الأمريكيين إلى الخارج للتعامل مع الأجانب، يجب أولاً اختيارهم بعناية حسب ملاءمتهم. ثم، من أجل راحتهم ولضمان تأثيرهم، يجب أن يتم تعليمهم أن يتكلموا ويقرأوا لغة الدولة وأن يتم إعلامهم بشكل شامل عن الثقافة. كل ذلك يأخذ وقتاً ويكلّف مالاً. من ناحية أخرى، مالم نكن مستعدين لاختيار وتدريب الموظفين، فإننا ببساطة نهدر وقتنا ونقودنا في الخارج.

إن التدريب الرسمي في اللغة والتاريخ والحكم والعادات هو خطوة أولى فقط. والتعرف على اللغة غير الشفوية للدولة له الدرجة نفسها من الأهمية. معظم الأمريكيين بالكاد يدركون هذه "اللغة الصامتة" بالرغم من أنهم يستخدمونها يومياً. إنهم غير واعين لنمذجة السلوك الموسعة التي تحدد طريقة تدبر الزمن والعلاقات المكانية والمواقف تجاه العمل واللهو والتعلم. وبالإضافة للغتنا الشفوية، فإننا ننقل باستمرار مشاعرنا الحقيقية بلغة السلوك أو التصرف.

إن صعوبات الاتصال البَينثقافي قلَّما تُرى كما هي عليه. عندما يصبح الأمر واضحاً لشعوب دول مختلفة بأنهم لا يفهمون بعضهم البعض، فإن كل واحد منهم يميل إلى إلقاء اللوم على "أولئك الأجانب"، بسبب غبائهم أو خداعهم أو جنونهم كما يوضح المثال التالي.

بالرغم من الكم الكبير من التكهنات الإيجابية، فقد واجهت بعثة معونة أمريكية في اليونان صعوبة كبيرة جداً في التوصل إلى إتفاق. وقوبلت الجهود للتفاوض بمقاومة وشك من جانب اليونانين، وبالتالي لم يتمكن الأمريكيون من إنجاز الاتفاقيات. وأظهر تحليل لاحق لهذا الموقف الساخط سببين غير مشكوك بهما للمأزق: الأول هو أن الأمريكيين يتباهون بصراحتهم بجرأتهم، في حين تعتبر هاتان الصفتان كعائق بالنسبة لليونانين. فالصراحة تدل على نقص في اللباقة وهذا ما يستنكره اليونانيون. الثاني هو أن القاعدة المسلَّم بها والخاصة بالاجتماعات في

الولايات المتحدة هي أن تحدد طول الاجتماع وفقاً لجدول وأن تصل أولاً إلى اتفاقيات بالاعتماد على مبادئ عامة، وتوكل الكتابة الأولية للتفاصيل إلى المرؤوسين. اعتبر اليونانيون هذا التصرف كأداة لخداعهم. فالعرف عند اليونانين يدعو إلى وضع التفاصيل أمام جميع المعنيين بالأمر، مما يستلزم اجتماعات مستمرة بقدر ما يحتاج الأمر وبدون تقيُّد بجدول. كانت نتيجة سوء الفهم هذا سلسلة من الاجتماعات غير المثمِرة مع استنكار كل طرف لسلوك الطرف الآخر. أوضح سلوك الأمريكيين لليونانيين: "لا يتصرف هؤلاء الأشخاص كقرويين يفتقرون إلى البراعة فقط بل يحاولون أيضاً خداعنا بحيل وبجدول أعمال مراوغ."

من الضروري أن نفهم كيف يقرأ الآخرون سلوكنا (ليس كلماتنا، بل سلوكنا). إذا لم يفعل هذا الكتاب شيئاً أكثر من زرع هذه الفكرة، فإنه سيكون قد حقق الغرض منه. ومع ذلك فإن لدي هدفاً أكثر طموحاً. تم تأليف هذا الكتاب من أجل أولئك المهتمين بتحسين الحالة الإنسانية والذين يريدون أن يتعلموا أكثر عن *اللاوعي الثقافي*. أولئك الأشخاص المتحيرون أحياناً كثيرة بالحياة، ويشعرون أنهم منساقون بقوى لا يفهمونها، والذين ربما يرون الآخرين يفعلون أشياء تحيّرهم حقيقة في الوطن وفي الخارج، سيجدون في هذه الصفحات عزاء وسلوى. أتمنى أن أُظهر للقارئ أنه وراء الغموض الظاهر والارتباك واختلال نظام الحياة يوجد هناك نظام. هذا الفهم ربما سيقود القارئ إلى إعادة فحص سلوك الإنسان

في العالم من حوله. كما أرجو أيضاً أن يثير اهتمام القراء في موضوع الثقافة ويقودهم إلى اتباع حدسهم والقيام بمشاهداتهم الخاصة.

في بحثي في علم الثقافة، تلقيت في بادئ الأمر تعاوناً ثميناً من زميلي (جورج ل. تراجر). وهو عالِم لغوي متمرس في علم الإنسان وقد قدم مساهمات هامة في الدراسات اللغوية. قمنا (تراجر) وأنا بتطوير نظرية ثقافية معتمدة على نموذج إتصالات متضمن في هذا الكتاب والذي يشكّل أساسه النظري.

تم ترتيب الصفحات التالية بشكل يقود القارئ بالتدريج من المعروف إلى المجهول. وسيكون مفيداً إذا فكر القارئ بالثقافة كشبيهة للموسيقى: أ) إذا لم يستمع شخص آخر إلى قطعة موسيقية محددة، فمن المستحيل وصفها. ب) قبل أيام القطع الموسيقية المكتوبة، كان على الناس أن يتعلموا بالمحاكاة بشكل غير رسمي. ج) أصبح الناس قادرين على استغلال القوة الكامنة في الموسيقى فقط عندما بدأوا بكتابة القطع الموسيقية. وهذا ما يجب عمله من أجل الثقافة، وهذا الكتاب يقدّم النظير الثقافي لكتاب موسيقى تمهيدي.

يجب على القارئ غير الأمريكي، كما هو الأمر بالنسبة لأعضاء العديد من الأقليات الثقافية الأمريكية، أن يتذكر أن هذا الكتاب قد تم تأليفه أصلاً كرسالة إلى مجموعة المؤلف الخاصة في محاولة جاهدة لزيادة فهمهم لثقافتهم اللاواعية. ولأن الأجانب يشكلون متحدثين ضعفاء وقلما يتقنون

فعلياً ثقافة أخرى، فإن المرء يأمل في أن يتم تأليف مجلدات مشابهة من قِبل المجموعات الإسبانية والأمريكيين الأصليين والسود. أرجو أن تستمر دراسة الثقافة اللاواعية (الثقافة المحلية) وتُشَجَع في أماكن أخرى في العالم، لأن مستقبل الجنس البشري يكمن في المحافظة على تنوعه وتحويل ذلك التنوع لصالحه.

إن أول شكري وعرفاني، كالعادة، يوجهان إلى الشخص الذي تعلمت أن أقدره وأحبه وأعجب به حيث تعاونّا على مر السنين ـ زوجتي وشريكتي (ميلدرد ريد هول). فقد كانت مساهمتها دائماً أساسية في أي شيء عملته.

كعالِم وكعالِم إنسان فإنني أدين بشكل كبير لزملائي، ولكن أدين بالذات للراحل (رالف لينتون)، والذي درست على يده في جامعة كولومبيا. لقد أمضينا ساعات ممتعة مع بعضنا حيث اختبر أفكاراً كان يطورها في تنوع مذهل من المواضيع. وكطالب فقد وجدت التواصل مع الأساتذة أمراً صعباً، ولكن مع (لينتون) فإن الثغرة التي عانيت منها مع أساتذة آخرين لم تكن موجودة أبداً. كان يبدو دائماً قادراً على التواصل بوضوح والاستمتاع بتبادل أفكار حقيقي. في حين أن محتوى هذا الكتاب يختلف عن أي شيء كان سيكتبه (لينتون)، فإنني أشعر أنه كان سيفهم على الأقل بعض الأفكار. وفي عالم الأفكار كان مبتكراً وبخاصة حراً من أي قيود تربط العديد من المفكرين، وكانت مساهماته في علم الإنسان ذات أهمية.

ثلاثة زملاء آخرين قدموا تشجيعاً وتحفيزاً على مدى السنوات، هم

الراحل (إيريك فروم) و (ديفيد ريسمان) و (جون يوسيم). ومع أنني لم أعرفها أبداً بشكل جيد، فقد قدمت (روث بينيديكت) أيضاً مثلاً أعلى للمفكر في كتابيها المبتكرين الممتازين: *أنماط الثقافة* و *زهرة الأقحوان والسيف*.

إن معظم ملاحظاتي للثقافات الأخرى هي النتيجة المباشرة لعمل ميداني مع أمريكيين إسبان في ولاية نيو مكسيكو وأمريكا اللاتينية ومع النافاهو والهوبي والتروكيز وعرب غربي المتوسط والإيرانيين. لاحاجة بنا إلى القول بأن عالِم الإنسان يدين دائماً بشكل كبير للناس الذين يعمل معهم، لأن ما يتعلمه عالِم الإنسان عن ثقافاتهم هو ما يجعل ثقافته ذات معنى أكثر.

كان (كلاركسون إن. بوتر) أول من ألح عليّ أن أؤلف هذا الكتاب وزودني بالتشجيع والتفهم الضروريين لإنجازه. وأود أن أعبر عن تقديري لـ (ريتشارد ك. وينسلو) و(كيرمت لانسنر) للمساعدة الهامة في التحرير.

1

أصوات الزمن

الزمن يتحدث. إنه يتكلم بصراحة أكثر من الكلمات. فالرسالة التي ينقلها تصل مدوّية وواضحة. ولأنه يُعالَج بوعي أقل، فهو عرضة لتحريف أقل من لغة الكلام. ويمكنه أن يجهر بالحقيقة حيث تكذب الكلمات.

كنت ذات مرة عضواً في مجلس البلدية للعلاقات البشرية في مدينة كبيرة. كانت مهمتي أن أقدِّر فرص تبنّي ممارسات غير تمييزيّة من قبل أقسام المدينة المختلفة. كانت الخطوة الأولى في هذا المشروع هي مقابلة رؤوساء الأقسام، وكان اثنان منهم أعضاء في مجموعات أقليات. إذا كان على الشخص أن يصدِّق كلمات هؤلاء الموظفين، فقد بدا أن غالبيتهم كانوا مستعدون لتبنّي ممارسات عمالية غير تمييزيّة. ومع ذلك فقد شعرت أنه،

بالرغم مما قالوه، في حالة واحدة فقط كانت هناك فرصة قوية للتغيير. لماذا؟ الإجابة تكمن في كيفية استخدامهم للغة الزمن والمكان الصامتة.

لقد تم إعطاء اهتمام خاص لتنظيم كل مقابلة. وطُلب من رؤساء الأقسام أن يكونوا جاهزين لقضاء ساعة أو أكثر في مناقشة أفكارهم معي. وبالرغم من ذلك كانت المواعيد تُنسى، والانتظار الطويل في المكاتب الخارجية (من خمس عشرة إلى خمس وأربعين دقيقة) كان أمراً عادياً، وكان وقت المقابلة يُختصر إلى عشر أو خمس عشرة دقيقة. كان يتم إبقائي عادة على مسافة غير ودية أثناء المقابلة. وفي حالة واحدة فقط خرج رئيس القسم من وراء مكتبه. إن هؤلاء الرجال يمتلكون منصباً ويلتصقون به مجازياً وبكل معنى الكلمة!

إن المعنى الضمني لهذه التجربة واضح جداً (معنى يمكن لمستطلعي الرأي العام أن ينتبهوا إليه جيداً). إن ما يفعله الناس بشكل متكرر أهم بكثير مما يقولونه. وفي هذه الحالة، كانت الطريقة التي قام بها كبار موظفي البلدية بمعالجة الزمن هي عبارة عن شهادة بليغة لما يؤمنون به في داخلهم، وذلك لأن بنية أنظمة الوقت ومعناها، وكذلك الفترات الزمنية، كان التعرُّف عليها سهلاً. وفيما يتعلق بكونك متأخراً توجد: فترات "تمتمة بشيء ما"، وفترات اعتذار قليلة، وفترات إهانة معتدلة تتطلب اعتذاراً كاملاً، وفترات وقاحة وفترات إهانة صريحة. لقد كان المحلل النفسي مدركاً منذ زمن طويل لأهمية الاتصال على هذا المستوى، ويمكن أن يشير

إلى الطريقة التي يتعامل بها المرضى مع الوقت كدليل على "المقاومة" و"التحول".

على سبيل المثال، تكون أجزاء مختلفة من اليوم هامة بشكل كبير في سياقات معينة. ويمكن أن يدل الوقت على أهمية المناسبة كما يدل على أي مستوى سيحدث التفاعل بين الأشخاص. في الولايات المتحدة، إذا قمت بالاتصال بشخص ما في الصباح الباكر، أثناء قيامه بالحلاقة أو أثناء تناوله طعام الإفطار، فإن وقت المكالمة يشير عادة إلى أمر بالغ الأهمية ومستعجل إلى حد كبير. الأمر نفسه ينطبق على المكالمات بعد الساعة 11.00 مساءً. فالمكالمة التي تُستلم خلال ساعات النوم تؤخذ على أنها مسألة حياة أو موت، لذا، فمن هنا يأتي ثقل المزحة الفظة لتلك المكالمات بين الشباب. إن إدراكنا بأن الوقت يتكلم ينعكس حتى في التعابير الشائعة مثل، "ما الوقت الذي *تقوله* الساعة؟"

وصف لي (جون يوسيم)، وهو عالِم إنسان إجتماعي أميركي، مثالاً من منطقة جنوب المحيط الهادي يوضح كيف تُؤخذ هذه الأشياء على أنها أمر مسلّم به. كان مواطنو إحدى الجزر يجدون صعوبة في جعل مراقبيهم البيض يستأجرونهم بطريقة تتوافق مع نظام وضعهم التقليدي. ومن منطلق الجهل بالأمر، فقد قام المراقبون باستئجار العديد من مجموعة واحدة، وبقيامهم بذلك عطلوا توازن القوة السائد بين السكان المحليين. اهتاج جميع سكان الجزيرة بسبب هذا الخطأ. ونظراً لأن

الأمريكيين استمروا في تجاهلهم ورفضوا الاستئجار حسب الممارسة المحلية، فقد اجتمع زعماء مجموعتين في إحدى الليالي لمناقشة تقسيم مقبول للأعمال. وعندما توصلوا في نهاية المطاف إلى حل، ذهبوا جميعاً ليروا مدير المصنع وأيقظوه ليخبروه بما تم تقريره. ولسوء الحظ كان ذلك بين الساعة الثانية والثالثة في الصباح. لم يكونوا يعلمون أن إيقاظ الأمريكان في هذه الساعة هو إشارة إلى أمر طارئ وبالغ الأهمية. وكما يمكن أن يتوقع المرء، فقد ظن مدير المصنع الأمريكي، الذي لم يكن يفهم اللغة المحلية ولا الثقافة المحلية ولا سبب الضوضاء، أن هناك شغباً تحت مسؤوليته واستدعى قوات مشاة البحرية الأمريكية. وبكل بساطة لم يخطر بباله أبداً أن أوقات اليوم لها معنى بالنسبة لأولئك الناس يختلف عن ذلك المعنى بالنسبة لنا.

من ناحية أخرى، فإن مدراء المصانع في الولايات المتحدة مدركون تماماً لأهمية الاتصالات التي تتم خلال منتصف النهار أو بعد الظهر والتي تأخذ كل شخص من عمله. ووقتما يريدون أن يعلنوا عن بيان هام، فإنهم سيسألون: "متى يستحسن أن نبلغهم به؟" في الحياة الاجتماعية تشعر الفتاة بالإهانة عندما تدعى إلى موعد في آخر دقيقة من قِبل شخص ما لا تعرفه جيداً، والشخص الذي يرسل دعوة إلى حفلة عشاء بإشعار قبل ثلاثة أو أربعة أيام من الحفلة، يجب عليه أن يعتذر. كم ذلك مختلف عن شعوب الشرق الأوسط الذين يعتبرون تحديد موعد مسبق بمدة طويلة أمراً

لا طائل منه، وذلك لأن البنية غير الرسمية لنظامهم الزمني يضع كل شيء بعد فترة الأسبوع الواحد في فئة مفردة "للمستقبل"، حيث تكون الخطط عرضة لأن "تغيب عن ذاكرتهم."

يُشار إلى الإشعار المُسبق في أمريكا غالباً على أنه "الفترة الاستباقية"[1]، وهو تعبير ذو معنى في ثقافة تكون فيها جداول المواعيد هامة. وفي الوقت الذي يتم تعلُّمها بشكل غير رسمي، فإن معظمنا يعرف كيفية عملها في ثقافتنا، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نعبر عن القواعد التي تحكمها بشكل تقني. فقوانين الفترة الاستباقية في ثقافات أخرى نادراً ما يتم تحليلها. وعلى الأكثر فتلك القوانين معروفة لأولئك الذين عاشوا في الخارج لفترة من الزمن. ومع ذلك فكّر كم هو مهم أن تعرف كم من الوقت يتطلب الأمر لتجهز الناس، أو بالنسبة لهم ليجهزوا أنفسهم، لأشياء ستأتي في المستقبل. في بعض الأحيان كانت الفترة الاستباقية تبدو وكأنها ممتدة كثيراً. وفي أحيان أخرى، في الشرق الأوسط، فإن أي فترة أطول من أسبوع قد تكون طويلة جداً.

إلى أي درجة يمكن أن تكون مزعجة الاختلافات في طرق التعامل مع الوقت يمكن توضيحها في حالة خبير زراعي أمريكي أوكلت إليه مهمة ملحق لسفارتنا في دولة لاتينية. وبعد ما بدا له أنه مدة مناسبة أعلن أنه يرغب في زيارة الوزير الذي كان نظيره. ولأسباب متنوعة، فإن الوقت

(1) الفترة الاستباقية: هي المدة اللازمة من تاريخ المباشرة لتلبية طلب ما.

المقترح لم يكن مناسباً، وجميع أنواع التلميحات عادت لتشير إلى أن الوقت لم يحن بعد لزيارة الوزير. إلا أن صديقنا أصر وفرض موعداً تمت الموافقة عليه بتردد. وبوصوله قبل الساعة المحددة (نموذج الاحترام الأمريكي)، فقد جلس ينتظر. حانت الساعة ومرّت بعدها خمس دقائق ــ وعشر دقائق ــ وخمس عشرة دقيقة. عند تلك اللحظة لفت انتباه السكرتير بأن الوزير ربما لم يعلم بأنه كان ينتظر في المكتب الخارجي. هذا الأمر أعطاه شعوراً بأنه فعل شيئاً ملموساً كما ساعد في التغلب على القلق الكبير الذي كان ثائراً داخله. ومرّت عشرون دقيقة ــ خمس وعشرون دقيقة ـ ثلاثون دقيقة ـ خمس وأربعون دقيقة (فترة الإهانة)!

قفز وأخبر السكرتيرة بأنه انتظر "لفترة طويلة" في المكتب الخارجي وبأنه "مشمئز ومرهق" من هذا الأسلوب في المعاملة. وتم إيصال هذه الرسالة إلى الوزير، الذي قال، في الواقع، "دعوه ينتظر." لقد كانت إقامة الملحق في البلد إقامة غير سعيدة.

يكمن المصدر الرئيس لسوء الفهم في حقيقة أن فترة الخمس دقائق تأخير كانت تافهة في البلد الذي نتحدث عنه. من ناحية أخرى، فإن الخمس والأربعين دقيقة كانت بالكاد في بداية مقياس الانتظار بدلاً من أن تكون في الجزء الأخير منه. فأن تلفت نظر سكرتيرة أمريكية إلى أن رئيسها ربما لم يعلم بأنك موجود هناك بعد انتظار ستين ثانية قد يبدو أمراً سخيفاً، كما كان يمكن إثارة عاصفة بشأن "انتظار" لخمس دقائق. ومع

ذلك فهذه هي بالضبط الطريقة التي سجّل فيها الوزير احتجاجات الأمريكي في مكتبه الخارجي! فقد شعر، كالعادة، أن الأمريكيين كانوا غير منطقيين تماماً.

طوال هذه الحادثة المؤسفة، كان الملحق يتصرف وفقاً للطريقة التي نشأ عليها. وقد كان من الممكن أن تكون سلوكياته في الوطن، الولايات المتحدة، سلوكيات طبيعية وتصرفاته منطقية. ومع ذلك، فحتى لو كان قد أُخبر قبل أن يغادر الوطن أن مثل هذا الشيء كان سيحدث، فإنه كان سيجد صعوبة في عدم الشعور بالإهانة بعد أن تُرك ينتظر لخمس وأربعين دقيقة. ومن ناحية أخرى، فلو كان قد تم تعليمه تفاصيل نظام المواعيد المحلي تماماً كما كان يجب أن يتم تعليمه اللغة المحلية المُتَحَدَث بها، لكان من الممكن بالنسبة له أن يكيّف نفسه وفقاً لذلك.

ما يزعج الناس في مواقف من هذا النوع هو أنهم لا يدركون أنه يتم تعريضهم لشكل آخر من الاتصال، شكل يعمل مرة باللغة ومرة أخرى مستقلاً عنها. إن حقيقة أن الرسالة المنقولة مصوغة بمفردات غير رسمية تجعل الأشياء صعبة على نحو مضاعف، وذلك لأنه لا يمكن لأي فريق أن يتبين بوضوح ما يحدث فعلياً. يمكنهم أن يقولوا فقط ما يعتقدون أنه يحدث وكيف يشعرون بشأن ذلك. إن التفكير بما يتم التواصل به هو ما يؤلم.

الوقت الأمريكي

إن شعوب العالم الغربي، وبالأخص الأمريكيين، يميلون إلى التفكير بالوقت كشيء مثبَّت في الطبيعة، شيء موجود حولنا ولا يمكننا أن نهرب منه، إنه جزء من البيئة دائم الحضور، تماماً مثل الهواء الذي نتنفسه. أن يكون من الممكن التعامل معه بأي طريقة أخرى يبدو أمراً غير طبيعي وغريباً، إنه شعور نادراً ما يعدّل حتى عندما نبدأ باكتشاف كيف يُعالج بشكل مختلف فعلياً من قِبل بعض الشعوب الأخرى. في داخل الغرب نفسه، تُعطي ثقافات معينة الوقت منزلة أدنى بكثير في الأهمية مما نعطيه نحن. ففي أمريكا اللاتينية، على سبيل المثال، يعامل الوقت بلا مبالاة. وفي المكسيك يسمع المرء بشكل شائع التعبير التالي: "وقتنا أم وقتكم؟"" *هورا أمريكانا، هورا ميهيكانا؟*"

وكقاعدة، فإن الأمريكيين يفكرون في الوقت كطريق أو شريط يمتد إلى المستقبل، والذي يتقدم المرء على طوله. ويوجد للطريق أقسام أو أجزاء يجب الإبقاء عليها منفصلة ("شيء واحد في كل مرة") إن الناس الذين لا يستطيعون أن يجدولوا الوقت يُنظر إليهم بازدراء كأشخاص غير عمليين. في بعض أجزاء أمريكا اللاتينية على الأقل، يجد الأمريكيون الشماليون (المصطلح الذي يطلقونه علينا) أنفسهم منزعجين عند تحديد موعد مع شخص ما، فقط ليجدوا كثيراً من الأشياء الأخرى تحدث في الوقت نفسه. اعتاد صديق لي من التراث الثقافي الاسباني أن يدير عمله

وفقاً للنظام "الأمريكي اللاتيني" . كان ذلك يعني أنه كان يتواجد في مكتبه ما يزيد عن خمسة عشر شخصاً في الوقت نفسه. والعمل الذي كان يمكن إنهاؤه في ربع ساعة، كان يأخذ أحياناً يوماً بأكمله. وبالطبع فقد أدرك أن الأنجلو ـ أميركيين كانوا منزعجين من ذلك، وقد اعتاد أن يتساهل معهم، فكان هناك ترتيب اقتضى أن يقضوا ساعة واحدة فقط، أو ما يقارب ذلك، في مكتبه عندما يكون في نيتهم أن يقضوا فيه دقائق. إن المفهوم الأمريكي للتفرّد في الوقت والضرورة لجدولة المواعيد كان في تباين مع هذا النظام اللاتيني الودّي والمربك ظاهرياً. ولكن لو كان صديقي قد التزم بالنظام الأمريكي لكان من الممكن أن يدمر جزءاً حيوياً من نجاحه. فالناس الذين أتوا للقيام بعمل معه، أتوا أيضاً ليكتشفوا أشياءً وليزوروا بعضهم البعض. إن العَشرة إلى الخمسة عشر من الأمريكيين الإسبان ومن الهنود الذين اعتادوا أن يجلسوا حول المكتب (والذين وجدت نفسي فيما بعد بينهم بعد أن تعلمتُ أن أسترخي قليلاً) لعبوا دورهم في نموذج خاص من شبكة الاتصالات.

نحن الأمريكيون لا نفصل الوقت ونحدد المواعيد فقط، ولكننا ننظر إلى الأمام ونكون موجهين نحو المستقبل بشكل كامل تقريباً. ونحب الأشياء الجديدة ونحن منشغلون بالتغيير. ونريد أن نعرف كيف نتغلب على مقاومة التغيير. في الحقيقة أن النظريات العلمية، وحتى بعض النظريات العلمية الزائفة، التي تدمج نظرية مدهشة للتغيير ، تُعطى غالباً أهمية خاصة.

ويعامـل الوقـت معنـا بـشكل أقـرب إلى تعاملنـا مـع مـادة مـا ، فـنحن نكـسبه ونـصرفه ونـوفره ونهـدره . وبالنـسبة لنـا أن يكـون لـدينا أمـران يحدثان في الوقت نفسه هو أمرغير أخلاقي إلى حد مـا . أمـا في أمريكـا اللاتينية فليس من غير الشائع بالنسبة لشخص واحد أن يكون لديه عدد من الأعمال المتزامنة التي يقوم بإنجازها مـن مكتـب واحـد أو يتحـرك فيمـا بينها ، ويصرف جزءاً صغيراً من الوقت على كل منها .

وفي أثناء تطلعنا نحو المستقبل، تكون رؤيتنا له محدودة . فالمستقبل بالنسبة لنا هو مستقبل منظور ، وليس مـستقبل الآسـيويين الجنـوبين الـذي يـستغرق قرونـاً . في الحقيقـة أن منظورنـا قـصير إلى درجـة تكفـي ليُثبـط تطبيق عدة مشاريع عمليـة جيـدة ، كأعمـال وقايـة الطبيعـة وكائناتهـا علـى مدى ستين إلى مئة عام والتي تتطلب دعماً وتمويلاً حكومياً . إن أي شـخص عمل في الصناعة أو في حكومة الولايات المتحدة ، قـد سمـع مـا يلـي : "أيهـا السادة ، هذا للمدى الطويل! خمس أو عشر سنوات ."

بالنسبة لنا "وقت طويل" يمكن أن يكون أي شيء ـ عشر أو عشرون سـنة ، شـهران أو ثلاثـة شـهور ، بـضعة أسـابيع ، أو حتـى يـومين . مـن ناحيـة أخرى ، يشعر الجنوب آسيويون أنه من الواقعي جداً أن تفكر بـعبارة "وقـت طويـل" بمعنـى آلاف الـسنين أو حتـى فـترة لانهائيـة . وصـف زميـل ذات مـرة مفهومهم للوقت كما يلي : "الوقت مثل متحف ذي دهاليز وممرات لا نهايـة لها . وأنـت المشاهد تمشي خلال المتحف في الظلام وأنـت تحمـل ضـوءاً لكـل

مشهد أثناء مرورك به. الله هو الوصي على المتحف، وهو وحده يعلم كل ما فيه. وفترة حياة واحدة تمثل دهليزاً واحداً."

إن نظرة الأميركي إلى المستقبل مرتبطة بنظرته إلى الماضي، وذلك لأن العادات والتقاليد تلعب دوراً محدوداً في الثقافة الأمريكية بالدرجة نفسها التي يلعبها المستقبل. ونحن، إجمالاً، ندفعه جانباً أو نتركه لبضعة من الأشخاص المهتمين بالماضي من أجل أسباب خاصة جداً. وتوجد، بالطبع، بضعة جيوب مثل منطقتي نيوإنجلند والجنوب، حيث يُشدّد فيها على التقاليد والأعراف. ولكن في حقل العمل التجاري، الذي هو النموذج المهيمن في حياة الولايات المتحدة، فإن العادات والتقاليد توازي/*الخبرة*، ويقصد بالخبرة شيء قريب جداً من "المهارة"، إن لم تكن مرادفة لها. والمهارة هي واحدة من أهم ممتلكاتنا، لذا، فعندما ننظر إلى الوراء فمن النادر أن يكون ذلك لكي نستمتع بالماضي بحد ذاته، ولكن عادة لكي نجمع المهارة، ولنقيّم إمكانيات النجاح في المستقبل.

إن دقة المواعيد تقيَّم عالياً، أيضاً، في الحياة الأمريكية. وإذا لم يكن الناس دقيقين في مواعيدهم، فإن ذلك يؤخذ كإهانة أو كدلالة على أنهم غير مسؤولين تماماً. وهناك أشخاص، مهتمون في علم النفس، يمكن أن يقولوا بأننا مهووسون بالوقت. من الممكن أن يشيروا إلى أفراد في الثقافة الأمريكية مهووسون بالوقت بكل معنى الكلمة. وحتى بقيتنا نشعر بأهمية كبيرة تجاه الوقت لأنه تم تعليمنا أن نأخذه بجدية كبيرة. لقد

شدّدنا على هذا الجانب من الثقافة وطورناه إلى درجة ليس لها نظير في أي مكان من العالم، إلا ربما في سويسرا وشمالي ألمانيا. الكثير من الناس ينتقدون تعاملنا المهووس مع الوقت. وينسبون القرحة وارتفاع ضغط الدم إلى الضغط الناشئ عن هكذا نظام. ربما أنهم على صواب.

بعض المفاهيم الأخرى للوقت

حتى داخل حدود الولايات المتحدة ذاتها، هناك أشخاص يتعاملون مع الوقت بطريقة مبهمة تقريباً بالنسبة لأولئك الذين لم يبذلوا جهداً كبيراً لفهمه. على سبيل المثال، يمتلك هنود (بويبلو)، الذين يعيشون في الجنوب الغربي، إحساساً بالوقت يختلف تماماً مع عادات المواطن الأمريكي العادي المرتبطة بالوقت. بالنسبة لهنود (بويبلو) تبدأ الأحداث عندما يحين الوقت وليس قبل ذلك.

ما زلت أتذكر رقصة عيد ميلاد حضرتها قبل حوالي عشرين عاماً في إحدى القرى الهندية الصغيرة بالقرب من (ريو غراند). كان عليّ أن أسافر فوق طرق مليئة بالحفر والمطبات لمسافة خمسة وأربعين ميلاً لكي أصل إلى هناك. عند ارتفاع سبعة آلاف قدم، تكون شدّة برد الشتاء عند الساعة الواحدة فجراً غير محتملة. واصلت البحث وأنا أرتجف في الظلام الساكن للقرية عن ما قد يدل على متى يمكن أن يبدأ حفل الرقص.

كان كل شيء في الخارج في سكون مطبق. وكان هناك بين الفينة

والأخرى ضرب مكتوم لطبل قرية بعيدة، أو صوت لفتح باب أو خرق لظلام الليل بشعاع من ضوء ما. كان بضعة مدنيين بيض محتشدين معاً على شرفة في الكنيسة التي كان سيقام فيها حفل الرقص، وهم يلتمسون دليلاً ما يمكن أن يشير إلى متى ستستمر معاناتهم. "سمعت في السنة الماضية أنهم بدأوا في الساعة العاشرة." "لن يتمكنوا من البدء إلى أن يأتي القِس." "لا توجد طريقة للقول متى سيبدأون." كل ذلك مع فواصل من اصطكاك أسنان وضرب الأقدام بالأرض للمحافظة على الدورة الدموية بحالة جيدة.

فجأة فتح أحد الهنود الباب، ودخل وأذكى النار في الموقد. فوكز كل شخص جاره: "ربما أنهم سيبدأون الآن." مرت ساعة أخرى. وحضر هندي آخر من الخارج، ومشى عبر صحن الكنيسة واختفى من خلال باب آخر. "بالتأكيد أنهم الآن سيبدأون. فالساعة الثانية تقريباً." خمّن أحدهم أنهم كانوا مجرد مشاكسين على أمل أن الرجال البيض كانوا سيغادرون. وشخص آخر كان عنده صديق في القرية وذهب إلى منزله ليسأله متى كان سيبدأ حفل الرقص. لم يعرف أحد ذلك. فجأة، وعندما كان الرجال البيض قد أنهكوا، انفجرت في الليل الأصوات المنخفضة للطبول، والصلصلة وأصوات ذكورية منخفضة تغني. لقد بدأ الرقص بدون إشعار.

بعد سنوات من حفلات كهذه، لن يقومَ أي رجل أبيض بعقله السليم بالمخاطرة بتخمين متى ستبدأ إحدى هذه الحفلات الراقصة الشعائرية.

وأولئك الأشخاص من بيننا الذين تعلموا ذلك يعرفون الآن أن الرقص لن يبدأ في وقت محدد. فهو ليس معداً وفقاً لبرنامج مواعيد. إنه يبدأ عندما تكون "الأشياء" جاهزة!

كما بيّنت، فإن الرجل الأبيض المتمدن لديه نظرة سطحية للمستقبل مقارنة بالشرقي. ومع ذلك يبدو بجانب هنود (النافاهو) لشمال أريزونا، كنموذج للصبر طويل الأمد. كان (النافاهو) والأميركيون الأوروبيون يحاولون أن يعدّلوا مفاهيمهم للوقت لمدة ما يقارب مائة عام. وحتى الآن لم يحققوا أي نجاح. بالنسبة لثقافة النافاهو القديمة فإن الوقت كالمكان ـ فهنا والآن هما فقط حقيقة تامة. والمستقبل بالنسبة لتلك الثقافة له قليل من الواقعية.

عبّر صديق لي نشأ مع (النافاهو) عن ذلك بهذه الطريقة: "أنت تعلم إلى أي درجة يحب (النافاهو) الخيول وكم يحبون أن يقامروا ويراهنوا على سباقات الخيول. حسناً، فإذا كنت ستقول لهندي نافاهو، 'يا صديقي، هل تعرف فرسي الرُّبْعِي[1] الذي ربح جميع السباقات في (فلاغستاف) في الرابع من يوليو/تموز الماضي؟' فذلك النافاهو كان سيقول بحماس 'نعم، نعم،' فهو يعرف الفرس، وإذا كنت ستقول، 'في الخريف سأعطيك ذلك الفرس' فإن وجه هندي (النافاهو) سيكفهر وسيستدير وينصرف. من

---

(1) الفرس الرُّبْعي: فرس سريع العدو دُعي بذلك لما يتميّز به من سرعة فائقة في المسافات التي تبلغ ربع ميل.

ناحية أخرى، إذا كنت ستقول له، 'هل ترى كيس العظام العجوز الذي امتطيته للتو؟ تلك الفرس العجوز ذات البطن المحشو بالقش والركب المصطكة وحوافر كأصابع الحمامة، مع لجام بحالة سيئة وسرج مهترئ؟ يمكنك أن تأخذ ذلك الحصان، يا صديقي، إنه لك. خذه وانطلق به الآن.' عندها سيبتسم هندي (نافاهو) ابتسامة عريضة وسيصافحك ويقفز على حصانه الجديد وينطلق مبتعداً. من بين الأمرين، فالهدية الفورية هي فقط الحقيقة، ولا يستحق وعد بفوائد مستقبلية حتى التفكير به."

في بدايات برامج التحكم بالمراعي وحماية التربة، كان من المستحيل تقريباً أن تُقنع (النافاهو) بأن هناك شيئاً يمكن اكتسابه من التخلي عن مواشيهم المحببة لفوائد كان يمكن التمتع بها لعشر أو عشرين عاماً في المستقبل. حالما انشغلت بالإشراف على بناء سدود أرضية صغيرة، ومثل كل شخص آخر، حققت القليل من النجاح في البداية في إقناع عمال (نافاهو) بأنه كان يجب عليهم أن يعملوا بجد أكثر وأن يبنوا السد بسرعة، بحيث سيكون هناك مزيد من السدود ومزيد من الماء من أجل الماشية. لم يُفصح الجدال بأنه كان من الممكن أن يكون لديهم سد واحد أو عشرة سدود عن أي شيء. ولم ينتجوا كما نعرف أنهم كانوا يستطيعون ذلك إلى أن تعلّمت أن أترجم تصرفنا إلى تعابيرهم.

وظهر الحل بهذه الطريقة. كنت أناقش المشكلة مع صديق، اسمه (لورينزو هوبيل)، عاش طوال حياته في مستوطناتهم. وقد اعتدت أن

أجد فائدة في البوح له بما في نفسي عندما أواجه مصاعب. في مكان ما في ملاحظاته كان هناك دائماً مفتاح إلى النماذج الأساسية لحياة (النافاهو). وأثناء ما كنا نتحدث علمت أن (النافاهو) يدركون ويحترمون صفقة ما. كان لدي فكرة غامضة عن ذلك عندما لاحظت كم أصبح الهنود مضطربين عندما تم السماح لهم بأن لا يقوموا بالعمل الذي وافقوا على أن يقوموا به. وعلى وجه الخصوص، فقد بدوا قلقين خوفاً من أن يُطلب منهم أن يدفعوا مرة ثانية التزاماً غير موفى في وقت ما مستقبلاً. قررت أن أجلس مع فريق من (النافاهو) وأتحدث إليهم عن العمل. كان من غير المجدي تماماً أن تناقش بشأن الفوائد المستقبلية التي كانت ستتراكم من العمل الجاد؛ ولم يكن للتفكير الخطي والمنطق أهمية. ومع ذلك فقد استجابوا عندما أشرت إلى أن الحكومة كانت تعطيهم نقوداً ليتخلصوا من الدين، وتزودهم بأعمال قريباً من عائلاتهم وتعطيهم ماءً من أجل مواشيهم. وشدّدت على حقيقة أن عليهم أن يعملوا لمدة ثماني ساعات يومياً في مقابل ذلك. تم تقديم ذلك كصفقة. وبعد توضيح ذلك تقدّم العمل بشكل مرضٍ.

قدم أحد عمالي الهنود، بشكل غير مقصود، مثالاً آخر على الصراع الثقافي المتمحور حول الوقت. كان اسمه (ليتل سنداي). وكان صغير الحجم ونحيلاً وجذاباً. وحيث أنه من غير اللائق أن تسأل (النافاهو) عن معنى أسمائهم أو حتى تسألهم عن ما هو اسمهم، كان من الضروري أن استفسر من آخرين كيف حدث أن سُمّي (ليتل صندي). وكان التفسير

في بداية عهد التجار البيض، وجد الهنود صعوبة كبيرة في الاعتياد على حقيقة أن الأوروبين قسّموا الوقت إلى فترات غريبة وغير طبيعية بدلاً من أن يكون لديهم تعاقب "طبيعي" للأيام والتي تبدأ مع القمر الجديد وتنتهي بالقديم. لقد كانوا مرتبكين بشكل خاص بحركة الأسبوع التي أدخلها التجار والمبشرون. تخيّل هندي (نافاهو) يعيش على بعد حوالي أربعين إلى خمسين ميلاً من السوق التجاري والواقع على بعد مائة ميل شمال سكة الحديد، ويقرر أنه يحتاج إلى دقيق وربما إلى قليل من الدهن والخبز. إنه يفكر بالدقيق والدهن، ويفكر بأصدقائه والمرح الذي سيحصل عليه بالمقايضة، أو ربما يتساءل عما إذا كان التاجر سيعطيه بالدين أو كم هو المبلغ الذي يمكنه أن يحصل عليه مقابل جلد الحيوان الذي يمتلكه. بعد امتطاء الحصان لمدة يوم ونصف إلى يومين، يصل إلى المتجر وهو جاهز تماماً للمقايضة. المتجر مغلق بإحكام. وهناك يوجد هنديان آخران عسكرا في كوخ بُني من قِبل التاجر. قالا إن التاجر في الداخل ولكن لن يتاجر لأن اليوم هو الأحد. طرقوا على بابه بعنف وأخبرهم "إذهبوا، إنه يوم الأحد"، وقال (النافاهو): "ولكنني أتيت من طريق بعيدة على (بلاك ميسا)، وأنا جائع. أحتاج إلى بعض الطعام." ماذا يمكن للتاجر أن يفعل؟ وفي الحال فتح المتجر وعندها اندفع جميع هنود (النافاهو) إلى الداخل. أحد أكثر زوار يوم الأحد تردداً وإصراراً كان ذلك الرجل الذي استحق لنفسه لقب (بيغ سنداي). واتضح أن (ليتل سنداي) كان الثاني في الإزعاج.

ويزودنا هنود (سو) بمثال مهم آخر عن الآراء المختلفة تجاه الوقت. منذ فترة ليست بالطويلة، حضر رجل إلى مكتبي وتم تقديمه على أنه المشرف على الـ (سو). وعلمت أنه ولِد على الأرض المخصصة لهم وكان نتاج كِلتا الثقافتين، الثقافة الهندية وثقافة الرجل الأبيض، وأنه حصل على درجة البكالوريوس من إحدى جامعات (آيفي ليغ) الراقية.

خلال التفسير الطويل والمدهش للمشاكل العديدة التي كانت قبيلته تعاني منها في التكيف مع طريقتنا في الحياة، أبدى فجأة ملاحظة: "ما هو رأيك في شعب لا يوجد لديهم كلمة تعني "وقتاً"؟ شعبي ليس لديهم كلمة تعني 'متأخراً' أو كلمة تعني 'انتظاراً'، من أجل ذلك الأمر. إنهم لا يعرفون ماذا يعني أن تنتظر أو أن تكون متأخراً." ثم تابع: "قررت أنهم لن يتمكنوا أبداً من تكييف أنفسهم مع ثقافة الرجل الأبيض ما لم يتمكنوا من تحديد الوقت ومن معرفة ما هو الوقت. لذا، بدأت بتعليمهم الوقت. لم يكن يوجد ساعة تعمل في أي من غرف صف مستوطنتهم. لذلك فأول شيء فعلته هو أنني قمت بشراء بضعة ساعات مناسبة. بعدئذ جعلتُ حافلات المدارس تنطلق في الوقت المحدد، وإذا تأخر الهندي لدقيقتين، فقد كان ذلك أمراً سيئاً جداً. كانت الحافلة تنطلق في الساعة الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة وكان يجب عليه أن يكون هناك."

لقد كان على صواب، بالطبع. ما كان من الممكن للـ (سو) أن يتكيّفوا مع الطرق الأوروبية إلى أن تعلّموا معنى الوقت. ربما أن طرق

المُشرف قد بدت متطرفة قليلاً، ولكنها كادت تكون الوحيدة التي كان من الممكن أن تنجح. إن فكرة انطلاق الحافلات وجعل السائقين يلتزمون بجدول مواعيد صارم كانت فكرة عبقرية؛ وكانت ألطف كثيراً بالنسبة للهندي الذي يستطيع أن يتحمَّل بشكل أفضل تفويت حافلة في المستوطنة من أن يخسر عملاً في المدينة لأنه كان متأخراً.

في الحقيقة أنه لم تكن هناك طريقة أخرى لتعليم الوقت للناس الذين يتعاملون معه بشكل مختلف عنّا مثل هنود الـ (سو). إن أسرع طريقة هي أن تصبح تقنياً جداً بشأنه وأن تجعله يعني شيئاً ماً. فيما بعد يمكن لهؤلاء الناس أن يتعلموا الاختلافات غير الرسمية، ولكن لن يتكيّفوا مع ثقافتنا إلى أن يكونوا قد مارسوا ثم أتقنوا أسلوبنا في التوقيت.

على بعد آلاف الأميال من مستوطنات الهنود الحمر، توصلنا إلى طريقة أخرى للتعامل مع الوقت والتي يمكن أن تكون مقلقة تماماً للزائر غير المُهيّأ. إن سكان جزيرة (تروك) في جنوب غربي المحيط الهادي يعاملون الوقت بطريقة عقّدت الحياة بالنسبة لهم كما عقدتها بالنسبة للآخرين، حيث أنها تفرض مشاكل خاصة ليس بالنسبة لحكامهم المدنيين والعسكريين ولعلماء الإنسان الذين يسجلون حياتهم فحسب، بل بالنسبة لزعمائهم أيضاً.

إن الوقت لا يداوي في (تروك)! الأحداث الماضية تتراكم وتضع عبئاً دائم التزايد على سكان (تروك) وتثقل الوطأة على الحاضر. في الواقع أنها

تُعامل وكأنها حدثت للتو. كان هذا يُؤَيَّد من قِبل شيء حدث بعد فترة وجيزة من الاحتلال الأمريكي للجزيرة في نهاية الحرب العالمية الثانية.

وصل قرويٌّ مقطوع النفس تماماً إلى مركز قيادة الحكومة العسكري. قال إن جريمة قد ارتُكِبت في القرية وإن القاتل قد فر هارباً. وبطبيعة الحال ساور ضابط الحكومة العسكرية القلق، وكان على وشك أن يرسل شرطة عسكرية للقبض على الجاني عندما تذكَّر أن أحدهم حذره بشأن التصرف بتهور مع "السكان المحليين". وأظهر تحقيق بسيط أن الضحية كان يقيم "علاقة جنسية" مع زوجة القاتل. كما أظهر مزيد من التحقيقات ذات الطابع الروتيني كانت تهدف إلى إثبات مكان وتاريخ الجريمة، أن الجريمة لم تحدث منذ بضعة ساعات أو حتى منذ أيام، كما يمكن أن يظن المرء، ولكن قبل سبعة عشر عاماً. كان القاتل يفرّ طليقاً في القرية طوال هذا الوقت.

مثال آخر عن كيف أن الوقت لا يداوي عند سكان (تروك) هو في خلاف على أرض بدأ مع الاحتلال الألماني في تسعينيات القرن التاسع عشر، واستمر خلال الاحتلال الياباني، وكان مايزال جارياً وحاداً عندما وصل الأمريكيون في عام 1946.

قبل وصول المبعوث الديني (موزس) إلى (أومان) في عام 1867، كانت الحياة في (تروك) تتميّز بالعنف والصراع الدموي. وبدلاً من أن تُبنى القرى على الشاطئ حيث الحياة كانت أسهل قليلاً، كانت تقام على

جوانب الجبال حيث كان يمكن أن يكونوا محميين بشكل أفضل. كان الهجوم يُشن بدون إشعار، وغالباً بدون تحريض واضح. أو ربما يبدأ قتال إذا سرق رجل جوزة هند من شجرة لم تكن ملكه أو ترصّد لإمرأة واستغلها. بعد عدة سنوات كان يمكن للمرء أن يبدأ التفكير بالشيء الخطأ ويقرر بأنه لم يصوّب بعد. وكان يمكن أن تُهاجم القرية مرة ثانية في منتصف الليل.

عندما وجهَت التهم ضد زعيم بسبب أشياء فعلها لشعبه، كان يدرج كل أمر تافه وكل ابتزاز مال صغير، ولم يكن يُنسى أي شيء. كانت عن التعويضات تطلب عن كل شيء. لقد كان يبدو ذلك غير معقول بالنسبة لنا نحن الأمريكيون، خاصة عندما نظرنا إلى قوائم الاتهامات. "كيف يمكن أن يكون الزعيم فاسداً إلى هذا الحد؟" و"كيف يمكن للناس أن يتذكروا كل ذلك؟"

بالرغم من أن سكان جزيرة (تروك) يحملون العبء المتراكم من الماضي على كواهلهم، فإنهم يظهرون عجزاً تاماً لفهم الفكرة بأنه يمكن لحادثتين أن تحدثا في الوقت نفسه عندما تبعد عن بعضهما أية مسافة. فعندما احتل اليابانيون (تروك) في نهاية الحرب العالمية الأولى، أخذوا (آرتي موزس)، زعيم جزيرة (أومان) إلى طوكيو. أجبر (أرتي) على إرسال رسالة لاسلكية إلى شعبه كإيضاح لقوة التكنولوجيا اليابانية. رفضت عائلته أن تصدق أنه قام بإرسالها، أو أنه قال أي شيء على الإطلاق، بالرغم من أنهم عرفوا أنه كان في طوكيو. الأماكن البعيدة هي حقيقية

جداً بالنسبة لهم، ولكن الناس البعيدين هم بعيدون جداً، وأي تفاعل معهم هو أمر لا يقبله العقل.

معالجة مختلفة تماماً للوقت تم الإبلاغ عنها من قِبل عالم الإنسان (بول بوهانان) بالنسبة للـ (تيف)، وهم شعب بدائي يعيش في نيجيريا. كانوا مثل (النافاهو) يتجهون إلى الشمس ليشيروا إلى وقت عام من النهار، يراقبون أيضاً حركة القمر عندما يكبر وعندما ينمحق. الشيء المختلف هو الطريقة التي يستخدمون ويختبرون فيها الوقت. بالنسبة للـ (تيف) الوقت مثل الكبسولة. هناك وقت للزيارة أو وقت للطهو أو وقت للعمل، وعندما يكون الشخص في أحد هذه الأوقات فإنه لا ينتقل إلى وقت آخر.

بالنسبة للـ (تيف) فما يعادل الأسبوع يستمر خمسة إلى سبعة أيام. إنه ليس مرتبطاً بالأحداث الطبيعية، مثل أطوار القمر. وأيام الأسبوع تُسمى على أسماء الأشياء التي يتم بيعها في "السوق" الأكثر قُرباً. فلو كان لدينا المرادف، فإن يوم الإثنين سيكون "سيارات" في واشنطن العاصمة.، و"أثاثاً" في بلتيمور، و"ساحة بضائع" في نيويورك. وكل واحد من تلك الأسماء يمكن أن يُتبع بالأيام المخصصة للأجهزة والمشروبات الروحية والألماس في المدن الخاصة بكل منها. وهذا سيعني أنه أثناء سفرك فإن يوماً من الأسبوع كان سيستمر بالتغيُّر اعتماداً على المكان الذي كنت فيه.

إن الشيء الضروري في نظامنا الزمني هو أن الأجزاء يجب أن تُجمع:

ستون ثانية يجب أن تساوي دقيقة، وستون دقيقة تساوي ساعة. ويرتبك الأمريكي مع الشعوب التي لا تفعل هذا الشيء. إن أخصائي الشؤون الإفريقية (هنري أليكساندر جونود)، في حديثه عن الـ (ثونغا)، يخبر عن طبيب دجال حفظ تسلسلاً زمنياً لمدة سبعين عاماً عن ظهر قلب وكان يمكنه أن يفصِّل الأحداث لكل سنة بشكل متتالي. ومع ذلك فهذا الرجل نفسه تحدث عن فترة حفظها كـ"عصر" وحسبها بـمُدة "أربعة أشهر وثمانمائة سنة". إن رد الفعل العادي لهذه القصة ولقصص أخرى شبيهة هو أن الرجل كان بدائياً، مثل طفل صغير، ولم يفهم ما الذي كان يقوله، لأنه كيف يمكن لسبعين عاماً أن تكون مثل ثمانمائة عام؟ وكدارسين للثقافة لم يعد بإمكاننا أن نرفض المفاهيم الأخرى للحقيقة بالقول بأنهم كالأطفال. يجب علينا أن نتعمّق أكثر. في حالة الـ (ثونغا)، يبدو أن "التسلسل الزمني" هو شيء، و"العصر" هو شيء آخر مختلف تماماً، ولا توجد علاقة بين الإثنين فيما يتعلق بالقيام بعمل.

إذا كانت تلك الاختلافات بين الوقت الأوروبي الأمريكي وبين المفاهيم الأخرى للوقت تبدو أنها تزعج الشعور البدائية، فسوف أذكر مثالين آخرين ـ من ثقافات بالدرجة نفسها من التمدن، إن لم تكن بالدرجة نفسها من التطور الصناعي، الخاص بنا. عند مقارنة الولايات المتحدة بإيران وأفغانستان تظهر اختلافات في معالجة الوقت. فموقف الأمريكيين نحو المواعيد هو أحد الأمثلة. عندما كنت ذات مرة في

طهران، سنحت لي فرصة لمراقبة بعض الشباب الإيرانيين وهم يضعون خططاً من أجل حفلة. وبعد وضع الخطط لأخذ كل شخص في أوقات وأماكن محددة، بدأ كل شيء ينهار. كان الأشخاص يتركون رسائل بأنهم كانوا غير قادرين على أن يأخذوا كذا وكذا، أو أنهم كانوا سيذهبون إلى مكان آخر، وهم يعلمون تماماً أن الشخص الذي أُعطي الرسالة لن يتمكن من تسليمها بأي حال. تُركت إمرأة شابة على قارعة الطريق ولَم يبدُ أن أحداً كان مهتماً بذلك. أوضح أحد الرواة أنه هو نفسه تعرّض إلى العديد من التجارب المماثلة. في ما مضى حدد أحد عشر موعداً ليقابل صديقاً. وفي كل مرة كان أحدهما يفشل في الحضور. وفي المرة الثانية عشرة أقسما بأنهما سيكونان هناك، وأنه لن يمنعهما أي شيء. وفشل الصديق في الوصول. وبعد انتظار لمدة خمس وأربعين دقيقة اتصل الراوي بصديقه ووجد أنه مايزال في المنزل. والمحادثة التالية هي شيء تقريبي لما حدث:

"هل هذا أنت عبد؟" "نعم." "لماذا أنت لست هنا؟ أعتقدت أننا سنتقابل بالتأكيد." "آه، ولكنها كانت تمطر،" قال عبد بنوع من صوت نحيب والذي هو أمر شائع في اللهجة اللغة الفارسية.

إذا كانت المواعيد الحالية تُعامل على الأكثر بإهمال، فإن الماضي في إيران يحظى بأهمية كبيرة. يلتفت الناس بأفكارهم إلى ما يشعرون بأنه عجائب الماضي والعصور العظيمة لثقافة فارس. ومع ذلك يبدو أن

للمستقبل واقعية ضئيلة أو يقيناً ضعيفاً بالنسبة لتلك الثقافة. رجال الأعمال معروفون بأنهم يستثمرون مئات الآلاف من الدولارات في مصانع من أنواع مختلفة دون عمل أبسط خطة عن كيفية استخدامها. تم شراء مصنع صوف كامل، وتم شحنه إلى طهران قبل أن يكون المشتري قد جمع نقوداً كافية لإقامته وشراء التجهيزات أو حتى لتدريب الموظفين. وعندما حضر فريق أخصائيين فنيين أمريكيين ليدعموا الاقتصاد الإيراني، كان عليهم أن يعالجوا باستمرار ما بدا لهم عجزاً كاملاً تقريباً في التخطيط.

بالتحرك شرقاً من إيران إلى أفغانستان، يصبح المرء بعيداً عن مفاهيم الوقت الأمريكي. قبل بضعة سنوات في كابول، ظهر رجل كان يبحث عن شقيقه. سأل جميع التجار في السوق إذا كانوا قد رأوا شقيقه وأخبرهم أين كان يقيم في حالة وصل شقيقه أو أراد أن يجده. في العام التالي كان قد رجع وأعاد المسرحية نفسها. في ذلك الوقت، سمع أحد أعضاء السفارة الأمريكية عن استفساره وسأل عما إذا كان قد وجد شقيقه. أجاب الرجل بأنه اتفق هو وشقيقه على أن يلتقيا في كابول، ولكن لم يقل أي منهما في أي سنة.

إن الغرابة التي قد تبدو بها بعض هذه القصص عن الطرق التي يعالج الناس بها الوقت، تصبح مفهومة عندما يتم تحليلها بشكل صحيح. ولكي تفعل ذلك بشكل مناسب يتطلب الأمر نظرية ملائمة عن الثقافة. وقبل أن

نعود إلى موضوع الزمن مرة ثانية ـ في فصل لاحق من هذا الكتاب ـ أرجو أنني سأكون قد قدمت مثل تلك النظرية. فهي لن تلقي الضوء فقط على الطريقة التي ينسجم بها الوقت مع جوانب أخرى عديدة من المجتمع، بل ستزود بمفتاح يحلّ رموز بعض أسرار اللغة البليغة للثقافة والتي تتحدث بطرق كثيرة ومتنوعة.

2

ما هي الثقافة؟

الثقافة هي كلمة لها معانٍ عديدة جداً بحيث أن معنى آخر لن يسبب لها ضرراً. قبل أن يكون هذا الكتاب قد انتهى، سأعرّفها مرة ثانية ـ وفي طريقة، أرجو، أن أوضح بها ما قد أصبح مفهوماً مشوشاً جداً. بالنسبة لعلماء الإنسان رمزت الثقافة لمدة طويلة إلى طريقة حياة الشعوب، وإلى مجموع نماذج سلوكهم المُكتسب بالتعلُّم، وإلى مواقفهم وإلى الأشياء المادية. ومع أن معظم علماء الإنسان يؤيدون هذا الرأي العام، فإنهم يميلون إلى الاختلاف بشأن ما هو جوهر الثقافة بالضبط. عملياً غالباً ما يقود عمل بعضهم إلى الافتتان بصنف مفرد من الأحداث من بين العديد مما يصنع حياة البشر، ويميلون إلى التفكير بذلك كأساس كل الثقافة. وآخرون، الذين يبحثون عن موضع استقرار في تغير المجتمع المتواصل، غالباً ما يصبحون منشغلين بتحديد جزيء أو عنصر مشترك

يمكن أن يتم إيجاده في كل جانب من جوانب الثقافة. الخلاصة أنه بالرغم من أن مفهوم الثقافة تم تعريفه لأول مرة في الكتب في عام 1871 من قِبل (إي. بي. تيلور)، وبعد كل تلك السنين مازال يفتقر إلى تحديد صارم يُمَيِّز العديد من الأفكار النافعة والأقل ثورية.

ومن المؤسف أكثر هو البطء الذي تغلغل فيه مفهوم الثقافة خلال الوعي العام. بالمقارنة مع أفكار مثل اللاوعي أو الكبت، لاستخدام مثالين من علم النفس، فإن فكرة الثقافة هي فكرة غريبة حتى بالنسبة للمواطن المطّلع. والأسباب في ذلك جديرة بالملاحظة لأنها توحي ببعض المصاعب المتأصلة في مفهوم الثقافة بحد ذاته.

منذ البداية، كانت الثقافة مجال اختصاص عالِم الإنسان الذي عادة ما يكتسب خبرة مباشرة لقوتها المتغلغلة من الميدان خلال فترة التدريب العملي التي تلي الفترة المحددة للتدريب الصفيّ. وعندما يتعمّق علماء الإنسان قليلو الخبرة أكثر وأكثر في حياة الشعوب التي كانوا يدرسونها، فإنهم يقتنعون حتماً بأن تلك الثقافة كانت حقيقية وليست مجرد شيء خيالي تم التفكير به من قِبل الباحث في الجانب النظري. علاوة على ذلك، فأثناء استيعابهم ببطء للتعقيدات في ثقافة ما، كانوا يميلون إلى الشعور بأنه لا توجد طريقة أخرى تُفهم بها هذه التعقيدات أفضل من فهمها عن طريق تجربة طويلة؛ وبأنه كان من المستحيل تقريباً أن تنقل هذا الفهم إلى أي شخص لم يمر خلال التجربة نفسها.

كان يمكن أن تكون هذه الحالة الذهنية كافية لعزل المهارات المتنامية لعلماء الإنسان عن المجتمع العادي من حولهم والذي ربما كان من الممكن أن يستخدم تبصراتهم ومعرفتهم الخاصة. ولكن كانت هناك أسباب أخرى، أيضاً. فأي تدريب تقني كان يخضع له علماء الإنسان، كان نوعاً ما مطولاً ومفصَّلاً. واهتم بمواضيع كانت تبدو أن لاعلاقة لها بمشاكل الشخص العادي المستغرق في مجتمعه. علاوة على ذلك، حتى الحرب الأخيرة كان قليلا عدد الأمريكيين الذين سمعوا حتى عن الأماكن التي تردد عليها علماء الإنسان أو الشعوب التي قاموا بدراستها والذين كانوا بشكل عام عبارة عن تجمعات سكانية صغيرة ومعزولة ولها مكانة صغيرة في النفوذ السياسي للعالم الحديث. لقد بدا أنه لا توجد قيمة "عملية" مرتبطة سواء بما فعله علماء الإنسان أو بما صنعوا باكتشافاتهم. لولا فضول معيَّن أو توق إلى الماضي يمكن أن يُشبَع، فأي غاية كانت هناك في دراسة الهندي الأمريكي، والذي كان يصوَّر عادة على أنه الرجل الأحمر الرومانتيكي، وبقية خلفتها الأيام التي انقضت منذ أمد، أو كتذكير محرج بأن هناك وقتاً كان فيه الأمريكيون قساة مع أولئك الذين وقفوا في طريق التقدُّم؟ بالرغم من فورات في الاهتمام العام بين الفينة والأخرى، فإن علم الإنسان (ومفهوم الثقافة الذي هو في صلبه) كان مرتبطاً لفترة طويلة في عقول الناس مع مواضيع وأفراد تم إقصاؤهم بعيداً عن حقائق عالم الأعمال والسياسة اليومي. ومع أن هذا الرأي مايزال موجوداً في بعض المناطق، فقد بلغ ذروة قوته حتى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي.

غيّر الكساد الاقتصادي الكثير من الأشياء. لقد أدى إلى التقديم السلمي للعديد من الأفكار التي كانت تعتبر ثورية. كانت إحداها تطبيق نظرية علم الاجتماع وتقنياتها على المشاكل الدنيوية لاقتصاد الدولة المحلي. فعلى سبيل المثال تم استدعاء علماء الإنسان فجأة من ملاذهم الأكاديمي وإقحامهم في العمل لمحاولة تخفيف بعض الأعباء الأكثر إلحاحاً لمجموعات الأقليات في الدولة.

من بين أولئك السكان الذين عانوا لفترة طويلة كان الهنود الذين يعيشون ببؤس حياة كاسدة في المستوطنات كجماعة تحت وصاية الحكومة. فقد معظم هؤلاء الهنود كرامة تقاليدهم القديمة كما فقدوا ميزات المجتمع الحالي المهيمن المحيط بهم. حتى هذه النقطة كانت سياسة الحكومة هي معاملة جميع القبائل المختلفة على قدم المساواة، وكأنهم أطفال جاهلون ونوعاً ما عنيدون ـ هذا خطأ مازال يجب تصحيحه بشكل واقعي. نمت مجموعة من العادات في قسم خدمات الهنود في الحكومة في طريقة "التعامل" مع الهنود ومشاكلهم. وعلى غرار قسم الخدمة الخارجية في الدولة، فإن خدمة الهنود كانت تنقل موظفيها من منصب إلى منصب بشكل متكرر بحيث يمكن أن يقضوا مدى العمر في الخدمة دون تعلُّم أي شيء عن الشعب الذي كانوا يدبرون أمره. وكانت البيروقراطية التي نمت أكثر توجهاً نحو مشاكل الموظفين منها نحو مشاكل الهنود. وتحت ظروف كهذه كان من المستحيل تقريباً تقديم فكرة علم الإنسان المزعجة بأن

الهنود كانوا مختلفين بشكل كبير وهام عن الأمريكيين الأوروبيين، لأن ذلك كان من الممكن أن يهدد بإفساد النظام البيروقراطي. وبالرغم من أن معاملة الهنود من قِبل الحكومة ماتزال بحاجة إلى الكثير مما هو مطلوب عمله، فقد تم تحسينها بشكل واسع خلال السنوات التي عمل فيها علماء الإنسان المدربون في مستوطنات الهنود.

وتم خلال الحرب العالمية الثانية، تكريس الكثير من علماء الإنسان، وأنا منهم، ليس فقط للعمل في مشاريع مختلفة لها علاقة بالسكان المحليين لمنطقة جنوت غربي المحيط الهادئ، بل تم الطلب منهم أيضاً حتى أن يتعاملوا مع اليابانيين. وتحت ضغط الحرب كانت بعض النصائح التي قدمناها ملفتة للانتباه ــ وبالرغم من ذلك، كما في العديد من ابتكارات أوقات الحروب، فإن أكثر ما تم عمله تم نسيانه في فترة السلام التي تلت الحرب.

من ناحية ثانية، فإن العمل الميداني الذي قام به علماء الإنسان كبحث بحت، بالإضافة إلى المشاريع التطبيقية التي عملنا بها، لم يضع هباء بشكل كامل. وإذا علمتنا هذه التجربة الغنية شيئاً واحداً، فقد كان أن الثقافة هي أكثر من مجرد عادة يمكن أن يتم خلعها أو تغييرها مثل الملابس. الناس الذين كنا نرشدهم استمروا بصدم رؤوسهم بحاجز خفي، ولكنهم كانوا لا يعرفون ما هو. لقد عرفنا أن ما كانوا يعارضونه كان طريقة مختلفة تماماً لتنظيم الحياة وللتفكير ولفهم الافتراضات الأساسية عن العائلة والدولة، وعن النظام الاقتصادي وحتى عن الجنس البشري. وكانت

المشكلة الكبيرة هي كيف تنقل هذه الحقيقة القاسية. عندما حاولنا الإشارة إليها، لم تكن تفسيراتنا مفهومة أو معقولة. معظم محاولاتنا كانت قصصية والقليل منها كان محدداً.

بصرف النظرعن وجود مشاكل مع الناس العاديين الذين لم يهتموا عادة بتعريف الثقافة، فقد كانت لدينا صعوبات منهجية محددة في الميدان بحد ذاته. وأكثرها إلحاحاً كان اتساق المعلومات الأساسية. كان العمال الميدانيون يسجلون تفسيراتهم لما يخبرهم به الرواة، ولكن إذا قام شخص آخر بزيارة المجموعة نفسها وقابل جماعة مختلفة من الرواة، أو حتى الرواة أنفسهم (هذه ممارسة مرفوضة من قِبل علماء علم الإنسان) فإن الشخص الآخر كان عادة يرجع بمجموعة مختلفة من التفسيرات. لم تكن هناك طريقة لجمع البيانات التي كان يمكن أن تختبر بشكل منطقي، ولا توجد طريقة لإعادة إنتاج إجراءات ميدانية، ولا توجد طريقة لموازنة حدث ما في الثقافة أ مع الثقافة ب، إلا بمحاولة وصف كل ثقافة والقول بأنهما كانتا مختلفتين. لقد كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن تقول بعبارات دقيقة ما هو الذي جعل ثقافة ما تختلف حقاً عن ثقافة أخرى، باستثناء أن تبيّن أنه كان هناك شعب رعى ماشية وآخر جمع طعاماً، وأنه كان هناك أولئك الذين اصطادوا وأولئك الذين زرعوا نباتات؛ وأن الشعوب عبَدَوا آلهات مختلفة ونظّموا مجتمعاتهم بطرق متنوعة. لقد عرف عالِم الإنسان بأنه كانت هنالك اختلافات أكثرعمقاً، ولكن قُرَّاءَه،

وغالباً الموظفين ذاتهم الذين كان يرشدهم، فضّلوا أن يتجاهلوها. افترض أولئك السادة حسنو النية، بدون أن يكونوا مدركين تماماً للأمر، رأياً تطورياً بشكل ساذج صنّف معظم الأجانب على أنهم "أمريكيون متخلفون."

وحتى الآن، عندما يقوم السكان في المناطق المُسماة "متخلفة" بإعاقة تقديم تقنيات جديدة في الصحة والزراعة من قِبل الأمريكيين، فإنه يُعتقد بأنهم رجعيون وعنيدون، أو يُعتقد بأنهم يُقادون من قِبل قادة لا يهتمون بصالح شعبهم. قادة كانوا عادة يلامون، وفي بعض الأحيان يتهمون بإكراه شعبهم على مقاومة التجديد لأنه كان سيكسر قبضتهم الخانقة على الاقتصاد.

من المؤسف أن بعض هذه الأشياء صحيحة وتقدم ذريعة ملائمة لإخفاقات هذه الدولة في الخارج على صعيد الدعم التقني والعون العسكري والمحاور الدبلوماسية. تنشأ معظم مصاعبنا من جهلنا. ويستمر الناس الصادقون والمخلصون في الميدان بالفشل في استيعاب الأهمية الحقيقية لحقيقة أن الثقافة تتحكم بالسلوك بطرق متعمقة ومستمرة، والعديد من هذه الطرق هي خارج الإدراك وبالتالي بعيدة عن سيطرة وعي الفرد. عندما يُشدّد علماء الإنسان على هذه النقطة، فإنهم يُهمَلون عادة، لأنهم يتحدّون أعمق المعتقدات الأمريكية الشائعة عن أنفسنا وعن الأجانب كذلك. إنهم يقودون الناس ليروا الأشياء التي قد لا يريدون أن يروها.

علاوة على ذلك، وكما بيّنت، فإن صرامة نقد عالِم الإنسان بالنسبة للرجل العادي، والذي يمكن أن يستفيد من هذه الاستبصارات، تنقصها الواقعية الضرورية. ليس هناك مجال لتعليم الثقافة بالطريقة نفسها التي يتم فيها تعليم اللغة. لم يقم أحد بتعريف أي وحدات أساسية للثقافة حتى وقت قريب. لم يكن هناك اتفاق بشكل عام على نظرية أساسية للثقافة ـ فلا مجال لأن تكون دقيقاً ـ ولا مجال لـ ب أن تصل إلى الميدان وتتفحص نتائج أ. حتى اليوم، فإن مجلداً يتناول مفاهيم ونظريات متنوعة للثقافة، ألّفه أكثر عالمين مشهورين في علم الإنسان في الدولة، وهما (إيه. إل. كروبر) و (كلايد كلوكون)، يستلزم صفات مثل "التعاطف" لدى الباحث. كما صرح الكاتبان بأنه ليست هناك وحدات جوهرية ثابتة للثقافة قد تم إرساؤها بشكل مرضٍ.

لقد كان هذا الوضع مصدراً للسخط لعدة سنوات، وقادني للعمل باتجاه نظرية ثقافة متكاملة ويمكن أن تتغلب على العيوب التي وصفتها للتو. في عام 1951، عندما جئت إلى واشنطن لتدريب فنيي برنامج النقطة الرابعة، كان لدي سبب عملي لدفع هذا العمل نحو نتيجة ملموسة. وقبل ذلك الوقت كنت أُدرِّس في جامعة وكليّة صغيرة. يقنع الطلبة الجامعيون بدراسة مواضيع من أجل أهميتها العامة. من ناحية أخرى، فإن تقنيي (النقطة الرابعة) وموظفي السلك الدبلوماسي يُتوَقَع منهم أن يذهبوا إلى الخارج وأن يحصلوا على نتائج ملموسة، وكان يجب عليهم أن يكونوا مهيئين بشكل جيد. لقد

وجدت، بشكل عام، أنهم ليسوا مهتمين جداً باهتمام عالِم الإنسان بـ"ما هي الثقافة" ويميلون لأن يصبحوا نافدي الصبر إلا إذا كانوا قد عملوا في الخارج سابقاً وكانت لديهم بعض الخبرة. واعتاد موظفو السلك الخارجي على الأخص أن يجدوا سعادة غامرة في قولهم إن ما أخبرهم به عالِم الإنسان عن العمل مع الـ (نافاهو) لم يفدهم كثيراً، لأنه لم تكن لنا سفارة في مستوطنات الـ (نافاهو). ومن المؤسف أن النظرية، التي كنا قادرين على جعلها تصمد في الوقت الذي بدأت أعمل في واشنطن، ببساطة لم يكن لها علاقة مفهومة للعامل في الميدان. لقد كان دفاعهم قوياً ولم نستطع أن نقدم لهم أي أسباب مقنعة للتغيير. هناك مضايقة مستمرة إضافية من الإداريين في الحكومة الذين فشلوا في استيعاب حقيقة أنه كان هناك شيء مختلف فعلياً عن العمل في الخارج؛ وأن ما تمس الحاجة إليه كان شيئاً جريئاً وجديداً، وليس فقط المزيد من التاريخ القديم والاقتصاد والسياسة نفسها.

إن موظفي السلك الخارجي والمتدربين الآخرين الذين أخذوا ما سمعوه مأخذ الجد وقاموا بتطبيقه، واجهوا مشكلة أخرى. كانوا سيقولون: "نعم، أستطيع أن أرى أن لديك شيئاً ما هناك. الآن أنا ذاهب إلى دمشق. أين يمكنني أن أقرأ شيئاً سيساعدني في التعامل مع العرب؟" أُصبنا بارتباك! فلو أنهم كانوا سيذهبون إلى اليابان لكان بإمكاننا أن نخبرهم بأن يقرأوا كتاب (روث بينيديكت) الرائع، "زهرة الأقحوان والسيف"، مع الانتباه إلى أن ذلك كان من أجل الحصول على خلفية فقط ويجب عليهم أن لا يتوقعوا أن يجدوا

ظروفاً مماثلة تماماً لتلك التي وصفتها (بينيديكت). وبالطبع، فإن الشيء الجديد بالملاحظة في كتاب (بينيديكت)، هو أنه مع أنها لم تذهب إلى اليابان في حياتها واستطاعت فقط أن تعمل مع يابانيين كانوا في الولايات المتحدة (تم تأليف الكتاب أثناء الحرب)، فإن الكتاب عَرَض استبصارات استثنائية في العمليات النفسية لليابانيين. إنه من أفضل الأدلة على أن لدى عالِم الإنسان شيئاً حاسماً وعملياً ليقوله إذا كان من الممكن فقط تنظيمه.

في هذا الوقت بالضبط بدأنا (جورج إل. تراجر) وأنا تعاوننا لتطوير طريقة من أجل تحليل الثقافة. وتضمنت أهدافنا النهائية خمس خطوات أساسية:

1. أن نحدد وحدات بناء الثقافة ـ والتي أطلقنا عليها فيما بعد *وحدات الثقافة/الصغرى*، بشكل مماثل لنوتة قطعة موسيقية.

2. أن نربط هذه الوحدات الصغرى ضمن قاعدة بيولوجية بحيث يمكن مقارنتها بين الثقافات. كما أننا اشترطنا أن تتم هذه المقارنة بطريقة تكون فيها الحالات قابلة للتكرار حسب الرغبة. فبدون هذا لا يمكن لعلِم الإنسان أن يدَّعي كونه علماً.

3. أن نبني هيكل بيانات وأساليب تمكننا من إدارة البحث وتعليم كل وضع ثقافي بالطريقة نفسها التي يتم فيها تعليم اللغة بدون الإضطرار للإعتماد على صفات مثل "التعاطف" لدى الباحث.

4. أن نبني نظرية موحَّدة للثقافة يمكن أن تقودنا إلى مزيد من البحث.

5. أخيراً، أن نجد طريقة لجعل فرع دراستنا مفيداً بشكل ملموس لغير المختصين.

شعرنا (تراجر) وأنا أن معظم الانشغال من قِبل علماء الإنسان بالإحصائيات كان له تأثير مرهق على فرع دراستنا، وبأن الطرائق والنظريات المقتبسة من علم الاجتماع وعلم النفس ومن علوم أخرى فيزيائية وبيولوجية قد استُخرمت بشكل غير ملائم. في العديد من الأمثلة، كان علماء الاجتماع، وتحت ضغط من علماء الطبيعة، مذعورين فعلياً من تبني الأسلوب الصارم للرياضيات المنهجية و "الطريقة العلمية" قبل الأوان. لقد كانت وجهة نظرنا أنه كان من الضروري لعلم الإنسان أن يطوِّر أساليبه متكيِّفاً مع موضوعه الخاص.

هذا الكتاب يوجز نظرية الثقافة ونظرية عن كيف ظهرت الثقافة للوجود. إنه يعالج الثقافة بأكملها كشكل من الاتصال.

إنه يضع مخططاً للأصول البيولوجية التي نمت منها معظم الثقافة، إن لم يكن كلها، ويوجز مراكز النشاط الأساسية العشرة التي تجتمع لتنتج ثقافة. ويصف الفصلان الثالث والرابع كيف يتعامل البشر مع الأشياء على ثلاثة مستويات مختلفة، وكيف يتواصلون مع أطفالهم بثلاث طرق أثناء عملية تنشأتهم، وكيف يتناوبون بين ثلاثة نماذج مختلفة من الإدراك أو الوعي وتشريب كل تجربة بثلاثة نماذج مختلفة للتناغمات العاطفية. لقد

أطلقت على هذا الثلاثي الهام *الرسمي* وغير الرسمي *والتقني*. إن فهم ماذا تعني هذه العبارات هو أمر أساسي لفهم باقي الكتاب. وحيث أن البشر يتقدمون من المعتقد الرسمي إلى التكيُّف غير الرسمي وأخيراً إلى التحليل التقني، فإن نظرية التغيير متضمَّنة كذلك في هذا التقسيم الثلاثي الذي هو في صلب نظريتي.

تحدد وتعالج الفصول التالية (من الخامس وحتى الثامن) مجال التواصل. تم الحديث قليلاً عن وسائل الاتصال الجماهيري كالصحافة والمذياع والتلفاز، والتي هي الوسائل المستخدمة لتوسيع حواس الناس. بدلاً من ذلك فإن هذه الفصول تركز على جانب واحد رئيس للاتصال، وهو الطرق التي يستنبط بها الناس معنى مما يفعله آخرون. إن اللغة هي إحدى أكثر أنظمة التراسل تقنية. وهي تُستَخدم كنموذج لتحليل الأنظمة الأخرى. بالإضافة إلى اللغة، هناك طرق أخرى يتواصل بها الناس والتي إما أن تؤكد أو تنكر ما قالوه بالكلمات. يتعلم الناس أن يفهموا قطعاً متنوعة من نطاق اتصال تغطي أحداثاً تتم في جزء من ثانية إلى أحداث تتم في عدة سنوات. هذا الكتاب يتعامل مع جزء صغير فقط من هذا النطاق. وتصف الفصول الأخرى محتوى مجموعة متنوعة من رسائل شخص إلى شخص وكيف توضع مع بعضها البعض.

الفصول الأخيرة هي تحليل مفصَّل أكثر للزمن والمكان. إن الوقت، تلك اللغة الصامتة التي تم وصفها بشكل موسّع في الفصل الأول، يتم تحليله

بتفصيل أكثر كمثال لأحد النماذج لأنظمة التراسل الأولية. ويعالج الفصل الحادي عشر المكان (الإقليمية) كاتصال.

إذا كانت لهذا الكتاب رسالة، فهي أنه يجب علينا أن نتعلم أن نفهم الجوانب "الخارجة عن الإدراك" للاتصال. يجب أن لا نفترض أبداً أننا مدركون تماماً لما نوصله إلى شخص آخر. هناك في العالم اليوم تحريفات هائلة في المعنى عندما يحاول البشر أن يتواصلوا مع بعضهم البعض. إن مهمة تحقيق فهم وتبصُّر داخل العمليات الذهنية للآخرين هي مهمة صعبة أكثر بكثير، والحالة أكثر جدية مما يهتم معظمنا بالاعتراف به.

لقد تحدثت حتى هذه النقطة بشكل أساسي عن مشاكل نشأت من محاولات لتعليم أشخاص آخرين تطبيق معرفة علم الإنسان على العلاقات الخارجية. كما شدّدت على الحاجة لمزيد من الفهم المنظَّم للثقافة المحلية من جانب مواطنينا الذين يعملون في الخارج. إن القارئ المتوسط الذي لم يعش في الخارج، والذي يجد عمل الدبلوماسي وتقنيي النقطة الرابعة بعيداً جداً، ربما يكون ميالاً إلى السؤال: "ما علاقة هذا بي؟" هذه النقطة تلمح إلى هدف هذا الكتاب، والذي هو إظهار المدى الواسع الذي تسيطر فيه الثقافة على حياتنا. الثقافة ليست فكرة غريبة تُدرس من قِبل مجموعة مختارة من علماء الإنسان في البحار الجنوبية. إنها قالب جميعنا مسكوبون فيه، وهي تسيطر على حياتنا اليومية في عدة طرق لا يراودنا شعور بوجودها. في نقاشي حول الثقافة سأقوم بوصف ذلك الجزء من

سلوك الإنسان الذي نُسلم به ـ الجزء الذي لا نفكر به، حيث أننا نفترض أنه عام أو نعتبره خصوصياً.

إن الثقافة تُخفي أكثر بكثير مما تُظهر، والأغرب هو أن ما تخفيه، تخفيه بأقصى فعالية عن المشاركين فيها. لقد أقنعتني سنوات من الدراسة أن المهمة الحقيقية ليست فهم الثقافة الأجنبية بل هي فهم ثقافتنا الخاصة، كما أنني مقتنع بأن كل ما يمكن أن يحصل عليه الشخص من دراسة الثقافة الأجنبية هو فهم في نطاق محدود جداً. إن السبب الأساسي لمثل هذه الدراسة هو تعلُّم المزيد عن كيفية عمل نظام المرء نفسه. وأفضل سبب لتعريض المرء نفسه على الأساليب الأجنبية هو توليد إحساس بالحيوية والإدراك ـ اهتمام بالحياة والذي يمكن أن يأتي فقط عندما يعيش الشخص من خلال صدمة التفاوت والاختلاف.

ببساطة، إن تعلُّم ثقافة المرء الخاصة به هو إنجاز ذو حجم ضخم بالنسبة لأي شخص. وفي عمر الخامسة والعشرين أو الثلاثين، فإن معظمنا يكون قد أنهى الدرسة، وتزوج وتعلَّم العيش مع إنسان آخر وأتقن مهنة ما ورأى معجزة خلق الإنسان واستهل إنسان جديد طريقه للنمو. فجأة معظم ما كان علينا أن نتعلمه ينتهي. وتبدأ الحياة بالاستقرار.

ومع ذلك، فقد منحنا عقلنا الهائل حافزاً ومقدرة للتعلُّم، الأمر الذي يبدو قوياً كقوة حافزنا للطعام أو الجنس. هذا يعني أنه عندما يتوقف رجل، أو إمرأة، في منتصف العمر عن التعلم، فإنه غالباً ما يُترك بحافز كبير

وقدرات متطورة. وإذا ذهب ذلك الفرد للعيش في ثقافة أخرى، فإن عملية التعلم غالباً ما يُعاد تنشيطها. هذا الأمر ليس ممكناً بالنسبة لغالبية الأمريكيين المرتبطين بالوطن. ولاستباق ضمور قواهم الذهنية، يمكن للناس أن يتعلموا عن تلك المجالات في ثقافتهم والتي كانت خارج الإدراك. يمكنهم اكتشاف الحقل الجديد.

إن المشكلة التي تُثار عند الكلام عن الثقافة الأمريكية دون الإشارة إلى ثقافات أخرى، هي أن المستمع يميل إلى أخذ الملاحظات بشكل شخصي. ألقيت ذات مرة خطبة على مجموعة من مدراء المدارس حول موضوع الثقافة، وكنا نناقش حاجة الأمريكيين إلى الارتقاء في أعمالهم وإلى أن يتقدموا وأن يتلقوا بعض التقدير بحيث أنهم كانوا سيعرفون بطريقة ملموسة أنهم كانوا يحرزون تقدماً هاماً. قال لي أحد المستمعين: "الآن أنت تتحدث عن شيء مهم، إنك تتحدث عني." عندما عرف الرجل الذي بين الحضور شيئاً عن نفسه، فإن الدراسة في الثقافة ضاعت في هذا التحوّل. لم يكن يبدو أنه أدرك أن نسبة مهمة من المادة كانت شخصية بشكل كبير بالنسبة له كما كانت ذات علاقة ببيانات ثقافية.

إن معرفة ثقافته الخاصة كانت من الممكن أن تساعد هذا الرجل ذاته في موقف وصفه لاحقاً للمستمعين. في منتصف يوم مليء بالمشاغل، على ما يبدو، جعله إبنه ينتظر لمدة ساعة. وكنتيجة لذلك كان على علم بأن ضغط دمه ارتفع بشكل خطير. فلو أن الأب والإبن كان لديهما منظور

ثقافي عن هذه الحادثة الشائعة والمسببة للغيظ، فقد كان من الممكن تجنب الشجار الحرج الذي تبع ذلك. كان يمكن لكل من الأب والإبن أن يستفيد لو أن الأب استوعب الأساس الثقافي لتوتره وقام بالشرح: "الآن، أنظر هنا. إذا كنت تريد أن تجعلني أنتظر، فلا بأس، ولكن يجب عليك أن تعرف أنها صفعة حقيقية على الوجه لأي شخص يُترك لينتظر لفترة طويلة. وإذا كان ذلك هو ما تريد أن توصله، فهيا انطلق، ولكن كن متأكداً من أنك تعرف أنك توصل إهانة، ولا تتصرف كمتملق فزِع فيما إذا تصرف الناس برد فعل وفقاً لذلك."

إن أفضل سبب للرجل العادي كي يقضي وقتاً في دراسة الثقافة هو أنه يمكنه أن يتعلم شيئاً مفيداً ومنوِّراً بشأن نفسه. يمكن أن يكون ذلك عملية ممتعة، وأحياناً تكون تعذيباً ولكنها معززة بشكل أساسي. إن إحدى أكثر الطرق فعالية ليتعلم الشخص عن نفسه هي بأخذ ثقافات الآخرين على محمل الجد. فهي تجبرك على أن تنتبه إلى تلك التفاصيل في الحياة والتي تجعلك مختلفاً عنهم.

وبالنسبة لأولئك المطلعين على الموضوع، فإن الملاحظات التي ذكرتها للتو يجب أن تكون دليلاً جلياً على أن ما يلي ليس ببساطة إفراغاً لما قاله مؤلفون سابقون عن موضوع الثقافة في قالب آخر. فطريقة فهم الموضوع جديدة. فهي تتضمن طرقاً جديدة للنظر إلى الأشياء. يتم استخدام الهنود والسكان المحليون لمنطقة جنوب المحيط الهادي، الذين هم السمة المميِّزة

لغالبية النصوص المتعلقة بعلم الإنسان. ومن ناحية أخرى، يتم تقديمهم بشكل منفرد لتوضيح نقاط عن طريقة حياتنا وجعل ما نسلّم به يبرز وفقاً لأهميته النسبية. إن بعض ما يظهر بين هذين الغلافين تم تقديمه من قبل في مقالات قصيرة في الدوريات المتخصصة كتبها إما (تراجر) أو أنا. ومعظمها يتم تقديمه إلى الجمهور للمرة الأولى. إن النظرية الكاملة للثقافة كوسيلة تواصل هي نظرية جديدة ولم يتم تقديمها في أي مكان من قبل. إذا كان القارئ يبحث عن كتاب عن عادات غريبة، فإن أمله سيخيب بشكل مؤلم. وهذا الكتاب يشدّد، أكثر من أي شيء آخر، على ما يفعل الناس وعلى القواعد المخفية التي تحكمهم، وليس على ما يتحدث الناس عنه.

إن بعض ما يلي سيجعل القراء واعين لذاتهم. سيكتشفون أنهم ينقلون إلى الآخرين أشياءً لم يحلموا قط بأنهم كانوا يظهرونها. في بعض الحالات سيتعلمون أشياء كانوا يخفونها عن أنفسهم. إن لغة الثقافة تتكلم بوضوح لغة الأحلام التي حللها (فرويد)، ولكن بخلاف الأحلام فإنه لا يمكن للمرء الاحتفاظ بها لنفسه. عندما أتحدث عن الثقافة فأنا لا أتحدث نظرياً فقط عن شيء مفروض على البشر ومفصول عن الأفراد، بل عن البشر أنفسهم، عنك وعني بطريقة شخصية بشكل كبير.

3

مفردات الثقافة

إن نجاح (السير آرثر كونان دويل) في شخصية (شيرلوك هولمز) التي ابتكرها، يمكن أن يُعزى بشكل كبير إلى حقيقة أن (هولمز) عرف كيف يفيد إلى أبعد حدود الإفادة من جهده في التواصل غير اللفظي واستخلص الحد الأقصى مما لاحظه. إن الاقتباس التالي من "حالة شخصية" يوضّح بشكل مناسب هذه النقطة.

نهض من مقعده وكان يقف بين الستائر المتباعدة عن بعضها، وكان يحملق نحو الأسفل في شارع لندن ذي اللون الباهت. عند النظر من فوق كتفه، رأيت إمرأة ممتلئة كانت تقف على الرصيف المقابل وهي تضع لفاعاً ثقيلاً من الفرو حول رقبتها، وريشة ملتفة كبيرة حمراء اللون على قبعة ذات حافة عريضة كانت تتمايل فوق أذنها على طريقة دلع دوقة من (ديفونشاير). ومن تحت هذا الغطاء الرائع حدّقت إلى أعلى نحو نوافذنا

بطريقة عصبية ومترددة، في حين كان جسدها يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، وكانت أصابع يديها تعبث بعصبية بأزرار قفازها. فجأة، وبغطسة واحدة، كالسباح الذي يقفز عن الحافة، أسرعت عبر الطريق وسمعنا رنين الجرس الحاد.

"لقد رأيت هذه الأعراض من قبل،" قال (هولمز) وهو يرمي سيجارته في النار. "التأرجح على الرصيف يعني دائماً مشكلة عاطفية. إنها كانت سترغب بنصيحة، ولكنها ليست متأكدة بأن الأمر ليس حساساً جداً للتواصل. ومع ذلك، فحتى هنا ربما يمكننا أن نميّز. عندما تكون إمرأة قد أسيء إليها بشكل جدي من قِبل رجل، فإنها لن تعود للتأرجح، والعَرَض المألوف يكون هاتفاً مفصولاً. وهنا يمكن أن نأخذ الأمر على أنه مسألة غرامية، غير أن الفتاة ليست غاضبة بقدر ما هي مرتبكة أو حزينة. ولكن هاهي قادمة لتبدِّد شكوكنا."

لقد جعل (سير آرثر) أمراً واضحاً من عملية معقدة جداً قد يمر بها العديد منّا دون معرفة أننا متورطون. إن هؤلاء الأشخاص من بيننا الذين يدهشوننا يمكن أن يقرأوا مجلدات عن ما نراه يحدث من حولنا. خلال النصف الأول من هذا القرن، لم يكن من الضروري إخبار مواطني المجتمع الزراعي الأمريكي العادي، على سبيل المثال، لماذا كان السيد (جونز) العجوز ذاهباً إلى البلدة. إنهم يعرفون أنه كان يقوم برحلة إلى الصيدلي مرة كل أسبوعين، في يوم الخميس، لكي يحضر لزوجته دواءً منشطاً، وأنه

بعد ذلك كان يذهب إلى مخزن العلف، ويتكلم مع (تشارلي)، ويزور مأمور الشرطة ثم كان يعود إلى المنزل في وقت وجبة منتصف النهار. كذلك كان يمكن لـ (جونز) بدوره أن يكتشف عندما كان أي شيء يضايق أحد أصدقائه، وكان يستطيع اكتشاف ما الذي يضايقه في كثير من الأحيان. لقد كان يشعر بالارتياح لطريقته في الحياة، لأنه كان معظم الوقت "عارفاً للحقائق الضرورية". لم يكن مضطراً لأن يقول الكثير لكي يعبر عن نفسه؛ فإيماءة من الرأس أو صوت نخير أثناء مغادرته المتجر كان كافياً. الناس يتقبلونه كما هو. من ناحية أخرى، كان الغرباء يزعجونه، ليس لأن طريقتهم في الكلام أو السلوك كانت مختلفة، ولكن لأنه كان يعرف القليل عنهم. عندما كان (جونز) يقابل شخصاً غريباً، فإن التواصل، الذي كان عادة طبيعياً كالتنفس، يصبح فجأة صعباً ومعقداً جداً.

إن معظمنا يتنقل هنا وهناك كثيراً هذه الأيام بحيث أننا من النادر أن نحقق تلك المرحلة المريحة التي وصل إليها (جونز) مع أصدقائه ± بالرغم من أنه توجد دائماً علامات مألوفة كافية في كل مكان بحيث أننا لا نكون أبداً في حيرة تامة بالنسبة للاتجاه. ومع ذلك ففي كثير من الحالات يحتاج الناس الذين ينتقلون من جزء إلى آخر في الدولة إلى عدة سنوات قبل أن يتأقلموا جيداً في المنطقة الجديدة وأن يشعروا باطمئنان كامل. لا ينشغل الأمريكيون فقط بالهجرة الداخلية المستمرة، بل يعيش مليون ونصف منّا خارج البلاد في بيئات غريبة، ويتزايد العدد كل سنة. إن قلق

(جونز) عندما يقابل شخصاً غريباً أو بيئة غير مألوفة هو قلق بسيط مقارنة بما يمر به مسافرونا خارج البلاد عندما يهبطون على أرض غريبة. في البداية، تبدو الأشياء في المدن متشابهة بشكل كبير تقريباً. توجد سيارات أجرة وفنادق بمياه جارية حارة وباردة، ومسارح وأضواء نيون وحتى مبانٍ شاهقة مزودة بمصاعد وبضعة أشخاص يتكلمون الإنجليزية. ولكن سرعان ما يكتشف الأمريكي أن تحت المظهر الخارجي المألوف توجد اختلافات شاسعة. عندما يقول شخص ما "نعم" فإنها غالباً لا تعني نعم مطلقاً، وعندما يبتسم الناس فهذا لا يعني دائماً أنهم مسرورون. عندما يقوم الزوار الأمريكيون بلفتة مساعدة فربما أنهم سيُصَدون؛ وعندما يحاولون أن يكونوا ودودين لا يحدث شيء. يخبرهم الناس بأنهم سيفعلون أشياء ولا يفعلونها. وكلما أقاموا لفترة أطول، تبدو البلاد الجديدة أكثرغموضاً، إلى أن يبدأوا في نهاية المطاف بتعلُّم ملاحظة إشارات جديدة تؤكد أو تنكر الكلمات التي يقولها الناس بأفواههم. ويكتشفون أنه حتى (شيرلوك هولمز) سيكون عاجزاً في بلد مختلف كثيراً مثل اليابان وأن نظيره الياباني فقط يمكنه أن يلعب مثل هذا الدور.

عند هذه النقطة فإن الأمريكيين الذين في الخارج يمكن إما أن ينفجروا غضباً محاولين أن ينسحبوا قدر استطاعتهم من الحياة الأجنبية التي حولهم أو أن يبدأوا بالتساؤل بدهاء عن ماذا يجب عليهم أن يفعلوا لينجوا من كوميديا أخطاء محبطة. إذا كانوا محسنين فإنهم ربما يبدأون

بالتفكير ملياً بكيف يمكنهم أن يساعدوا القادمين الجدد في تجنب المعاناة المرهقة في عمل جميع الأشياء الخطأ. هذا يمكن أن يكون بداية تعاليم ثقافية، لأنه يقود إلى التفكير المنظّم بعملية التعلُّم والتي يمر بها كل شخص تقريباً قبل أن يصبحوا متآلفين مع الثقافة الجديدة.

عند متابعة مشكلة اختلاف إحدى الثقافات عن ثقافة أخرى، وكيف يمكن للمرء أن يتحدث عن هذا الاختلاف بتعابير عامة، فإنني قررت بداية أنه ليس هناك مِحَك واحد يمكن أن يُستخدَم لشرح أي ثقافة محددة. وجدت نفسي في هذا الأمر في اختلاف بالرأي مع العديد من علماء الإنسان الذين نظروا إلى الثقافة على أنها فئة منفردة. لقد اهتديت إلى استنتاجي بإدراك أنه لا يوجد شرخ بين الحاضر، الذي يعمل فيه البشر كحيوانات منتجة للثقافة، وبين الماضي، عندما لم يكن يوجد "شعب" ولا ثقافة. هناك استمرارية غير منقطعة بين الماضي البعيد والحاضر، وذلك لأن الثقافة هي ذات أساس بيولوجي - متأصلة في نشاطات بيولوجية. عبارة ما قبل الثقافة هي مصطلح يمكن أن يُطلق على السلوك الذي سبق الثقافة، ولكنه طوِّر فيما بعد من قِبل البشر ليصبح ثقافة كما نعرفها اليوم. إن منطقة النفوذ هي مثال على نشاط ما قبل الثقافة. فهي مرتبطة بالطريقة التي تتم فيها المطالبة بالمنطقة وحمايتها من قِبل كل شيء ابتداءً من الأسماك إلى الأسود وإلى البشر المعاصرين.

وبالعودة إلى ما قبل الثقافة، فمن الممكن توضيح أن القواعد المعقدة

ـ البيولوجية بشكل رئيس ـ والتي بُني عليها السلوك البشري، تم وضعها في أوقات مختلفة من تاريخ التطور. استنتجنا (تراجر) وأنا أن عدد قواعد ما قبل الثقافة ربما كان قليلاً جداً وأنها ربما أدت إلى نوع مختلف جداً من النشاطات، أشياء حملت على السطح علاقة ضيقة أو غير ظاهرة بين بعضها البعض.

بما أن الثقافة يتم تعلُّمها، فقد بدا من الواضح أنه يجب على المرء أن يكون قادراً على تعليمها. ومع ذلك فقد كان هناك في الماضي نجاح ضئيل إلى درجة غريبة فيما يتعلق بهذا الشأن مع الاستثناء الهام للغة، إحدى الصيغَات العامة المهيمنة في جميع الثقافات. إن الإجابة على هذا السؤال تتجذر في فهم الاختلاف بين الاكتساب والتعلُّم. القسم الأكبر من الثقافة يُكتسَب ولذلك لا يمكن أن يتم تعليمه. وحيث أن اللغة يتم اكتسابها أولاً في عمر مبكر وفيما بعد يتم تعلمها، فقد كان التقدم المفاجئ في التعليم والتحليل والعمل باللغة الذي جُعل ممكناً من قِبل علماء اللغة المعاصرين هو ما حثّنا على إلقاء نظرة دقيقة على الطريقة التي تم فيها تحقيق هذا النجاح. قادتنا مشاهداتنا إلى تأسيس معايير للأنظمة الأخرى للثقافة. ولكي يُؤهَل كنظام ثقافي، كان يجب على كل نظام أن يكون:

أ. متأصلاً في نشاط بيولوجي مشترك بشكل واسع مع أشكال حياة أخرى متقدمة. إنه أمر أساسي أن لا يكون هناك أي شروخ مع الماضي.

ب. قادراً على التحليل بشروطه الخاصة دون الإشارة إلى الأنظمة

الأخرى ومنظماً إلى درجة أنه يحتوى وحدات صغرى يمكن أن تُبنى إلى وحدات أكثر تعقيداً، وبما يبدو مفارقة.

ج. مُشكّلاً جيداً بحيث يعكس باقي أجزاء الثقافة الأخرى ويكون منعكساً في باقي أجزاء الثقافة الأخرى.

تلك المعايير هي ذات علاقة بالعمليات. هذا يعني أنها معتمدة على المشاهدات المباشرة للعمل الفعلي للنظام الثقافي، وفي هذه الحالة اللغة. من وجهة النظر المتعلقة بعلم الإنسان، فإن المعايير صارمة. ويوجد عشرة أنواع منفصلة من النشاطات البشرية والتي أطلقت عليها أنظمة التراسل الأولية (Primary Message Systems). إز أول عذه الأنظمة فقط يتضمن اللغة. وجميع الأنظمة الأخرى هي عبارة عن أشكال من عملية التواصل غير اللغوية. وحيث أن كلاً منها متشابك مع الآخرين، فيمكن للمرء أن يبدأ دراسة الثقافة بأي واحد من الأشكال العشرة، وفي النهاية يخرج بصورة كاملة، إن أنظمة التراسل الأولية هي:

1. التفاعل.
2. الاتحاد.
3. موارد الإعاشة.
4. ثنائية الجنس.
5. الإقليمية.
6. الزمنية.

7. التعلُّم.
8. اللعب.
9. الدفاع.
10. الانتفاع (استخدام المواد).

عند مناقشة أنظمة التراسل الأولية واحداً تلو الآخر، سأشدّد على ثلاثة أشياء: كيف ينتشر علم الأحياء في كل واحدة من أنظمة التراسل الأولية، وكيف يمكن أن يتم فحص كل منها على حدة، وكيف يتكيّف كل منها مع شبكة الثقافة ككل.

1. *التفاعل* الذي يتضمن أساسه في التأثرية الضمنية لكل مادة حيّة. أن تتفاعل مع البيئة يعني أن تكون حياً، وأن تفشل في عمل ذلك يعني أن تكون ميتاً. ابتداء بالتأثريّة الأولية لأبسط أشكال الحياة، فإن نماذج التفاعل تصبح أكثر تعقيداً أثناء ارتقائها السلّم الجيني (فيلوجينتيك).

إن أحد أكثر أشكال التفاعل تطوراً هو الكلام، الذي يُعزَز بنبرة الصوت والإشارة. والكتابة هي شكل خاص من التفاعل الذي يستخدم مجموعة محددة من الرموز وأشكالاً مطورة إلى حد بعيد. وبالإضافة إلى التفاعل اللغوي المعروف جيداً، توجد نسخ متخصصة لكل نظام تراسل أولي. يتفاعل الناس مع الآخرين كعملية للعيش في مجموعات (اتحاد). إن الزمان والمكان هما بعدان يحدث فيهما التفاعل. وكذلك التعليم والتعلُّم واللعب والدفاع تمثّل أشكالاً متخصصة من التفاعل.

في نهاية المطاف، فإن كل شيء يفعله الناس يتضمن تفاعلاً مع شيء آخر. ويكمن التفاعل في محور عالَم الثقافة وكل شيء ينمو منه.

2. *الاتحاد*. من السهل أن ننسى أن أجسام الكائنات المعقدة هي في الحقيقة مجتمعات من الخلايا، ومعظمها تمتلك عمليات متخصصة جداً، وأول اتحاد في هذا الخط كان بين الخلايا التي ارتبطت مع بعضها في مستعمرات. ولذلك، فإن الاتحاد يبدأ عندما ترتبط خليتان.

منذ سنوات جلب علماء النفس انتباهاً كبيراً بوصفهم لـ" قانون النقر"[1] أو التسلسل الهرمي بالنسبة للدجاج. وسيتم تذكر أنه في كل مجموعة توجد دائماً دجاجة واحدة تنقر جميع الدجاجات الأُخريات، ولكنها لا تُنقَر من أي من الأخريات، وفي الأسفل توجد دجاجة تُنقَر من قِبل جميع الدجاجات الباقية. وبين الحالتين المتطرفتين يتم ترتيب المجموعة بمتوالية منظمة تراوح من الأولى والتي هي الثانية من الأسفل ولديها دجاجة واحدة يمكن أن تنقرها، صعوداً إلى الطير رقم 2، والذي يُنقَر فقط من قِبل القائدة. وبشكل تلقائي، فإن جميع الأشياء الحية تنظِّم حياتها بنوع من أنماط الاتحاد يمكن التعرف عليها. فالدجاجات لديها قانون نقر، والخيول لديها قانون "أرفس ــ عض". وفي بعض الحالات يتم استبدال تسلسل هرمي منظم بشكل صارم بشكل آخر من الاتحاد. يصف (كونراد لورينز) نمطين مختلفين من الاتحاد في وصفه للكلاب. هذان النمطان

(1) قانون النقر: قانون هام بين أعضاء مجموعة ما فيما يتعلق بأهميتهم في المجموعة.

مبنيان على السلوك السلفي للذئاب وأبناء آوى. إن لدى الذئاب ولاء متطوراً بشكل كبير جداً للقطيع وكذلك للقائد، والذي ينشأ مبكراً ويستمر خلال الحياة. من ناحية أخرى، يبدو أن أبناء آوى يشكلون اتحاداً أكثر تفككاً ويتناسب مع الوضع. فليس لديهم ولاء الذئب، لا للقائد ولا للقطيع. إنهم متقلبون أكثر، وأسرع في تكوين أصدقاء وأقل ولاء على المدى الطويل.

يمكن رؤية أشكال أخرى من الاتحاد في قطعان الأغنام، وقطعان الغزلان أو الإبل والبقر، وفي مجموعات الأسماك، وفي العلاقات الثنائية بين بعض الطيور والثدييات مثل الأسد والإوزة وعائلة الغوريلا. إن الأنماط الاتحادية تستمر عبر فترات طويلة من الزمن، وإذا تغيّرت، فذلك بسبب ضغط قوي جداً من البيئة. بيّن عالِم الإنسان الشهير (رالف لينتون) أن الأسود في كينيا اعتادت أن تصطاد بشكل منفرد أو زوجي. وعندما أصبحت الطرائد نادرة اعتادت على الصيد بمجموعات. إن الشيء المهم هو أن كل أسد كان لديه مهمة مرتبطة بدوره في المجموعة. وكان الإجراء بالنسبة للأسود أن يشكّلوا دائرة كبيرة تاركين أحدهم في الوسط. وبالزئير والاقتراب إلى الداخل فإنهم يدفعون الفريسة نحو الوسط حيث يمكن قتلها بواسطة الأسد المنفرد. إن التغييرات في مثل هذا النوع من الاتحاد تجعلنا نتوقع طبيعة سلوك التكيُّف الذي يبديه البشر.

إن تطورات البشر معقدة جداً ومتنوعة بالنسبة للثدييات الأبسط في قاعدة الهرم بحيث تم تحليل ووصف أشكالها العامة فقط. إن ما أتعامل معه هنا هو الطرق المتنوعة التي يتم بها تنظيم أو بناء المجتمعات وعناصرها.

إن العلاقة المتبادلة لأنظمة التراسل الأولية بين الاتحاد واللغة يتم تبسيطها في تنوع اللهجات لطبقات المجتمع. أمثلة أخرى: نبرة صوت شخص ما عندما يتصرف كقائد، والتوسع الخاص جداً لأشكال المكانة والاحترام التي تم تطويرها من قِبل اليابانيين لتناسب تسلسلاتهم الهرمية المنظمة بشكل رفيع المستوى؛ وفي مجتمعنا الخاص فالطرق المراعية للاحترام في التحدث إلى الأفراد المصنفين في درجة أعلى في العمل أو في المراكز (ممرضون بالنسبة إلى أطباء، جنود بالنسبة إلى قادة، قادة بالنسبة لجنرلات، الخ.).

3. *موارد الإعاشة*. كباقي أنظمة التراسل الأولية الأخرى، فإن موارد الإعاشة أساسية وتعود إلى البداية الفعلية للحياة. إن أحد أول الأشياء التي يجب أن يُعرف عن أي شيء حي هو متطلباته الغذائية؛ ماذا يأكل وكيف يتجول هنا وهناك للحصول على الطعام في حالته الطبيعية؟ طوَّر البشر مسألة تغذية أنفسهم عن طريق العمل وكسب الرزق بالطريقة نفسها التي طوّروا بها أنظمة التراسل الأخرى. تتضمن أنظمة التراسل الأولية لموارد الإعاشة كل شيء من عادات الطعام الفردية إلى اقتصاد البلد.

فالناس لا يصنفون ولا يُتعامل معهم بلغة الطعام فقط، بل يوجد لكل مجتمع اقتصاده الخاص المميز.

فيما يتعلق بعلاقة موارد الإعاشة مع أنظمة التراسل الأولية الأخرى، على المرء أن يذكر فقط أشياء مثل السلوك اللغوي الخاص عند تناول الوجبات. توجد محذورات صارمة تتضمن منع النقاش على المائدة عن مواضيع كالجنس أو الوظائف الجسدية. ثم توجد المفردات الخاصة التي نمت حول كل مهنة وحرفة، كل منها هو شكل متخصص جداً لموارد الإعاشة. العمل بالطبع يكون دائماً ذا مراتب، ويجد مكاناً قريباً جداً من نماذج الاتحاد الموجودة. إن ما يصنَّف عالياً في ثقافة ما، يمكن أن يصنَّف متدنياً جداً في الثقافة التالية. هذه واحدة من عدة نقاط تواجه الأمريكيين في الخارج، باستمرار، سواء أكانوا في برنامج مساعدة تقنية حكومية أو في عمل صناعي أو يسافرون كسياح.

لا يربط الأمريكيون أي عار بالعمل اليدوي، ولكن في ثقافات عديدة أخرى يعتبر العمل اليدوي غير محترم ودلالة على وضع متدنٍ. هذا الاختلاف وحده يخلق عوائق ومصاعب لا تُعدّ ولا تحصى. في بعض الأحيان يُساء تفسير دور الأميركيين عندما يعملون بهمة أو يقدمون شرحاً توضيحياً لكيف يتم عمل شيء ما. في أحيان أخرى، يرفض المواطنون المحليون الآخرون ببساطة أن يكون لديهم أي شيء له علاقة بالمهنة التي تصنَّف متدنية جداً والتي يجب أن يتم القيام بها يدوياً. كان التمريض

لسنوات في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية متخلفاً لأنه صُنف قريباً جداً من أسفل السلّم بحيث كانت الفتيات غير المتعلمات هن فقط من كنَّ يصبحن ممرضات. وكانت تعتبر طريقة تدبر أوعية تبوّل المريض وكذلك عدة مهام أخرى مرتبطة بشكل عادي بمهنة التمريض أعمالاً وضيعة وقذرة. وبشكل مماثل، فإن محاولات تعليم السلامة الصناعية في أمريكا اللاتينية تعثرت بعقبات ثقافية عندما تم اكتشاف أن مهندسي السلامة كان عليهم أن يرتدوا رداء لكل الجسم وأن "يشرحوا" إجراءات السلامة الموجودة على الآلات في المصنع.

4. *ثنائية الجنس*. إن التكاثر الجنسي والتمييز في الشكل والوظيفة على طول خطوط الجنس (ثنائية الجنس) هو أمر متأصل بشكل عميق في الماضي. ووظيفته الأصلية يمكن وصفها أفضل ما يمكن بلغة الحاجة إلى التزويد بتنوع من التراكيب ذات الخلفية الجينية كوسيلة للتلاؤم مع التغيُّرات في البيئة. وبدون الجنس فإن النسل يتبع خطاً واحداً فقط ويبقى مجموعة واحدة من الصفات. التوافيق الجينية الممكنة غير محدودة عملياً عند البشر.

إن الأشخاص الذين كان لديهم أي تعامل بالحيوانات يعرفون كم هي مهمة الفروق الجنسية داخل نوع ما. أحد أول الأشياء التي يجب أن تُعرَف عن حيوان ما هو إذا ما كان ذكراً أو أنثى النوع. إن حقيقة أن السلوك في الحيوانات متعلق بالجنس بشكل مهيمن أدى إلى أفكار خاطئة معينة تتعلق

بدور الجنس عند الإنسان. إنه خطأ فادح أن تفترض أن السلوك الذي تتم مشاهدته في الناس مرتبط بوظائف الأعضاء. وأظهرت لنا الدراسات المتعلقة بالثقافة أن ذلك ليس هو واقع الحال في كثير من الأحيان. فالسلوك الذي يبديه الذكور في ثقافة ما يمكن تصنيفه كسلوك أنثوي في ثقافة أخرى. جميع الثقافات تميّز بين الرجال والنساء، وعادة عندما يصبح تصرف محدد مرتبطاً بأحد الجنسين فإنه سيُسقَط من قِبل الجنس الآخر.

في معظم أمريكا اللاتينية كان يُعتقد لفترة طويلة أن الرجل لا يمكنه أن يكبت الدوافع القوية التي تتملكه في كل مرة يكون فيها وحده مع إمرأة. ومن وجهة نظر الأمريكيين اللاتينين، كانت النساء تعتبرن غير قادرات على مقاومة رجل ما. كانت النتيجة أن أنماط الاتحاد شملت إجراءات حماية ووقاية. وكان على الأمريكيين الذين كانوا يذهبون إلى أمريكا اللاتينية أن يكونوا متنبهين إلى أنه إذا تركوا أنفسهم تنجرُّ إلى موقف مع طرف من الجنس الآخر حيث يمكن أن يحدث شيء ما، فلن تكون هناك فائدة من إخبار الناس بأنه لم يحدث. واستجابة اللاتينيين ستكون: "بالرغم من كل شيء، أنت رجل، ألست كذلك؟ وهي إمرأة، أليست كذلك؟" إن الفكرة التي لم يستطع الأمريكيون أن يُدخلوها في رؤوسهم كانت أن هؤلاء الناس اعتبروا حقيقية أن الرجال والنساء تم تشكيلهم بشكل مختلف عن الطريقة التي رآهم بها الأمريكي. يتوقع الجنسان في أمريكا اللاتينية أن قوة إرادتهم يجب أن يتم تزويدها من قِبل أناس آخرين بدلاً من كبت شخصي.

في إيـران يواجـه الشـخص اختلافـاً آخـر في أنظمـة التراسـل الأوليـة لثنائية الجنس. فمتوقع من الرجال أن يظهروا عواطفهم ـ خذ نوبات غضب رئيس الـوزراء (1951 ـ 1953) "مُصدق". وإذا لم يفعلوا، فإن الإيـرانيين يشكّون بأنهم يفتقرون إلى صفة إنسانية حيوية وأنـه لا يُعتمـد عليهم. يقرأ الرجال الإيرانيون الشعر؛ إنهم حساسون ولديهم حدس متطور، وفي العديد من الحالات فإنه لا يُتوقَع أن يكونوا منطقيين جداً. ويمكن رؤيتهم غالباً يعانقون بعضهم ويمسكون أيـدي بعضـهم الـبعض. مـن ناحية أخرى، تُعتبر النساء بأنهن عمليات إلى درجة البرود، ويظهرن كثيراً من الصفات المرتبطـة بالرجـال. في الولايـات المتحـدة. أبـدى موظـف متبصـر جـداً في السلك الخارجي كان قد أمضى عدة سنوات في إيـران، الملاحظـة التاليـة: "إذا كنت ستفكر في وظائف الجنس العاطفية والذهنية بعكس وظائفنا، فإنك ستنجح بشكل أفضل بكثير هناك."

إن ملاحظـات مثـل هـذه تـأتي كصـدمة لكـثير مـن النـاس، لأن كـل شخص تقريباً عنده صعوبة في تصديق أن السلوك الذي كانوا يربطونه دائماً مع "الطبيعة البشرية" ليس طبيعة بشرية نهائياً بل سلوكاً مُكتسب لتنوع معقّد جداً. من المحتمل أن أحد الأسباب المتعددة للمقاومة التي قوبل بها مفهوم الثقافة، هو أنه يلقي شكوكاً على عدة معتقدات راسخة. إن المعتقدات الأساسية مثل مفاهيمنا للذكوريّة والأنثويّة تبدو أنها تتنوع بشكل كبير جداً من ثقافة إلى أخرى. من الأسهل أن تتجنب فكرة مفهوم الثقافة من أن تواجهها ببسالة.

الكلام والجنس مرتبطان بطرق واضحة. إذا شك القارئ في ذلك، دعه يبدأ بالتحدث لفترة قصيرة كعضو من الجنس الآخر وانظر إلى متى يتركه الناس يفعل ذلك دون التعرض لعواقب وخيمة. كذلك الجنس والإقليمية يتمازجان. فبالنسبة لكثير من الطيور هناك مناطق تناسل ومناطق تعشيش، وبالنسبة للعديد من الأجناس يتم الدفاع عن المناطق من قِبل الذكور ضد ذكور آخرين. وبالنسبة للبشر هناك أماكن حيث يكون سلوك الجنسين تجاه بعضهما محدداً، كقاعة الاستقبال أو غرفة النوم. ويمكننا أن نرى تمازج الجنس والمنطقة في برك سباحة أو في الحانات القديمة التي كانت النساء تُمنع من دخولها.

وينضم الزمن إلى الصورة، حيث يعود التاريخ إلى عصر كانت توجد فيه مواسم تزاوج للعديد من الأجناس. إن البشر الذين حرروا أنفسهم من القيود التي فرضتها البيولوجيا في الأزمان السابقة، قد حمّلوا أنفسهم أعباءً أكبر بكثير، تشمل تلك التي لها علاقة بتحديد العمر الذي يُفترض أن تبدأ فيه العلاقات الجنسية الطبيعية. عندما وصف (مالينوسكي) سكان جزر (تروبرياند)، روى كيف أن حياة الـ (تروبرياندي) الجنسية تكون عادة في تطور كامل في سن السادسة إلى الثامنة بالنسبة للبنات والعاشرة إلى الثانية عشر بالنسبة للأولاد.

5. *الإقليمية*. الإقليمية هي التعبير التقني المستخدم من قِبل عالِم الأعراق البشرية ليصف امتلاك واستخدام إقليم والدفاع عنه من قِبل

الكائنات الحية. فالطيور لها مناطق مميزة حيث تقتات وتبني أعشاشها؛ والحيوانات آكلة اللحوم لها مناطق تصطاد فيها؛ والنحل لديه أماكن يبحث فيها عن العسل، والناس يستخدمون المكان من أجل كل النشاطات التي يمارسونها. إن توازن الحياة في استخدام المكان هو أحد أكثر الأشياء حساسية في الطبيعة. تصل الإقليمية إلى كل زاوية وشق في الحياة. حتى ثيران القتال الإسبانية عندما تكون في حلقة القتال، فإنها من المرجح أن تقيم مناطق آمنة يكون من الصعب زحزحتها منها.

إن تاريخ ماضي الجنس البشري هو إلى حد كبير شرح لجهودنا لانتزاع المكان من الآخرين وللدفاع عن المكان ضد الدخلاء. إن نظرة عامة سريعة على خارطة أوروبا في نصف القرن الماضي تعكس هذه الحقيقة. يمكن إيجاد الكثير من الأمثلة المألوفة لتوضيح فكرة الإقليمية البشرية. توجد للمتسولين طرق معتادة، كما لرجال الشرطة الذين يحاولون أن يجبروهم على المغادرة، والعاهرات يعملن على جانب الشارع الخاص بهن. ويوجد للباعة والموزعين مناطقهم الخاصة التي سيدافعون عنها كأي كائن حي آخر. إن رمزية عبارة "أن تتدخل في شخص آخر" هي عبارة صحيحة وملائمة. فأن تمتلك منطقة ما يعني أن تمتلك أحد العناصر الأساسية للحياة؛ وأن تكون في عوز إلى منطقة هو أحد أكثر الحالات تقلقلاً وخطراً.

وينسجم المكان (أو الإقليمية) بشكل بارع مع باقي الثقافة بطرق عديدة مختلفة. على سبيل المثال، يستدل على المرتبة من مقدار المسافة التي يجلس بها الشخص من رأس الطاولة في المناسبات الرسمية؛

والتغييرات التي تحدث في الصوت عندما يزيد المرء المسافة (من الهمس إلى الصراخ) ؛ توجد مناطق للعمل وللعب وللتعلّم وللدفاع، وتوجد وسائل كالمساطر والسلاسل وأجهزة تعيين المدى لقياس المكان وحدود لكل شيء من بيت إلى دولة.

6. *الزمنية*. الزمنية، كما بيَّنتُ في الفصل السابق، مرتبطة بالحياة بعدة طرق بحيث أنه من الصعب تجاهلها. إن الحياة مليئة بالدورات والتواترات، بعضها متعلق مباشرة بالطبيعة ـ كمعدل التنفس ونبض القلب والدورة الشهرية، وهلم جراً. إن تطبيقات مثل التصنيف العمري (تقسيم المجتمع وفقاً لمجموعات عمرية صارمة) تجمع الزمن والتعاون. إن مواعيد الطعام تختلف بالطبع من ثقافة إلى ثقافة، كما تختلف درجة سرعة الحركة والنشاط. تجدر الإشارة إلى أنه يوجد علماء ثقافة ينظرون إلى كل شيء على أنه عملية تاريخية، ولا يمكن أن يكون هناك شك بأنه إذا كنت تعرف العلاقات الزمنية بين الأحداث فأنت تعرف قدراً هائلاً.

7. *التعلّم والاكتساب*. إن التعلّم والاكتساب هما عمليتان مختلفتان. أظهرت الاستبصارات الحديثة المبنية على أساس ملاحظة أطفال يكتسبون لغة *بأنفسهم* أن هذا النوع من تكيُّف السلوك يحدث أيضاً لجميع مكونات الثقافة الأساسية الأخرى. اتخذت العملية أهمية أساسية كتقنية تكيُّف عندما أصبح الأسلاف العاديون للطيور والثدييات في وقت ما من ذوات الحرارة الثابتة، إما متأخراً في عصر البرمي أو مبكراً في عصر الترياسي، قبل أكثر من 100,000,000 سنة مضت.

قبل هذا الزمن كانت درجة الحركة والنشاط مرتبطة بدرجة حرارة البيئة الخارجية. وعندما انخفضت درجة الحرارة، تباطأت الحركة. هذا الأمر لا يمثل عائقاً لأي نوع محدد عندما كانت جميعها من ذوي الدم البارد، لأن كل شيء يتباطأ معاً. باستبطان التحكم بالحرارة تم تحرير الحيوانات ذات الحرارة الثابتة من القيود المفروضة عليها من قِبل التذبذبات في الحرارة الخارجية. هذا الأمر منحها وسيلة بقاء قيّمة ومطوَّرة بشكل كبير جداً، وإدراكات حسّية مطوَّرة، وفي الوقت نفسه وضَعَت ضريبة على التكيُّفات ـ مثل الهجرات والأعشاش والعرائن، إلخ ـ التي مكَّنت الكائن الحي من التغلب على المصاعب المرافقة لدرجات الحرارة المفرطة في الانخفاض أو الارتفاع.

إن إحدى نتائج ثبات الحرارة هي أنها تفرض على الكائن الحي حجماً أدنى لا يمكن أن ينخفض دونه نظراً لأنه يمكن أن يهلك بسبب فقدان الحرارة. عندما يهبط حجم الجسم إلى ما دون حد أدنى معين، فإن السطح المتزايد بالنسبة للحجم يصبح في وضع لا يستطيع معه الحيوان أن يأكل بسرعة كافية ليحافظ على النشاط الأيضي. لقد تم إثبات أن طائر طنان سمين يمكنه أن يطير لمدة 7.7 ساعة قبل أن يُستهلك مخزونه من الدهن (غرام واحد). والطيور الأنحف يمكن أن تحقق نجاحاً أقل، في حين أن من الواضح أن بعض الحيوانات الصغيرة آكلة الحشرات ستموت جوعاً خلال ساعات قليلة.

ومع الزيادة في الحجم المرتبطة بثبات الحرارة، فقد تم وضع حد أعلى

لها . أظهرت الطيور والشدييات والحشرات قابلية عالية للتكيُّف مع التغيرات البيئية . وتم تعويض مملكة الحشرات عن فترة الحياة القصيرة لأفرادها بواسطة التكاثر بأعداد كبيرة . واحتاجت الحيوانات ذوات الحرارة الثابتة لتقنية تكيُّف أخرى بسبب حجمها الضخم ودورة حياتها الطويلة وعدد الذريّة القليل نسبياً . لقد نموا ليعتمدوا أكثر فأكثر على الاكتساب والتعلُّم المتأخر كوسيلة تكيُّف . من ناحية أخرى، فإن التعلم الحقيقي نجح حقاً كميكانيكة تكيُّف عندما تمكَّن من أن *يتوسع في الزمان والمكان بواسطة اللغة .* يمكن لإبن الظبي (الخِشْف) أن يتعلم عن الأشخاص الذين يحملون البنادق من رد فعل أمه عندما يظهر شخص يحمل بندقية، ولكن لا توجد طريقة ممكنة، بسبب نقص اللغة، لكي يتم تحذير الخشف مسبقاً بدون تجربة فعلية . لا تمتلك الحيوانات طريقة، بشكل رمزي، لتخزين معرفتها لاستخدامها في احتياجات مستقبلية .

كان علماء النفس منشغلين مؤخراً بنظرية التعلُّم، وقام عالم الإنسان، (جون جيلين)، بإقحام نظرية التعلُّم في متن كتابه عن علم الإنسان . إن ما يعقّد الأمور هو أن الناس الذين نشأوا في ثقافات مختلفة *تعلموا كيف يتعلمون* بشكل مختلف، وشرعوا في اكتساب الثقافة بطريقتهم الخاصة . فبعضهم قام بذلك بواسطة الذاكرة والصَم (استظهار من غير فهم)، بدون الإشارة إلى "المنطق" كما نفكر به، في حين تعلم البعض الآخر عن طريق تجربة إيضاحية ولكن بدون معلم يطلب من الطالب أن يفعل أي شيء بنفسه أثناء "التعلُّم" . إن بعض الثقافات، كالثقافة

الأمريكية، تشدّد على الفعل كمصدر تعلُّم، بينما يهتم الآخرون قليلاً جداً بالنشاط العملي. والياباني يقود حتى يد الطالب، في حين أنه لا يُسمح لمعلمينا أن يلمسوا الشخص الآخر. إن التعليم وأنظمة التعليم لثقافة ما محمّلة بعواطف وتتميَّز بها ثقافة ما كما تتميَّز بلغتها. ويجب أن لا يأتي الأمر كمفاجأة حين نواجه معارضة حقيقية لنظام تعليمنا عندما نقوم بمحاولات لنقله إلى الخارج.

إن تعلم كيف نتعلم بشكل مختلف هو شيء يجب أن يواجَه كل يوم من قِبل أشخاص يسافرون إلى الخارج ويحاولون أن يدربوا الموظفين المحليين. يبدو الأمر لا يُصدّق بالنسبة للشخص العادي الذي نشأ في إحدى الثقافات بأن شيئاً أساسياً مثل هذا يمكن أن يتم فعله بأي شكل مختلف عن الطريقة التي تعلموها هم أنفسهم. الحقيقة هي أنه بمجرد أن تعلّم الناس كيف يتعلمون بطريقة محددة فمن الصعب جداً بالنسبة لهم أن يتعلموا بأي طريقة أخرى. وهذا لأنه في عملية التعلُّم/*اكتسبوا* سلسلة طويلةِ من الشروط والافتراضات الضمنية التي يكون التعلُّم جزءاً لا يتجزأ منها.

تعكس باقي الثقافة الطريقة التي يتعلم بها المرء، حيث الثقافة هي "سلوك مكتسب ومشترك". هكذا إذن، التعلُّم هو أحد نشاطات الحياة الأساسية، والمعلمون ربما كان لديهم إدراك أفضل لمعرفتهم لو كانوا قد ألقوا نظرة على كتاب للرواد الأوائل في علم اللغويات الوصفيّة وتعلموا عن موضوعهم عن طريق دراسة السياق المكتسَب الذي يتعلم به الناس

الآخرون. إن رجالاً مثل (سابير) أحدثوا ثورة في النظرية اللغوية وبشكل أساسي في أساليب تعليم اللغة كنتيجة مباشرة لالتزامهم بالتعامل مع مشاكل تنشأ من دراسة اللغات "البدائية". إن ما يسمى "طريقة الجيش" في الحرب العالمية الثانية، كانت قد تأثرت بعمق بعلماء اللغويات المدربين على ما يتعلق بعلم الإنسان. وكذلك كان برنامج اللغة الحالي لوزارة الخارجية الأميركية.

على المعلم أن يتعلم الكثير عن أنظمته الخاصة للتعلُّم عن طريق الانغماس في أنظمة مختلفة جداً بحيث تثير أسئلة لم تتم إثارتها من قبل أبداً. إن الأمريكيين، بشكل خاص، افترضوا لفترة طويلة أن نظام التعليم في الولايات المتحدة يمثل قمة التطور، وأن الأنظمة الأخرى أقل تقدماً من نظامنا. وحتى أرفع أساليب التعليم اليابانية تطوراً والمهيأة بأسلوب جميل، وذات الأساس المُكتسَب المختلف تماماً عن أساسنا، كان ينظر إليها بازدراء. وسبب شعورنا بالإعجاب والاعتداد بأنفسنا يمكن أن يُفسَّر فقط بالجهل الذي تفرضه الثقافة على أفرادها. وبالتأكيد هناك القليل جداً من المبررات للرضا الذاتي عندما ينظر المرء، ليس على الآخرين، وإنما على أنفسنا. وحقيقة أن معظم أطفالنا يكرهون المدارس، أو ينهون مدارسهم وهم غير مثقفين تبيّن أنه مازال لدينا الكثير لنتعلمه عن التعلّم كعملية. كما تبيّن أن هناك فرقاً شاسعاً يفصل الجانب المكتسب للثقافة الأمريكية عن الجانب المُتعلَّم.

عندما يراقب المرء أطفاله يكبرون ويتعلمون، فإنه يفكر ملياً بالدور

الحيوي للتعلُّم كوسيلة للثقافة، فضلاً عن مكانتـه الاستراتيجية في ميكانيكية البقاء. إن أي طفل، منذ لحظة ولادته، بدون ثقافة، وحتى عمر أربع أو خمس سنوات، يستوعب ما يجري حوله بمعدل لا يُضاهى أبداً مرة ثانية في حياته. ومن سن ست سنوات إلى عشر يكون الأطفال مايزالون مستمرين بقوة، شريطة أن لا يكون النظام التعليمي قد أنتج حواجز للتعلُّم.

ومع ذلك فإن المدارس ليست الوسائل الوحيدة المسؤولة عن التعليم. فالآباء والأشخاص الأكبر سناً بشكل عام يلعبون دوراً في ذلك. وكونهم تعلموا كيف يتعلمون بطريقة خاصة، فإن الراشدين يمكنهم أن ينقلوا تحيزهم أو قناعاتهم بطرق متنوعة خفية وكثيراً ما لا تكون خفية. فيما يلي مثال على هذا والذي تمت تجربته بطريقة أو بأخرى من قِبل كل شخص يشارك في ثقافتنا، تقريباً.

تبدأ هذه القصة عندما زارت أم الجد حفيدة ابنها ذات الثلاث سنوات. كانت الطفلة تمشي بخطى قصيرة مثل معظم الأطفال في سن الثالثة، وتستوعب كل شيء يجري من حولها. وبصرف النظر عن الأكل والنوم، كان أحد اهتماماتها الرئيسة هو كسب السيطرة على الاتصالات الجارية من حولها لكي تتمكن من التفاعل مع الآخرين حسب أساليبهم. إنها تقوم بعملية اكتساب الأساس الذي ستبنى عليه فيما بعد الثقافة المُكتسبة بالتعلم. كانت أم الجد تراقب هذا. شيء ما فيما تراه جعلها قلقة. جلست ساكنة للحظة وفجأة أفلتت منها عبارة بدون سابق إنذار وبنبرة صوت مستنكرة: "أنظروا إلى المقلدة الصغيرة. (لويز) توقفي عن ذلك! لا تكوني

مقلدة عمياء." وبكبح الاستحسان تُظهر أم الجد إحدى الطرق الرئيسة التي يُوجه بها التعلُّم بعيداً عن التقليد الواعي، والذي ترفضه أم الجد بوضوح. إن الأطفال، بالطبع، حساسون جداً لهذه العملية.

من أجل خدمة الجنس البشري، فإن التعليم، مثل الجنس، لا يمكن أن يسير بدون ضابط أو نظام، بل يجب أن يُحصر في مجرى وفي بعض الأحيان أن يوجَّه. هناك الكثير لتعلُّمه عن تفاصيل الكيفية التي تعمل بها هذه العملية في ثقافات مختلفة، نحن الأمريكيون الذين نعتدُّ بكفاءتنا نجد أنه بالكاد من الممكن أن نتعلم من الآخرين أشياء يمكن أن تساعدنا في التخلُّص من المأزق التعليمي. إن المدخل الحالي الذي نستخدمه لتعليم القراءة ليس سوى واحد من العديد من العيوب الواضحة في أصول التربية والتعليم الأمريكية. إنها عَرَض بأن هناك شيئاً ما خطأ في طريقتنا بالتعليم. فبدلاً من أن يكون التعليم معززاً للطفل، أصبح غالباً مؤلماً وصعباً.

في (تروك)، الجزيرة الواقعة في جنوب غربي المحيط الهادي، يُسمح للأطفال أن يصلوا إلى عمر تسع أو عشر سنوات قبل أن يبدأ أي شخص بإبلاغهم بمنهجية بشأن ما يُفترض أن يعرفوه. كما يعبر عن ذلك الـ (تروكيون): "إنه لا يعلم بعد، إنه مجرد طفل." ويميل الأمريكيون إلى تأديب الأطفال بنفاد صبر. بالنسبة لنا، فإن التعليم يُفترَض أن يُمنح مع قدر معين من الضغط بحيث يُقدَّر سريع التعلم أكثر من ذلك الذي يتعلم ببطء. يبدو أن بعض الثقافات تشدِّد أقل على السرعة وربما أكثر قليلاً

على التعلُّم بشكل صحيح. من ناحية أخرى، إن النمط التعليمي في الولايات المتحدة هو أن تطلب من الطفل أن يخمن معنى كلمة ما، إذا لم يكن يعرفه. إنه ليس أفضل تدريب بالنسبة لعلماء المستقبل.

يميل الأمريكيون إلى الاعتقاد بأن الأطفال يجب أن "يفهموا" ما تعلموه. والذي يحدث بالطبع هو أن قدراً جيداً من المادة والذي كان يمكن أن يكون بسيطاً بما يكفي لاكتسابه بدون تكلُّف، يُجعَل أكثر صعوبة بالشروحات المعقدة، وغالباً الخاطئة، التي ترافقه. بطريقة أو بأخرى، لا يبدو أن الولع بالشرح والمنطق كعملية يقلل من شأن العرب أو اليابانيين، فقد قدم كلاهما مساهمات استثنائية لعالم العلوم.

كيف يتعلم الناس أن يتعلموا بشكل مختلف سيبقى مجالاً للبحث لفترة قادمة من الوقت. هذه الاختلافات، كما هو الوضع الآن، تمثل أحد الحواجز التي يجب التغلب عليها كل مرة يتفاعل فيها شخصان، نشآ في ثقافتين مختلفتين، لأي فترة زمنية، حتى لو كانت وجيزة. سيقول الأمريكي: "لماذا لا يستطيع الأمريكيون الجنوبيون أن يتعلموا أن يتقيدوا بالمواعيد؟" أو "لماذا لا يستطيع التايلانديون أن يتعلموا أن يغلوا الماء لاستخدامها في مكعبات الثلج؟" الجواب بالطبع هو لأن أحداً لم يعلمهم بطريقة كانت متسقة مع كيفية تعلمهم لكل شيء آخر في الحياة.

8. *اللعب*. لقد كان اللعب، في مجرى التطور، إضافة متأخرة نسبياً وغير مفهومة تماماً إلى العمليات الحياتية. إنه متطور كثيراً عند الثدييات

ولكنه لا يُميّز بسهولة عند الطيور، ودوره كتقنية تكيُّف لم يثبَّت بعد. من ناحية أخرى، يمكن للمرء أن يقول بأن ذلك متشابك مع جميع أنظمة التراسل الأولية الأخرى. إن الناس يضحكون ويروون النكات، وإذا كنت تستطيع تعلُّم فكاهة شعب ما وأن تتحكم بها حقاً، فأنت تعرف أنك تتحكم كذلك في كل شيء آخر تقريباً. العديد من الشعوب حول العالم لديها ما هو معروف على أنه "علاقات مُزاح"، وحتى في ثقافتنا الخاصة يوجد صنف من العلاقات يُعرف بـ "رفيق اللعب". هناك *أماكن* وأوقات للعب ـ مثل غرف التسلية في المنازل ومناطق التسلية في الحدائق ـ وكذلك صناعة التسلية الضخمة التي تواصل الازدهار. إن اللعب والتعلُّم يتضافران بشكل صميمي، وليس من الصعب أن توضِّح علاقة بين الذكاء واللعب. بعض الألعاب مثل الشطرنج والداما الصينية هي تقريباً عمل من نوع خاص تماماً للتطور الفكري.

إن اللعب ونظام التراسل الأولي للدفاع هما أيضاً على علاقة وطيدة مع بعضهما؛ وتُستخدم الفكاهة غالباً للدفاع أو لإخفاء سرعة التأثر. مثال آخر على العلاقة الوطيدة بين اللعب والدفاع نجده في التمارين التطبيقية والمناورات العسكرية والتي يُتحدَث عنها على أنها "ألعاب حربية".

إحدى الميزات الرئيسة لكثير من الألعاب الأوروبية الغربية هي أنها غالباً ما تتضمن منافسة. وكنتيجة لذلك فإن الألعاب بين الـ (بويبلو) المقيمين في ولاية نيومكسيكو، وحتى السباقات، تبدو غريبة جداً لنا

لأنها يمكن أن تشمل رجلاً مسناً وصبياً صغيراً في السباق نفسه مع شباب. إن وظيفة السباق عندهم ليست أن تهزم شخصاً آخر، ولكن فقط من أجل أن "يبذل المرء قصارى جهده". الحقيقة أن اللعب عندنا قلما يكون نشاطاً تلقائياً. ولكي نأخذ حالة متطرفة، فإنه يوجد في الغرب القديم في كثير من الأحيان قدر معين من العنف المرتبط باللعب ـ والنكات لها نكهة سمجة وغالباً ما كانت تؤذي أو تحرج من هو موضع السخرية. بشكل عام، فإن المزاح الأمريكي هو نوع مزدوج من الفكاهة، فإما أن يكون مهاجماً أو متفادياً. في الشرق الأقصى، يقابل المرء نطاقاً واسعاً ومتصلاً من درجات دقيقة للاستمتاع.

9. *الدفاع*. الدفاع هو نشاط متخصص ذو أهمية كبيرة جداً بالنسبة للبشر والحيوانات على حد سواء. إن عالم سلوك الحيوان أثناء دراسته أشكال الحياة الأدنى، يتفحّص عادة ويصف تقنيات الدفاع عند الكائنات المدروسة. قد يكون عالم سلوك الحيوان مطلعاً على تلك التقنيات حتى قبل الكشف عن عمليات أساسية جداً مثل تفاصيل تناول الحيوان لغذائه. يتظاهر الأبوسوم (حيوان أمريكي من ذوات الجراب) بالموت، وتغيّر الحرباء لون جلدها ليتوافق مع الخلفية المحيطة بها، وتنسحب السلحفاة داخل قوقعتها، وينشر الظربان الأمريكي رائحته وينشر الحبار غشاوة حبره، وتسافر الطيور بأسراب لتربك الصقور. ذلك فقط غيض من فيض من وسائل الدفاع التي يمكن أن تُذكَر من قِبل أي تلميذ صغير.

طوّر البشر تقنيات الدفاع لديهم ببراعة مذهلة ليس فقط في الحرب، ولكن كذلك في الدين والطب وتنفيذ القانون. يجب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ليس فقط ضد قوى عدائية محتملة في الطبيعة، ولكن ضد تلك القوى داخل المجتمع البشري. كما يجب أن يتكيفوا مع القوى المدمرة داخل أنفسهم. يهتم الدين بمنع أخطار الطبيعة والأخطار الموجودة داخل الفرد. وتطورت مؤسسات تنفيذ القانون لتتعامل مع المخالفين للقانون ضد المجتمع، والجيوش تُستخدَم ضد مجتمعات أخرى. وكذلك الطب، فهو يدافع عن خير الجماعات وكذلك الأفراد ضد المرض.

نظراً لأن مهام الدين موثقة بشكل أكبر ومفهومة على نطاق أوسع وأشمل في مفهوم معالجة تنوع الثقافات من تلك المهام الخاصة بالطب أو تنفيذ القانون أو الحرب، فإنها ستُعالج بشكل موجز. هناك فكرة واحدة رئيسة يجب أن يتم تذكرها بشأن الطريقة التي تميل ثقافات مختلفة لمعالجة الدين بها. مع الاستثناء الممكن لشعب الاتحاد السوفيتي، فإن الأمريكيين اتجهوا إلى تقسيم الدين إلى فئات مستقلة وإلى تقليل مهمته الاجتماعية أكثر من أي شعب آخر. يعتبر هنود (نافاهو) عدة نشاطات مثل الطب والتسلية والرياضة والعلوم كنشاطات دينية. في الشرق الأوسط، يلعب الإسلام دوراً أكثر انتشاراً من الدور الذي تلعبه المسيحية اليوم في أوروبا. والناس في العالم الغربي يجدون صعوبة في استيعاب إلى أي مدى يتغلغل الدين في جميع مناحي الحياة في العالم العربي. إن محتوى الدين وتنظيمه

والطريقة التي يُدمج بها مع باقي جوانب الحياة تتباين بشكل كبير من ثقافة إلى أخرى.

كما يختلف الطب عندما يجوب المرء أرجاء المعمورة. وعلى الرغم من أن الطب الغربي حقق نجاحات ملفتة، علينا أن لا نغلق عقولنا أمام احتمالات أن تكون أنظمة العلاج الأخرى قادرة على منع معاناة لا حصر لها. كدّس العلماء مواد شاملة عن الممارسات العلاجية لمجتمعات أخرى.الفودو لشعب هايتي، والأطباء السحرة لهنود نافاهو، وطبيب الأعشاب للصينين، جميعهم معروفون تقريباً لكل شخص. ومثل الدين، فإنه يُلتزم بالممارسات العلاجية بشكل صارم وتترك فقط عندما يفشل كل شيء. تختلف المواقف تجاه المرض أيضاً. كما بيّنت (مارغريت ميد) ذات مرة فإن لدى الأمريكيين لديهم الشعور الكامن بأنهم إذا كانوا مرضى، فإنهم يكونون سيّئين. وبدورهم، من النادر أن يلوم النافاهو أنفسهم، إنهم يشعرون بأنهم إذا كانوا مرضى فربما أنهم داسوا بغير قصد على مكان محرّم أو أن شخصاً شريراً قد سحرهم.

وكالطب الذي هو دفاع ضد فتك الأمراض، فإن الحرب التي يستخدمها البشر ضد العدو هي كذلك مثبتة في الملزمة المُحكمة للثقافة. وفي كثير من الحالات فهي شعائرية كالدين في أنماطها الرسمية. وقد حدث مثال لافت للنظر خلال الحرب العالمية الثانية. نظراً لأن النظام الثقافي الياباني تجاهل احتمال أخذ الجنود اليابانيين أحياء، فهو لم يزوّد

جنوده بتعليمات حول كيفية التصرف كأسرى حرب. كانت النتيجة أن معظم أسرى الحرب لم يكن لديهم إحساس بالأمن العسكري، أذعنوا بحرية للاستجواب. وتعاونوا مع معتقِليهم إلى الدرجة التي يعتبرها الأوروبيون خيانة. في كوريا، افترض الجيش الأمريكي أن الأسرى الأمريكيين كانوا سيتصرفون بشكل مناسب حتى بدون تدريب خاص عن كيفية التصرف تحت ضغط الاعتقال. تشير التقارير من الحرب الكورية حول تصرف الرجال الأمريكيين الذين أسروا إلى أن الأمريكيين معرضون للإستسلام نفسياً. والقاعدة البسيطة لـ "أخبرهم اسمك ورتبتك ورقمك المتسلسل ولا شيء آخر،" لم تنجح. تحدّث أميركيون كثيرون أكثر من اللازم. وماتت أعداد كبيرة منهم بلا داع، وفر كثيرون إلى جانب العدو أو قُتلوا، ولم يهرب أحد. والسبب الرئيس هو أنهم كانوا يتصرفون وفقاً لنمط ثقافة واحد وكانوا غير مهيئين للتكيُّف سواء مع النمط الشيوعي للكوريين الشماليين أو للصينيين. وتم توجيه العديد منهم ليعتقدوا بأنهم كانوا سيعاملون معاملة سيئة جداً من قِبل واختل توازنهم عندما تلقوا معاملة "رقيقة" بين الفينة والأخرى. وأصبحت التصرفات اللطيفة البسيطة من قِبل الشيوعيين معَظّمة بسبب المشقة البدنية لحياة السجن. وافترض بعض الأمريكيين أنه بسبب كونهم أسرى فقد انتهت الحرب بالنسبة لهم وأنهم لم يعودوا تحت السيطرة العسكرية بعد ذلك. إن الصمغ الذي كان يثبّت حياتهم ببعضها تفتت تحت الضغط الذي طبقه الشيوعيون ببراعة.

من جانبهم، فإن الشيوعيين قد أخطأوا فهم نمط المساواتية (المناداة بالمساواة بين البشر) ونقص الحدود الطبقية الفاصلة والواضحة، وحقيقة أن القيادة الأمريكية يجب أن تنبثق بشكل غير رسمي من أجل كل وضع جديد. عندما رأى الشيوعيون أن الأسرى الأمريكيين يتوجهون بمشاكلهم إلى رجل واحد أو من أجل أن يحصلوا على نصيحة، كانوا يشكون بوجود مؤامرة. عندها كان الشيوعيون ينقلون هذا القائد المحتمل للمجموعة ويرسلونه بعيداً. كنتيجة لذلك، فشل تطوير دعم المجموعة والقوانين والسيطرة. كان أداء الأتراك الذين يحاربون في كوريا، أفضل بكثير. ببساطة أخبروا الشيوعيين من كان قائدهم وأوضحوا أنه في حالة ترحيله فإن الرجل التالي في الخط سيصبح القائد، وهكذا نزولاً إلى الجندي الأخفض رتبة. هذا كان يعني أنه كان يوجد دائماً بديلٌ لأي قائد يقوم الشيوعيون بترحيله. وبقي تنظيم الأتراك سليماً.

10. *الانتفاع*. للانتفاع من البيئة، فإن جميع الكائنات الحية تكيّف أجسامها لتلائم ظروفاً بيئية معينة. فيما يلي بضعة أمثلة: الرقبة الطويلة للزرافة (تكيّفت من أجل أوراق الأشجار العالية)، وأسنان النمر ذي الأسنان الطويلة المعقوفة والحادة، وأصابع أقدام الكسلان (حيوان يقيم في أشجارالغابات الاستوائية)، وحافر الحصان، وبالنسبة للبشر الإبهام المقابل لباقي الأصابع.

كانت الكائنات الحية أحياناً تطوِّر إضافات متخصصة لأجسامها

لتحل محل ما يمكن للجسم ذاته أن يقوم به، وبتلك الوسيلة تحرر الجسم ذاته من أجل أشياء أخرى. من بين هذه التطورات الطبيعية المبدعة شبكة العنكبوت، والشرانق وأعشاش الطيور والأسماك. عندما ظهر البشر بأجسامهم المتخصصة، فإن نشاطات مثل تلك الإضافات نجحت كوسيلة للانتفاع من البيئة.

اليوم، طوّر جنسنا إضافات تقريباً لكل شيء اعتدنا أن نفعله بأجسامنا. وبدأ تطور الأسلحة بالأسنان وقبضات اليدين وانتهى بالقنبلة الذرية. الملابس والمنازل هي إضافات لتقنيات بيولوجية لتحكمنا بالحرارة. الأثاث يحل محل جلوس القرفصاء والجلوس على الأرض. الطاقة والأدوات والنظارات والتلفاز والهاتف والكتب التي تحمل الصوت عبر الزمان والمكان هي أمثلة للإضافات المادية. النقود هي طريقة لتوسيع وتخزين الجهد. شبكتنا لوسائل النقل تقوم الآن بما اعتدنا أن نقوم به بواسطة أقدامنا وظهورنا. في الواقع جميع الأشياء المادية التي صنعها الإنسان يمكن أن تّعامل كإضافات لما كان في وقت ما يّنفذ بالجسم أو بجزء ما متخصص من الجسم.

إن المواد وباقي الثقافة متضافرة بتلاحم. ويحسب بعض الناس أن تطوير المادة أو غيابها على أنه الثقافة كلها، ولكن في الواقع كل نظام تراسل أولي له جانب مادي مرتبط بشِدّة به. فالرجال والنساء يرتدون ملابس بشكل مختلف، والمُعدات تترافق مع العمل، والزمان والمكان

يقاسان بأجهزة، وتوجد ألعاب للعب، وكتب للتعلُّم وحتى مؤشرات مادية للوضع. إن العلاقة بين المواد واللغة متقاربة بشكل خاص. لا يوجد لكل شيء مادي اسم فقط، ولكن اللغة والمواد تُعالَج غالباً بالطريقة نفسها إلى حد كبير. من المستحيل أن تفكر بالثقافة بدون لغة أو مواد. فكر كم كان سيكون الأمر صعباً أن تعلّم شخصاً ما كيفية صنع فأس حجري بدون أن تكون قادراً على الكلام نهائياً. على الأقل أنت تحتاج إلى أن تقول شيئاً يعني "لا، ليس بهذه الطريقة، بل بتلك الطريقة."

أحد الأسباب للتأكيد على العلاقة بين اللغة والمواد هو أنه كان يوجد نقاش هام بين علماء الإنسان بشأن متى ظهرت اللغة إلى الوجود لأول مرة. من المقبول بشكل عام أنها بدأت منذ زمن طويل، ولكن من الصعب أن تقول طويلاً إلى أي مدى. بسبب العلاقة القوية بين اللغة والثقافة المادية، فإن تقديري كان سيكون بأن التواصل اللفظي ظهر في الزمن نفسه الذي ظهر فيه صنع الأدوات، حوالي قبل 500.000 و 2.000.000 سنة. وكتاب (فيليب ليبرمان) المميز عن علم الأحياء وتطور اللغة حدد هذا التاريخ بـ 250.000 عام مضى عندما ظهر الإنسان بوصفه نوعاً بيولوجياً وبدأت الثقافة الحقيقية. يمكن اعتبار الزمن قبل 2.000.000 و 250.000 سنة على أنه عصر الثقافة البدائية ـ فترة انتقالية بين ما قبل الثقافة والثقافة.

تجد العلاقة المتقاربة بين اللغة والمواد مشابهات لها في الصلة بين أنظمة تراسل أولية أخرى. على سبيل المثال، الاتحاد والدفاع هما مهمتان

تعتمدان على بعضهما البعض (أشخاص من "اتحادات حماية"، الخ)، كما هو الأمر بالنسبة للعمل واللعب، وثنائية الجنس والتعلُّم، والزمان والمكان. من بين هذه المجموعة فإن العلاقة بين ثنائية الجنس والتعلُّم فقط يمكن أن تبدو مبهمة، علاوة على ذلك بالنسبة لفرد من ثقافتنا.

إن أولئك الذين ينتمون إلى مجتمعات أخرى يمكن أن يفهموا هذه العلاقة مباشرة. فالخط الفاصل بين الجنسين في ثقافتنا الخاصة أصبح غير واضح، ولكن مازال الأمر صحيحاً، حتى في الولايات المتحدة، أن التباين في الثقافة الذي اكتسبناه أثناء النمو هو إلى حد كبيرعمل جنس واحد. فلو كان هذا الأمر غير صحيح، لكان هناك اختلاف ثقافي بسيط بين الجنسين.

الخلاصة هي أنه من المهم أن تتذكر أن الثقافة ليست شيئاً واحداً ولكن سلاسل معقدة من النشاطات ذات العلاقات المتبادلة بعدة طرق، نشاطات ذات أصول مدفونة عميقاً في الماضي حيث لم توجد ثقافات ولا بشر. إن تطور اللغة والتكنولوجيا، ثنائي ذو علاقة متبادلة، جعل من تخزين المعرفة أمراً ممكناً. لقد منحنا عتلة لننقب بها عن أسرار الطبيعة. لقد كان الشرط الضروري لذلك الانفجار في الإبداع والذي نفكر به على أنه ثقافة بأرفع معنى. إن اللغة المطوّرة جيداً والتكنولوجيا مترابطتان بقوة بطريقة أو بأخرى مع نموذجنا الحالي، بالرغم من أن مجرد كيفية حدوث هذا الأمر ليست مفهومة بوضوح. ولم يكن شيء من ذلك ممكناً بدون تلك الأنظمة ما دون الثقافية المتطورة جداً والتي تم تطويرها من قِبل الكائنات

الحية الأدنى. في الوقت الذي تقدَّم فيه البشر حدث الكثير من التطوّر الأساسي للثقافة في ذات الأنظمة التي كان يُعتقد بأنها الأكثر بشرية على نحو مميّز.

إن كل نظام تراسل أولي هو نظام غني جداً ومعقّد بحيث يمكن أن يصبح موضوع عمل لطول العمر. من المربك أن تتعامل مع مجالات واسعة وشاملة في مثل هذا الأسلوب الموجز، ولكن أن تتخطاهم كان يمكن أن يحرم القارئ إحساساً بكم هي أصول الثقافة معقدة وصعبة التحليل بشكل كبير. إن آخر تعميم يجب أن يُفهم عن الثقافة هو أنه ليس فقط لها عرض وعمق كبيران في المفهوم التاريخي ، ولكن لها أيضاً أبعاد أخرى ذات أهمية مماثلة. إن الثقافة مشبعة بالمشاعر والتفكير. إن معظم الأشياء التي يقوم بها البشر في العالم المكتسب هي أشياء ليست مجربة حتى، لأنها أُنجزت بعيداً عن الإدراك. ولكن جزءاً كبيراً من النشاط البشري إما أنه نتيجة مباشرة للتفكير الواعي أو مغمور بالعواطف والمشاعر. إن الطريقة التي يمكن بها تقسيم السلوك ـ والثقافة ـ بحسب درجة الوعي أو المشاعر التي ترتبط بها هي موضوع الفصول التالية.

4

الثلاثي الرئيس

أحد أكثر إنجازات (فرويد) إثارة وثورية كان تحليله المتطور للاوعي. إن أولئك الذين لديهم اطلاع على كتاباته سيتذكرون كم من الوقت قضى وهو يحاول أن يقنع الناس بأن بعض الأحداث مثل زلة اللسان أوالقلم، وكالأحلام أيضاً، كانت جميعها دليلاً على قوى خفية في البشر والتي لا يمكنهم ممارسة أي سيطرة واعية عليها. هذا الإفشاء لعالم اللاوعي أدى إلى المزيد من الاكتشافات النفسية التي قدَّمت بُعداً جديداً للسلوك البشري. لم نعد نُعتبَر منطقيين تماماً، ومحكومين بالمنطق. لم يعد بالإمكان اعتبارنا كآلة مزوّدة بأداة رائعة وتُدار من المراكز الأعلى في الدماغ. أصبحنا أقل قابلية لأن يتم التنبؤ بتصرفاتنا ولكن أكثر تشويقاً عندما نُصوَر كساحة معركة لدوافع وانفعالات متصارعة، أكثرها مخفيٌّ.

وبعد (فرويد) أصبح من المألوف أن نفكر بأنفسنا ككائنات وجدَت على عدد من المستويات المختلفة في الوقت نفسه.

اعتمد (فرويد) كذلك بشكل كبير على المغزى التواصلي لأفعالنا أكثر من كلماتنا. ارتاب (فرويد) بالكلمة المنطوقة، وكان الكثير من تفكيره معتمداً على الافتراض بأن الكلمات كانت تخفي أكثر بكثير مما كانت تُظهر. واعتمد أكثر على التواصل في سياق أوسع؛ وعلى رموز الأحلام ومعنى الأحداث غير الهامة التي كانت ستستمر عادة دون ملاحظتها، ولذلك كانت غير خاضعة للرقباء الموجودين داخل كل منا. وبالرغم من اكتشافاته الهائلة، فإن ما افتقر إليه (فرويد) حقاً كان نظرية للتواصل. اليوم، بعد سنوات من تأكيد صحة القسم الأكبر من نظريته، فإن التحليل النفسي مايزال يفتقر إلى طريقة منظّمة لوصف أحداث التواصل التي تحدث بين طبيب ومريض.

مثلما كان مفهوم (فرويد) للاوعي ثورياً، فإن وجهة نظره بأنه يتعذر التعامل معه بواسطة الفحص المباشر كان حجر عثرة أمام مزيد من التحليل المنظّم. من بين أولئك الذين لم يوافقوا على البرنامج الفرويدي، كان الطبيب النفساني الراحل في واشنطن، (هاري ستاك سوليفان). فقد اعتبر (سوليفان) اللاوعي كحقائق منفصلة للشخصية والتي هي خارج إدراك الشخص. كانت صيَغهُ ذات قيمة عظيمة للعالِم الاجتماعي لأنها أخلَتْ الطريق لمزيد من البحث. قام (سوليفان) بتعليم أن كلاً منّا يمتلك نفساً

مثالية، والتي نستحسنها، ونفوساً أخرى ربما لا نجدها جذابة بالدرجة نفسها. بعض تلك النفوس تكون بغيضة جداً بالنسبة لنا، والأقوياء جداً هم فقط القادرون على تحملها. لذلك فإن النفس العاملة العادية والحقيقية تُرى كمجموعة مركبة من عدة نماذج سلوكية أطلق عليها (سوليفان) ديناميات. والديناميات هي طرق للإندماج مع كائنات بشرية أخرى. والمرء يدرك بعضاً منها، بينما الأخريات منفصلاتٌ ولذلك فهي مخفية على الفرد ولكنها ظاهرة للعالم. هذه الفكرة بأن هناك أجزاء هامة للشخصية توجد خارج إدراك المرء ولكنها توجد من أجل أن يدركها كل شخص آخر، قد تبدو مخيفة. الموضوع هو موضوع حاسم وستنمو أهميته عندما يبدأ الناس باستيعاب مفاهيمه الضمنية. إن ما قاله (سوليفان)، في الواقع، كان أن اللاوعي ليس مخفياً على أي أحد باستثناء الفرد الذي يخفي تلك الأجزاء التي استنكرها أشخاص مهمون بالنسبة له في مراحل مبكرة من حياته. وفي الوقت الذي تكون فيه تلك الأجزاء منفصلة أو مخفية عن ذاته، فإنها موجودة وظاهرة بالنسبة للمراقبين المدرَّبين لكي يروها وبذلك يمكن أن تُحلَّل.

لقد كانت مساهمة (سوليفان) مساهمة رائعة. فقد ساعدت في تبديد قدَر كبير من خزعبلات التحليل النفسي، فاتحة أفقاً واسعاً للبحث في العملية البينشخصية.

استخدم (فرويد) و (سوليفان) كتب وأبحاث علماء الإنسان بكثرة ـ

كان (فرويد) يستخدم بشكل غير مباشر علم الإنسان ليدعم آراءه، واستخدمه سوليفان بطريقة مباشرة أكثر. عمل (سوليفان) بشكل فعلي مع أعظم لغوي وصفي في وقتنا الحاضر، (إدوارد سابير)، الرجل الذي وضع الأسس لعلم اللغويات الوصفية الحديث. في الوقت الذي كان علماء النفس يعتمدون على الإنسان ليتعلموا المزيد عن البشر ككائنات اجتماعية، كان علماء الإنسان يستخدمون نظريات المحللين النفسيين في محاولاتهم لصياغة نظريات للثقافة أكثر إقناعاً. واحدة من أكثر تلك النظريات المُقتَبسة أهمية كانت أن الثقافة وجِدت على مستويين: ثقافة *علنية*، والتي هي ظاهرة وسهلة الوصف، وثقافة *مخفيّة*، والتي هي غير ظاهرة وتطرح صعوبات حتى للمراقب المُدرَّب. استُخدم تشبيه الجبل الجليدي بشكل شائع عند تعليم هذه النظرية للطلاب والناس العاديين على حد سواء. عندما ثبت في النهاية أن هذه النظرية غير ملائمة لوصف الصورة الثقافية، بدأ علماء الإنسان، مثل (كلوك ـ هوهن) بالتحدث عن ثقافة *واضحة* وثقافة *ضمنية*. الثقافة الواضحة، أشياء مثل القانون، كانت عن ما يتحدث عنه الناس ويمكن أن يكونوا دقيقين بشأنه. والثقافة الضمنية، مثل المشاعر تجاه النجاح، كانت عن ما يأخذونه كأمور مسلَّم بها أو ما وجِد على هامش الوعي.

لقد كُتب الكثير عن الافتراضات الضمنية لثقافات متنوعة، بما فيها ثقافتنا. هذا المدخل هو مدخل جيد وكان مسؤولاً عن عدد من

الاستبصارات القيّمة. من ناحية أخرى، فإن مستوى التجريد في مفهوم الثقافة الضمنية ـ الثقافة الظاهرة عالٍ إلى درجة أنه من المستحيل أن يُبنى عليه بسهولة. إن اكتشاف أن أحد الافتراضات الضمنية للحياة الأمريكية بأن العمل الشاق سيُكافأ قد يفسّر قدَراً كبيراً عن السلوك في هذا البلد، ولكن من الصعب جمعه مع استبصارات مماثلة لتشكيل تعميم أوسع للحياة الأمريكية. ومثل العديد من التجريد عن الثقافة، فهذا التجريد يتركنا في الشعور: "أين نذهب من هنا؟" وبالرغم من مستواه التجريدي، فإن الرأي بأن الثقافة تشمل سمات يمكن التحدث عنها وسمات أخرى لا يمكن التحدُّث عنها يبقى رأياً قيّماً. كما أنه يقدِّم مثالاً آخر عن كيف يجب علينا أن نصل إلى إدراك سلوك على مستويين.

ميَّز (فرويد) بين الوعي واللاوعي؛ وميَّز (سوليفان) بين داخل نطاق الإدراك وخارج نطاق الإدراك. تحدّث علماء الإنسان، مثل الراحل (رالف لينتون)، عن ثقافة علنية وثقافة مخفيّة، واستخدم آخرون مصطلحات مثل ضمني وصريح، والتي طُبقت على الافتراضات وراء السلوك وكذلك على الأنماط التي تتحكم فيه. إن طريقة تحليل الأحداث ثنائية القطب هذه سرعان ما انتشرت في حقول أخرى، مثل العلوم السياسية والإدارة العلمية. كلا الفرعين تبنّى المصطلحات الرسمية وغير الرسمية عند وصف الأنماط السلوكية والإجراءات الإدارية والبنية التنظيمية. إن استخدام الفئات المستقطبة جعل من الممكن وضع الفوارق التي كانت مهمة ولم يتم

وضعها من قبل. علاوة على ذلك، كانت متسقة مع النزعة الأمريكية لفهم الأشياء كمتضادات ــ بالأسود والأبيض. إن السهولة التي يميل بها الأمريكيون إلى استقطاب أفكارهم عن الأحداث يمكن أن تجعل من الصعب بالنسبة لهم اعتناق طريقة فهم تستخدم ثلاثة أصناف بدلاً من صنفين. وذلك هو ما كنت أرغب باقتراحه هنا : النظرية التي تقترح أن للثقافة ثلاثة مستويات. لقد أطلقت عليها مصطلحات الرسمي وغير الرسمي والتقني، مصطلحات مألوفة ولكن بمعانٍ جديدة وموسعة.

توصلّنا (تراجر) وأنا إلى هذه النظرية الثلاثية كنتيجة لبعض المشاهدات المفصّلة والمطوّلة جداً للطريقة التي يستخدمها الأمريكيون ويتحدثون فيها ويتعاملون بها مع الوقت. أظهرت ملاحظاتنا أنه كان هناك فعلياً ثلاثة أنواع للوقت بدلاً من نوعين : وقت رسمي، والذي يعرفه كل شخص ويسلّم به ويدخل في الحياة اليومية بشكل كبير ومتكرر؛ ووقت غير رسمي، والذي له علاقة بإشارات غير دقيقة أو حسب الحالة مثل "لحظة" و "فيما بعد" و "خلال دقيقة"، وهلم جراً؛ والوقت التقني، وهو نظام مختلف تماماً استُخدم من قِبل العلماء والفنيين، والذي قد تكون فيه حتى المصطلحات الفنية غير مألوفة بالنسبة لغير المتخصصين. وبملاحظة كيف تُستخدَم أنظمة الوقت هذه وكيف يتم تعلّمها، وبمعرفة شيء عن تاريخها، كان بمقدورنا أن نوضّح أنه في مجالات أخرى للحياة نكون أيضاً محصورين بالإطار المرجعي الرسمي وغير الرسمي والتقني. بمعنى آخر،

اكتشفنا أن للناس ثلاثة أنماط سلوكية وليس نمطين. كان لتعميمنا بشأن الوقت تطبيقات أوسع مما اعتقدنا أصلاً.

إن رياضة التزلج على الجليد تقدّم مثالاً رائعاً لأنماط الرسمي وغير الرسمي والتقني. قبل بضعة سنوات وفي مدينة (جراند ليك) بولاية كولورادو، عند المنحدر الغربي الثلجي لجبال (روكيز)، كان هناك عُرف بأن كل شخص يجب أن يستخدم التزلج لكي يتنقّل في الشتاء. وكان يجب على الاساتذة الجدد الذين نُقِلوا إلى المنطقة أن يتعلموا التزلج، وحتى مدراء وطلاب المدارس كانوا على زلاجات. وكان الأطفال الصغار يكتسبون المبادئ الأساسية للتزلج مباشرة بعد أن يتمكنوا من المشي. عندما كان المرء يراقب أولئك الناس وهم يتنقلون في كل مكان، فقد كان ذلك يبدو وكأن الزلاجات كانت امتداداً حقيقياً للأقدام، كعضو متكيّف جداً من أجل التنقل. وقد طوّر كل شخص أسلوبه الفردي جداً، تماماً كما يكون لكل شخص طريقته الخاصة بالمشي. وعندما تُقام مسابقات التزلج على الجليد، فقد كان بعض القرويين أفضل من قرويين آخرين، في حين أن العديد لم يكن يتبارى نهائياً. الشيء الرئيس كان هو أن كل فرد كان يتزلج. ولم يتساءل أحد عن حقيقة أن ذلك كان مستحباً. لقد أُخذ التزلج كأمر مسلّم به على أنه جزء من الحياة اليومية للبلد؛ لقد كان عُرفاً رسمياً، المصطلح الذي سيظهر في هذه الصفحات بشكل متكرر. وفي الوقت نفسه، كان هناك بعض الأشخاص الجريئين في (دينفر) وفي مدن أخرى مجاورة، اعتادوا أن يمارسوا التزلج كمتعة،

وكنشاط جزئي. لم يكن هناك ضغط على أولئك الأشخاص لكي يتزلجوا فقد كانوا ببساطة يحبون أن يخرجوا إلى الخلاء. بعضهم كان يمتلك موهبة حقيقية، وآخرون لم يكونوا ماهرين جداً. كانت هذه المجموعة تتزلج لأنهم كانوا يستمتعون باللهو والتدريب ومنظر الجبال الجميل ورفقة الرياضة. لم يكونوا على وعي تماماً بكيف يتزلجون، وأي أسلوب كانوا يستخدمون أو كيف يمكن أن يتم تعليم المهارة. كانوا يقولون: "أنظروا إلي"، أو "قم بذلك هكذا" وكانوا يقومون بذلك قدر استطاعتهم. لن أنسى أبداً تلك المرة التي قرر فيها أحد أصدقائي الذي كان يشاهد هذا السفر الجماعي إلى الجبال أن يحضر. كان رياضياً رائعاً وكان ذات مرة بطل (القفازات الذهبية)، لذا فلم يكن ينقصه التناسق والتحكُم. ومع ذلك، عندما لبسَ الزلاجات لأول مرة، كانت النتيجة مضحكة وكارثية في الوقت نفسه. فبمجرد أن حاول أن يخطو خطوة واحدة، سقط أرضاً. وبالكاد تمكّن أن يقف حيث كانت الزلاجات تعيقه. وحوصر القادم الجديد بجميع أنواع المشاكل التي تطلبت تحليلاً تقنياً وماهراً سريعاً. وللأسف فإن أفضل شيء كان بإمكان متزلجي يوم الأحد تدبره هو: "إثنِ ركبتيك وانطلق. في النهاية ستدرك طريقة عمل ذلك." إن مفهومهم للتزلج كان غير رسمي، إنه رأي لا يمكن التعبير عنه بشيء أفضل من عبارة: "ستدرك طريقة عمله."

في ذات الوقت الذي بدأ فيه سكان المدينة عند المنحدر الغربي بالإعجاب بالتزلج، وكان المتزلجون غير الرسميين من (دنفر) يقومون

برحلتهم الأسبوعية إلى الجبال، كانت تصوّر آلاف الأقدام من الأفلام في جبال الألب للمتزلجين المهرة الرائعين وهم يندفعون إلى أسفل المنحدرات، ويستديرون ويتسلقون ويتوقفون. تم تحليل تلك الأفلام، وتمت تجزئة العملية إلى عناصرها أو أجزائها، كما يمكن أن تُسمى. بالإضافة إلى العناصر، تم كذلك تحليل نماذج أوسع. وبعد فترة قصيرة تم تقرير أن التزلج لم يكن فناً يجب أن يُحصَر بالموهوبين فقط؛ فأي شخص لديه صبر وقليل من التحكُّم كان من الممكن تعليمه التزلج، ذلك لأنه تم تحديد العناصر بشكل جيد بحيث كان يمكن التحدث عنها ووصفها *تقنياً*. علاوة على ذلك، فإن توحد المهارة التي كان من الممكن تحقيقه من قِبل هؤلاء المتزلجين الجدد المدرَبين بشكل تقني، كان مذهلاً جداً وجعل الشعبية الهائلة للرياضة مؤخراً شيئاً ممكناً. يحب قليل من الناس أن يفشلوا فيما يفعلوه، ومع الطرق الجديدة للتعليم، فإن ساعات تعليم قليلة يمكن أن تمنح مهارة كافية وثقة بحيث أن القادم الجديد كان يمكن أن يبقى مستمتعاً.

في ضوء فرضيتنا السابقة بأن كل السلوك الثقافي قائم على أساس بيولوجي، فيمكن أن يُفتَرَض أن الصفات الرسمية وغير الرسمية والتقنية للحياة هي متأصلة أيضاً في نظام الإنسان الفسيولوجي. ومن المؤسف أن سلسلة الاتصالات الدقيقة بين فسيولوجيا النظام العصبي وسلوك الإنسان ماتزال لغزاً نسبياً. في الوقت الحاضر فإن أكثر ما يمكننا أن نقوله هو أن المرء قد يتوقع أن يجد هذه النماذج الثلاثة للسلوك تنبثق من ثلاثة أجزاء

مختلفة للنظام العصبي. يمكن أن يُستنتَج هذا الافتراض من ميزة سلوك جربها كل شخص: من الصعب جداً أن تمارس أكثر من عنصر واحد من ثلاثية رسمي وغير رسمي وتقني في الوقت نفسه بدون نتائج تسبب الشلل. إن الأشخاص الذين يضربون على الآلة الكاتبة بأسلوب غير رسمي، يعرفون أنهم إذا بدأوا التفكير بتفصيل تقني بشأن ما الذي يفعلونه بأصابعهم و أين تقع الحروف، فإنهم سيواجهون مشاكل. المبتدؤون الذين يدرسون الاختزال يتم إخبارهم بأنهم "يجب أن يفهموا بواسطة أصابعهم" وإلا فإنهم لن يحققوا أي سرعة. بيّن صديق لي ذات مرة، وهو عالم نفس عصبي أنه كان يكفي أن تلفت النظر إلى مستوى نشاط ما في الوقت الذي كان يقوم الشخص بالعمل في مستوى نشاط آخر لإيقاف جميع الأفكار المترابطة منطقياً. واستخدم مثال أم غاضبة من إبنها وتوبخه. يرفع الصبي نظره ويقول: "يا ماما، إن فمك يتحرك بشكل مضحك عندما تكونين غاضبة." وتكون الأم عرضة لأن تصبح غير قادرة على الكلام. أيّد كتاب (ماكلين) عن عقلنا *الثالوثي* هذه الفرضية منذ زمن.

تعميم آخر يجب تذكُّره عن الاندماجات الرسمية وغير الرسمية والتقنية هو أنه عندما يسيطر أحدها، فإن الثلاثة جميعاً تكون موجودة في أية حالة مفترضة. وبالعودة إلى المتزلجين للحظة، فمن السهل أن تفهم أنه حتى أولئك الذين يفهمون التزلج على أنه نشاط رسمي فإنهم سيصبحون تقنيين بشأنه باعتدال، وإلا سيجدون صعوبة في الحديث عن

تفاصيل التزلج. كل شخص له أسلوبه الخاص (غير الرسمي)، ولكن غير الرسميين يتضمن الرسمي كقاعدة. إذا كان شخص ما يريد أن يقارن المجموعات الثلاثة للمتزلجين، فإنه كان سيجد أن متزلجي الجبل الرسميين والمتزلجين غير الرسميين من السهول كان لديهم الكثير من الأشياء المشتركة مع بعضهم مما لدى أي منهم مع المتزلجين الأوروبيين التقنيين. فالتقني، بالطبع، يطوّر بسرعة جداً أنظمته الرسمية الجديدة. فالعلم، على سبيل المثال، والذي نعتقد أنه جوهر التقني، بنى في الواقع داخله عدداً كبيراً من الأنظمة الرسمية التي لا يرتاب أحد فيها. تلك لها علاقة بأساليب العلوم، والإصرار على موضوعية أعضاء المجتمع العلمي وأمانتهم فيما يتعلق بعملهم الخاص وعمل الآخرين. في الحقيقة أن قدَراً كبيراً مما يحدث تحت عنوان العلوم كان سيُصنَف بشكل مناسب أكثر على أنه نظام رسمي جديد يَستبدل أو يُغيّر بسرعة كبيرة أنظمتنا الرسمية القديمة المتمركزة في معتقدات وعقيدة الشعب.

معظم مهنة الطب أثناء ممارستها، وعلى العكس من البحث الطبي، يمكن أن تكون مصنفة بشكل ملائم أكثر كرسمية. وهذا لا يُقصد على أنه نقد للأطباء. إذا لم يطوّروا أنظمتهم الرسمية، فإن مرضاهم كانوا سيجبرونهم على ذلك. إن ما يسمى علوم الاجتماع أو علوم السلوكيات مغمورة بطقس إجرائي يتعلمه الطلاب الخريجون، وفيما بعد يمررونه إلى طلابهم. طوّر عالم اجتماع متحمّس فهرساً ليعكس الدرجة التي كان فيها

البحث "علمياً". فقد ابتكر نظام تصنيف مشتقاً من الحجم النسبي للنص إلى الحاشية ومقدار الإحصائيات بالنسبة للنص!

التعلم الرسمي

يتم تعليم النشاطات الرسمية بالنُصح والتحذير. فالمعلّم الراشد يشكّل الصغار حسب أساليب لا يرتاب فيها أبداً. حيث يقوم بتأديب الأولاد بأن يقول: يا أولاد لا تفعلوا ذلك" أو "لا يمكنكم أن تفعلوا ذلك" باستخدام نبرة صوت تدل على أن ما تفعله هو شيء غير مقبول. ولا يوجد سؤال في ذهن المتكلّم عن أين يقف هو وأين يقف أي راشد آخر. وعند تصحيح كلام أولادهم، فإن الآباء سيقولون: "ليس كرسيات! بل كراسي!" إن عبء هذا التواصل يكمن في أنه لا يوجد أي نموذج آخر مقبول بشكل معقول. إن الأساليب الرسمية يتم تعلُّمها دائماً عندما يتم فعل شيء خطأ وشخص ما يصححه. والتعلُّم التقني يبدأ أيضاً بأخطاء وتصحيحات، ولكنه يُنفَذ بنبرة صوت مختلفة كما تُقدَّم للطالب أسباب التصحيح. هناك خطأ يرتكبه العديد من الآباء والمعلمين هذه الأيام وهو محاولة تفسير السلوك الرسمي بالطريقة نفسها التي يقوم بها الشخص بتحديد الأسباب للسلوك التقني. هذه إشارة للطفل بأنه يوجد بديل، وبأن صيغة ما هي جيدة كصيغة أخرى! إنه خطأ فادح. إن تفاصيل التعليم الرسمي ثنائية، وذات طبيعة نعم ـ لا و صح ـ خطأ. فإما أن تخترق محرماً أو لا تفعل ذلك، وإما أن تسرق جوز هند جارك أو لا تفعل، وتقول "قلمات" لجمع كلمة قلم أو لا

تقول. وتُضاف مئات التفاصيل الأخرى الصغيرة إلى أن تصل إلى نظام رسمي لا يشك فيه أحد.

التعلم غير الرسمي

إن التعلم غير الرسمي له صفة مختلفة تماماً سواء عن التعلم التقني أو التعلم الرسمي. فالوسيلة الرئيسة هي نموذج يُستخدم للتقليد. ويتم تعلم مجموعات كاملة من النشاطات ذات العلاقة في الوقت نفسه، وفي كثير من الحالات بدون معرفة أنه يتم تعلمها نهائياً أو أن هناك أساليب أو قواعد تحكمها. قد يكون الطفل متحيراً بشأن شيء ما ويسأل أمه عن القواعد. "ستكتشف ذلك فيما بعد ياعزيزي" أو "أنظر من حولك وراقب ما يفعله الناس؛ استخدم عينيك!" عندما يتم توجيه عبارات مشابهة للعبارة التالية، فإن الشخص يمكن أن يكون متأكداً بأن النشاط هو نشاط غير رسمي: "أمي ـ كيف تجعل المرأة الرجل يتزوجها؟" "حسناً، من الصعب وصف ذلك، ولكن عندما تكبرين ستكتشفين. فهناك الكثير من الوقت للتعلُّم." يُعامل الطفل بهذا النوع من الملاحظات غالباً بحيث أنه يفسره بشكل آلي على أنه "لا توجه أسئلة، أنظر حولك وانظر ماذا يفعل الناس." في الولايات المتحدة نجد أن أهم مجال يعمل فيه هذا النوع من التعلُّم هو الجنس. فعلى الأغلب أنه يتم تعلُّم الجنس بشكل غير رسمي ـ حقيقة يمكن أن تأخذ بالحسبان الافتتان المَرَضي الذي تمارسه على الناس. عندما كان يقوم شخص ما، مثل الراحل (آلفرد كينزي)، بمحاولة تصنيف وتنظيم

المعرفة المتوفرة عن السلوك الجنسي، فإنه كان يُستقبَل عادة بالسؤال: "كيف تعرف؟ هل كنت هناك؟"

إن هوليوود مشهورة بتوظيف خبراء مختلفين ليعلموا الناس بشكل تقني ما يتعلمه معظم الناس بشكل غير رسمي. إن الحالة التي لدينا هي قصة عن طفلين لزوجين في فيلم سينمائي يشاهدان طفلاً جديداً في الجوار يتسلق شجرة. ومباشرة أراد الطفلان أن يتم إعطاؤهما اسم مُعلِمه في تسلق الأشجار.

إن أنظمة كاملة من السلوك مكوّنة من مئات الآلاف من التفاصيل تنتقل من جيل إلى آخر، ولا يستطيع أحد أن يعطي القواعد لما يحدث. ولا ندرك وجود تلك القوانين إلا عندما يتم اختراقها. على سبيل المثال، اعتاد الكاتب أن يسأل مستمعيه من الأشخاص الذاهبين إلى الخارج ليعطوا قاعدة *المناداة بالاسم الأول* في الولايات المتحدة. كان بإمكانهم إعطاء القليل، بعبارات مبهمة، ولكن سرعان ما كانوا يتخبطون. في النهاية كانوا سيعلّقون: "أتعلمون، عندما تنظرون إلى الأمر بتلك الطريقة فمن الصعب أن تثبّتوا هذه الأشياء."

يدرك العديد من الناس بشكل غير واعٍ صحة استخدام النماذج كأداة رئيسة للتعلم غير الرسمي. إن النساء في الولايات المتحدة، إجمالاً، أكثر إدراكاً لهذا الأمر من الرجال، بالرغم من أنهن يملنّ أيضاً لإغفال التقليد لما هو له ـ هو طريقة لاكتساب السلوك المناسب ـ طريقة لتصبح

عضواً في المجتمع. كل شخص رأى أولاداً يحاكون طريقة مشي آبائهم أو يقلّدون بطلاً تلفزيونياً أو، في أسوأ الحالات، يقلّدون شخصية رديئة تتسكع عند زاوية محل يبيع البضائع والأدوية. في كثير من الحالات لا توافق الأم على اختيار الفتى للنماذج، بالرغم من أنها ربما غير مدركة حتى لأسبابها لذلك. وبالرفض بقوة، قد تُربك قابلية التعلُّم غير الرسمي لأطفالها بالتدخُّل بمحاولاتهم المبكّرة في التقليد.

التعلم التقني

التعلم التقني بشكله المجرّد هو شيء قريب من شارع باتجاه واحد. وهو يُنقل عادة بشروط واضحة من المعلّم إلى الطالب، إما شفوياً أو كتابة. وغالباً ما يكون مسبوقاً بتحليل منطقي ويستمر بشكل مترابط. أحد أفضل الأمثلة للتعليم التقني يمكن إيجاده في الخدمات المسلحة، حيث عملت هذه التقنيات بنجاح في التعامل مع أعداد كبيرة من الأعضاء الجدد. هذا النجاح هو تأكيد إضافي على فكرة أن التعلم التقني هو ملازم حتمي لتعليم أعداد كبيرة من الناس. وعلى العكس من التعلم غير الرسمي، فإنه يعتمد أقل على أهلية الطالب واختيار النماذج المناسبة، ويعتمد أكثر على براعة الفكر الذي بواسطته يتم تحليل المادة وتقديمها.

خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كانت هناك حاجة ملحة لأعداد كبيرة من التقنيين المدرَّبين، كان من المفترض أن أولئك الذين كان لديهم أهلية ميكانيكية سيصبحون ميكانكيي طائرات جيدين. وأثبت تحليل

دقيق لهذه الفرضية عكس ذلك. فقد اتضح أن بائع أحذية جيد في الحياة المدنية سيصبح ميكانياً أفضل في الأغراض العسكرية من شخص قضى معظم حياته في تصليح السيارات وتدرَّب على سيارة فورد (موديل - تي). لم تكن الميزة الحاسمة هي الجدارة الميكانيكية ولكن قدرة المتدرب على اتباع التعليمات. بعد ذلك نجح الجيش في عمل كتيبات التعليمات بدقة متناهية بحيث أن المتدرب الأفضل أصبح ذلك الشخص الهاجسي نوعاً الذي يمكنه قراءة الإرشادات واتباعها. وآخر شيء أرادوه كان شخصاً ما بأفكاره الخاصة عن كيفية تصليح معدات.

نعيد ما ذكرناه باختصار: الرسمي هو عملية ذات اتجاهين. فالمتعلِّم يحاول ويرتكب أخطاءً ويُصحَح ("لا، ليس الجانب الأيمن من المنزل، بل الجانب الأيسر! تذكَّر، لا تقترب أبداً من حصان من الجانب الأيمن!"). التعليم الرسمي يكون عرضة لأن ينغمر بالعاطفة. والتعليم غير الرسمي هو إلى حد كبير مسألة أن المتعلم يختار الآخرين كنماذج. أحياناً يتم القيام بذلك عن قصد، ولكنه يحدث خارج الإدراك عموماً. وفي معظم الحالات لا يكون للنموذج دور في هذه العملية إلا كشيء للتقليد. والتعليم التقني يتحرك في الاتجاه الآخر. فالمعرفة تستند إلى مهارة المعلِّم والتي هي أداء لقدرته التحليلية والمعرفية. إذا كان التحليل واضحاً بشكل كافٍ وشامل، فإن المعلِّم لا يحتاج حتى لأن يكون موجوداً. فهو يستطيع كتابته أو وضعه على شريط تسجيل. في الحياة الواقعية يجد الشخص قليلاً

من أنواع التعليم الثلاثة في كل موقع تعليمي تقريباً. ومع ذلك فإن نوعاً واحداً سيُهيمن دائماً.

الإدراك الرسمي

بالمقارنة مع مجتمعات عديدة أخرى، فإن مجتمعنا لا يمنح *للعُرف* سلطة كبيرة. فحتى أكثر تقاليدنا قوة لا تُنتج القوى الرابطة والتي هي شائعة في بعض الثقافات الأخرى. على سبيل المثال، يوجد لدى قبيلة هنود (الزُّوني) الموجودة في ولاية نيومكسيكو ثقافة رسمية سائدة تمارس ضغطاً ثقيلاً على أفرادها. فالشعب ببساطة لا يمكنه تجاهل الضغوط الاجتماعية ويبقى في القرية. فإذا أرادوا أن يرحلوا ويعيشوا مع غرباء باقي حياتهم، فيمكنهم تحدّي الأعراف وإلا يجب عليهم أن يمتثلوا. نحن الأمريكيون شدّدنا على غير الرسمي على حساب الرسمي. وهناك جيوب، مثل منطقة (نيوإنجلند) وأجزاء محددة من الجنوب، حيث تلعب الأعراف دوراً حيوياً في الحياة. هذا الأسلوب في الحياة والذي يسود فيه الإدراك الرسمي تم تصويره في روايات مثل رواية "*الراحل جورج آبلي*" لـ (جيه. بي ماركاند). إن الإدراك الرسمي هو مدخل إلى حياة تسأل باندهاش: "هل توجد طريقة أخرى؟" والناس ذوو الإدراك الرسمي يتأثرون بالماضي أكثر من تأثرهم بالحاضر أو المستقبل. الإدراك الرسمي هو إدراك لما أطلق عليه (آبلي) "ما هو صحيح، ما يجب أن يكون هناك."

الإدراك غير الرسمي

إن مصطلح الإدراك غير الرسمي هو عبارة متناقضة لأنها تصف الوضع الذي يكون فيه أكثر ما يحدث موجوداً خارج الإدراك بشكل كامل تقريباً. ومع ذلك، فلا شيء مخفي بمعنى الكلمة. في الحقيقة من المشكوك فيه إذا كان هناك أي جزء من الثقافة مخفياً حقاً بمجرد أن نعرف كيف نتنقل للبحث عن الإشارات البليغة.

إن غياب الإدراك في النشاط غير الرسمي يسمح بدرجة عالية للمحاكاة. إن لحظة تفكير متأملة ستُظهر أن في السير أو في قيادة السيارة يميل إدراك العملية لأن يكون عائقاً لأداء سلس؛ وبشكل مماثل، فإن الإدراك الكبير لعملية الكتابة أو الكلام يمكن أن يعترض طريق ما يحاول المرء أن يقوله. لذلك، فإن الإدراك غير الرسمي مكوَّن من نشاطات أو طرق مميزة تعلمناها في وقت ما ولكنها إلى حد كبير جزء من حياتنا اليومية حيث يتم القيام بها آلياً. وتتم إعاقتها غالباً عندما نبدأ في التفكير بها.

كل ذلك تمت معرفته بطريقة أو بأخرى لفترة طويلة، ولكن لم يستوعب أحد إلى أي درجة تتغلغل النشاطات غير الرسمية في الحياة، ولا كيف تقود ميزة خارج الإدراك للأفعال غير الرسمية إلى صعوبات لا حصر لها في حالة معالجة عدة ثقافات. إن نبرة الصوت في اللغة الانجليزية الخاصة بالطبقة العليا والتي تبدو متصنّعة جداً بالنسبة للعديد من الأمريكيين هي

مثال لهذا النوع من النشاط بالذات والذي يمكن أن يكون حجر عثرة بين الأفراد من ثقافات مختلفة إلا إذا تم فهمه بشكل مناسب.

إن ما قمت بوصفه يجب أن لا يُخلط بينه وبين العُصاب الذي تكون فيه جوانب محددة من الشخصية خارج نطاق الإدراك. إن الأدب النفسي مليء بإشارات على السلوك المنفصل، والسلوك غير الواعي والخ، ولكن هذه انحرافات عن المعيار ويجب أن لا يُخلط بينها وبين الإدراك غير الرسمي.

الإدراك التقني

حيث أنه يوجد في السلوك التقني بعض من السلوك الرسمي وكذلك غير الرسمي، فإنه يتميّز بحقيقة أنه سلوك واعٍ تماماً. إن وضوحه الكبير وحقيقة أنه يمكن كتابته وتسجيله وحتى تعليمه عن بعد، كل ذلك يميّزه عن النوعين الآخرين للتكامل[1]. إن الأساس الفعلي للإدراك التقني هو أنه في المنزلة الأعلى للوعي. العلم تقني إلى حد كبير.

الوجدان الرسمي

الوجدان هو المصطلح التقني المُستخدَم من قِبل علماء النفس لوصف المشاعر كشيء منفصل عن التفكير. وقد يفضّل القارئ غير التقني استخدام "عاطفة" أو "شعور" كبديل كلما استُخدمت عبارة "وجدان". وعندما تحدث اختراقات للمعايير الرسمية، فإنها تترافق مع مدّ من

---

(1) التكامل: مصطلح في علم النفس يعني تساوق العمليات العقلية في شخصية سوية فعالة أو تساوقها مع بنية الفرد.

العواطف. يمكن للمرء أن يأخذ فكرة عن كيف يشعر الناس بشأن الأنظمة الرسمية بالتفكير بشخص تم مساندته طوال حياته بدعم قوي جداً. أزل الدعم وستهزّ أساسات الحياة. إن العواطف العميقة تترافق مع النظام الرسمي في كل حالة تقريباً.

إن جزءاً من نجاح الراحل (كلارنس دارو) كان يُنسب إلى كونه بارعاً جداً في استحضار أنظمة رسمية ليستميل هيئة المحلفين. كان (دارو) وبقي شخصية مثيرة للجدل. واعتاد كثير من الناس أن ينظروا إليه على أنه وغد نجح في تبرئة اللصوص والمجرمين في حين كان يجب إرسالهم إلى السجن. واليوم مايزال شخصية ذات اهتمام شعبي كبير، ولكن أولئك الذين يكتبون عنه يميلون إلى رؤيته بطريقة جديدة. إنهم يشدّدون على إنسانيته أكثر من تمكّنه الرائع في القانون. وذلك لأن القانون هو أمر تقني وجاف ويفترض أنه لا يكترث بالعواطف الإنسانية ـ خطيئة عظمى في هذا العصر. ارتدى (دارو) بذلة قديمة متسخة، وكان يروق للرجل العادي ـ كان الناس يجدون فيه شخصاً منتمياً إليهم. فقد كان من نمطهم، الشخص الريفي الذي كان يفوق المخادع المدني دهاءً. وهكذا من الواضح أنه بالإضافة إلى معرفة قانونه جيداً، فقد كان يعرف ثقافته. لقد أدرك أن معظم الناس لا يفهمون القانون ولكن سيدافعون عن أنظمتهم الرسمية وسيبكون عليها عندما يرون حُرماتها تُنتَهك. هذه كانت قوة (دارو)، والمرة الوحيدة التي فشل حقاً في الاستفادة منها كانت عندما استُدعي إلى

هونولولو من أجل قضية (ماسّي) في عام 1932 . فهناك واجه هيئة المحلفين المكونة من أعضاء كان لديهم أنظمة رسمية متباينة. فالمحلفون الصينيون لم يتأثروا أبداً باستراتيجياته المتأصلة في ثقافة (باول).

عاجلاً أم آجلاً، عندما تصبح الأنظمة الرسمية أكثر قوة تصير مرتبطة مع عملية الطبيعة ذاتها إلى درجة تُعتبَر الطرق المختلفة عنها للسلوك مخالفة للطبيعة ـ إذا لم تكن مستحيلة. ومع ذلك، فإن هذه الصرامة لها فوائدها. فالناس الذين يعيشون ويموتون في ثقافات رسمية يميلون لأن يتبنوا رأياً عن الحياة أكثر أريحية من بقيتنا لأن حدود السلوك محددة بوضوح، حتى بالنسبة للانحرافات المباحة. ليس هناك أدنى شك في ذهن أي شخص، طالما أن الشخص يلتزم بالمعايير، بأن المرء يعرف ماذا يتوقّع من الآخرين. ويدرك المطلعون على الاختلاف بين الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية، حيث غالبية السكان من الكاثوليك، بأن الدين ليس قضية نقاش، وفي الولايات المتحدة حيث أننا أكثر تقنية بالنسبة للدين. ولدينا مثال ممتاز عن كيف يعيش الناس تحت المؤسسة الدينية نفسها، ومع ذلك يتصرفون بشكل مختلف، اعتماداً على ما إذا كانت تُدار رسمياً أو بشكل غير رسمي، أو تقنياً.

الوجدان غير الرسمي

هناك وجدان قليل أو لا يوجد وجدان نهائياً مرتبط بالسلوك غير

الرسمي طالما أن الأمور تسير بشكل جيد وفقاً للقواعد غير المكتوبة أو غير المُعلَنة. من ناحية أخرى، فالقلق يلحق بسرعة عندما يتم انتهاك مضمون آداب التعامل. ويمكن حدوث انزعاج مُفرط عندما يقف شخص ما قريباً جداً أو يستخدم الاسم الأول قبل الأوان. وما يحدث بعد ذلك يعتمد على الخيارات الموفَّرة من قِبل الثقافة لمعالجة القلق. تتضمن ثقافتنا انسحاباً وغضباً. في اليابان يقهقه الناس أو يضحكون بعصبية. إن الاستجابات البديلة محصورة نسبياً وآلية. والتفاوت المسموح به للاستجابة العاطفية في الثقافة غير الرسمية أقل بكثير مما يمكن للمرء أن يتوقعه. الفكرة هي أن العواطف المترافقة مع الانحراف عن المعايير غير الرسمية هي بحد ذاتها مكتسبة بشكل غير رسمي ومحددة بحقيقة أن الناس لا يدركون أن استجابتهم مكتسبة بالتعلُّم أو أن هناك أي طريقة أخرى للاستجابة. وتوجد حالة مشابهة في اللغة: في اللغة الإنجليزية، إن إحدى أكثر الطرق شيوعاً للدلالة على أن المرء يطرح سؤالاً هي عن طريق الانتهاء بارتفاع في مقام الصوت. وحيث أنه يمكن أن توجد تغييرات أخرى في مقام الصوت والتي تحقق الهدف نفسه فذلك ببساطة لا يخطر على بال أحد. في هذا النوع من الأشياء يبدو أنه أمر "طبيعي" أن البدائل ستكون محدودة جداً.

الوجدان التقني

الوجدان التقني يتميّز بكبت المشاعر حيث أنها تميل إلى التدخل

بالأداء الفعّال. إن أحد الاختلافات الكبيرة بين الملاكم المحترف الحقيقي والملاكم الهاوي هو أن الهاوي من المرجح أن يغضب، بينما المحترف يفتخر بنفسه في الاحتفاظ بيقظته وأعصابه تحت السيطرة. إن طريقة أداء العالِم لعمله معروفة تماماً بحيث أننا لا نحتاج للكلام عنها. بشكل عام، يصبح الشخص التقني متورطاً عاطفياً فقط عندما لا تُتبَع القواعد التقنية للعبة. وبمجرد وضع أساس تقني، يبدو من المهم الالتزام به.

ولأنه واضح جداً، فإن الوجدان التقني في مجتمعنا أصبح مترافقاً مع السلطة والقانون ونظم أخرى تجسد المواقف المتصلبة. فالأم التي تُستَفز من طفل يمكن أن تجد نفسها تستخدم اسم الطفل الكامل وهي تناديه للتوبيخ. ويعرف الطفل حالاً أنه تخطى الحد وأن الأم جادّة لأنها تصبح تقنية. إن الرسمي والتقني يختلطان دائماً، فالرسمي مؤيد بدعامات تقنية. والتقني هو ما يلجأ إليه الناس عندما يفشل كل شيء آخر.

إن مسألة الانحراف عن المعايير بكاملها محفوفة بالتعقيدات. على سبيل المثال، لا يعرف الأطفال أبداً أين هو الحد إلى أن يتخطوه. إن الأسلوب الذي يوبَخوا به يزوِّد المادة اللاصقة التي تثبت هذه الأنظمة ببعضها في مراحل قادمة من حياتهم. والأطفال لا يعرفون حتى يكتشفوا بالمحاولة والخطأ إذا كانوا انتهكوا المعيار الرسمي أوغير الرسمي أو التقني. وهناك اختلافات كبيرة فيما يتعلق بالمعايير من ثقافة إلى أخرى. فما هو أمر رسمي في وقت ما داخل حدود ثقافة متنوعة مثل ثقافتنا يمكن

أن يصبح غير رسمي فيما بعد، وما يُرى بشكل تقني من قِبل مجموعة ما يمكن أن يكون غير رسمي في مجموعة أخرى. وبالرجوع إلى الأطفال، فيبدو مهماً أن يعرفوا أن هناك معايير وحدوداً لا يمكنهم تخطيها بالرغم من أن التفاوت سمح لهم ذلك. كما يحتاجون أن يعرفوا أن هناك بعض المعايير لا تتغيَّر نسبياً ويمكن الاعتماد عليها على مدى الحياة. من وجهة نظر نظرية فإن العلاقة بين الرسمي وغير الرسمي والتقني بالنسبة للمعايير تصبح ذات أهمية قصوى.

مواقف رسمية تجاه التغيير

تتميز الأنظمة الرسمية بالتشبث العنيد جداً، إنها ميزة تُشبع حاجة ماسّة في المجتمعات والأفراد. وبدون هذا التماسك العنيد في الحياة، فإن الحياة نفسها لن تكون ممكنة. في الأصل، وعند الحيوانات الفقارية الأولى، فإن الغريزة ونماذج السلوك الفطري هي التي نهضت بهذا الثبات. وبمجيء الاكتساب كتقنية تكيُّف إضافية فإن دور الغريزة بدأ يتلاشى إلى أن صار يلعب عند الإنسان دوراً غير ذي أهمية في الحياة. إنها الثقافة الرسمية التي تقوم بالعمل بشكل مشابه إلى حد بعيد للغريزة. وكل شخص يمكنه أن يعتمد عليها وكأنها غريزية تقريباً. إنها الأساس الذي تنبثق منه بقية الثقافة والذي تُبنى حوله.

إن الرسمي يتغيّر ببطء، تقريباً بشكل غير مُدرك حسياً، إلا تحت ظروف خاصة. كما أنه مقاوم جداً لأي تغيير قسري من الخارج ـ هذه

نقطة معروفة جيداً لكثير من رجالنا التقنيين الذين يعملون في دول أجنبية. ونظراً لأن النظام الرسمي نادراً ما يعرف على أنه كذلك، فإن الأمريكي في الخارج يكون لديه غالباً انطباع بأن الأنظمة الرسمية للشعوب الأخرى هي غير ضرورية أو لا أخلاقية أو مجنونة أو متخلفة، أو أنها بقايا لقيمة ما بالية تخلّت عنها أمريكا منذ زمن مضى. يخبرنا (عفيف طنوس)، وهو عالم اجتماع لبناني أمريكي، عن حالة للقرويين العرب الذين رفضوا أن يتركوا الدخلاء ينظفّون حفرة ماء ملوثة بجرثومة التيفوئيد وتركيب مضخة. قد يتساءل القارئ ما الذي كان يخرق المعايير الرسمية للقرويين العرب في الحصول على مخزون من ماء نظيف جيد. وبقدر ما يبدو الأمر غريباً بالنسبة لنا، فإن القرويين العرب يحبون الماء الذي يشربونه. إن له طعماً جيداً قوياً حصل عليه من الجِمال. ويُعتقَد أن المياه بالنسبة لهم مقدَّسة تقريباً. فإذا كان رجال قرية مفترضة أقوياء أو شجعاناً أو عندهم خصوبة أو أذكياء فذلك كله بسبب الماء الذي يشربونه. في بعض أجزاء العالم العربي يُعتبر من يشرب الماء النظيف مخنثاً. ولا يرى القرويون علاقة بين المرض والماء الذي يجعل رجالهم أقوياء. يموت الأطفال الرضّع لأنها إرادة الله، ومن هم حتى يحاولوا التأثير على إرادة الله؟ هذه القصة تبرز ضرورة فهم وقبول الأنظمة الرسمية للشعوب الأخرى أولاً لكي تعمل بشكل مؤثر داخلهم.

يقدِّم كتاب (أليكساندر ليتون) "*سيطرة على الرجال*" مثالاً قوياً على

كيف أن إساءة فهم الأنظمة الرسمية للقيادة عطلت برنامجاً حكومياً مع أسرى الحرب اليابانيين خلال الحرب. وبمجرد أن تم تصحيح ذلك، استُخدمَت هذه الأنظمة نفسها بشكل ناجح تماماً. كان الخطأ الأمريكي اختيار رؤوساء عمال بناء وفقاً لمؤهلاتهم ـ خطأ طبيعياً، يأخذ بالاعتبار التشديد الكبير الذي نضعه على الكفاءة الفنية. إن اليابانيين، الذين عانوا من الإهانة وفقدان ممتلكاتهم والسجن القسري بدون أن يفقدوا صبرهم، قاموا في النهاية بإضراب عندما حدث هذا. لقد انتُهكَت حرماتهم. فقد تجاهل الأمريكيون تماماً التسلسل الهرمي الاجتماعي الذي له أهمية بارزة جداً في المجتمع الياباني. يكمن الحل لهذه المشكلة في السماح لأسرى الحرب أن يختاروا قادتهم من بين أولئك الذين كان لهم مرتبة مناسبة. إن كون هؤلاء الرجال الكبار المحترمين لا يتكلمون الإنجليزية ويعرفون أقل عن الهندسة كان أمراً قليل الأهمية. فقد اختاروا في الحال مهندسين شباباً كمستشاريهم.

إنني مدين لـ (جون أفينز) ـ ابن (ميبل دودج لوجان) ومشرف سابق لوكالة القرية الشمالية (نورذن بويبلو ايجنسي) ـ والذي قضى عدة سنوات حين كان شاباً في (تاوس)، للمثال المُختار بعناية للنموذج الرسمي. إن الـ (تاوس) شعب حر يحمي ثقافته بحرص من الرجل الأبيض. حتى أنهم يجعلون من كيف يقولون "شكراً لك" سراً في (تاوس). هذا يجعل الأمر صعباً على الممثلين الحكوميين المعينين للعمل معهم. وفقاً لـ (أفينز)،

كان هناك بعض الصعوبة في إيجاد موظف للتوسيع الزراعي يمكن أن يعمل مع الـ (تاوس). في النهاية تم اختيار شاب أحب الـ (تاوس) وكان حريصاً على الاقتراب منهم ببطء. كل شيء سار على ما يرام، وبدا أنه كان بالفعل الشخص المناسب لهذا العمل الحساس. عندما حلّ الربيع، قام الخبير الزراعي الشاب بزيارة (أفينز) في (ألبوكيركي) وكان مكتئباً. سأل (أفينز): "ما الأمر؟ تبدو مكتئباً." أجاب الزائر: "في الحقيقة أنا كذلك؟ لا أعرف ما المشكلة. إن الهنود لم يعودوا يحبونني. ولن يفعلوا أياً من الأشياء التي أطلبها منهم." وعد (أفينز) بعمل ما بوسعه لاكتشاف السبب. في المرة التالية كان هناك اجتماع بلدية في (تاوس)، فأخذ أحد الهنود الأكبر سناً جانباً وسأله ماذا كانت المشكلة بين القبيلة والرجل الشاب. حدّق صديقه فيه وقال: "(جون)، إنه فقط لا يعرف أشياء معينة! أنت تعرف يا (جون) ـ فكر..."

فهم (أفينز) فجأة. ففي الربيع يعتقد (تاوس) أن أمّنا الأرض حامل. ولكي يحموا سطح الأرض فإنهم لا يقودون عرباتهم إلى المدينة، بل ينتزعون الحدوات عن حوافر خيولهم ويرفضون هم أنفسهم أن يلبسوا نعالاً قاسية. لقد كان مُزارعنا يحاول أن ينشئ برنامجاً لحراثة ربيع مبكرة!

غالباً يكون للصراع بين الأنظمة الرسمية في ثقافات مختلفة نتيجة مأساوية. خلال فتح إسبانيا للعالم الجديد، كان أحد الأسباب التي جعلت الإسبان قادرين على الاستيلاء على مناطق شاسعة هو أن أنظمتهم الرسمية

كانت مختلفة بشكل جذري عن النظام الهندي. كان الإسبان يحاربون ليقتلوا؛ وكان هنود (آزتك) يحاربون ليأخذوا أسرى. كان هنود الـ (الأزتك)، مثل هنود (بلينز) أو السهول إلى الشمال، مرتبكين في التعامل مع عدو يقتُل في المعركة. ولأن هذا كان نظاماً رسمياً فإن هنود (آزتك) كانوا غير قادرين على تغييره في الوقت المناسب لكي ينقذوا أنفسهم أو مجتمعهم. وبشكل مشابه كان بعض أسرى الحرب الأميركيين خلال الحرب العالمية الثانية غير قادرين على التكيُّف مع اختلاف الأساليب لمعتقِليهم اليابانيين وبالتالي أن يجنبوا أنفسهم تعذيباً غير ضروري. كانت نظرة اليابانيين الرسمية للحياة هي أنه يجب أن يكون هناك نظام في العلاقات بين الرجال وهذا النظام يتم التعبير عنه من قِبل أشخاص يأخذون مراكزهم ويعرضونها في تسلسل هرمي. فالأشخاص الأعلى مرتبة تتم مخاطبتهم بأساليب معينة مهذبة؛ ويَظهر الاحترام عن طريق الإنحناء كثيراً إلى الأسفل مع إبقاء الجزء الأعلى من الجسم ثابتاً. وشعر الأمريكيون الذين اعتُقِلوا من قِبل اليابانيين أن اضطرارهم للإنحناء كان انتهاكاً لكرامتهم. واعتبر اليابانيون أن هذا أظهر ازدراءً كبيراً جداً وأنه هدد الأساسات الحقيقية للحياة.

يقدِّم النظام *الرسمي* أسلوباً رحباً يمكن للأفراد أن يملأوا التفاصيل لأنفسهم داخل حدوده. فإذا بقوا داخل الحدود فإن الحياة تسير بسلاسة. وإذا لم يبقوا داخل الحدود فإنهم يجدون أنفسهم في مشكلة. على سبيل

المثال، إذا كان هناك رجلان لديهما موعد عمل في منتصف أو آخر النهار، وتأخر أحدهما خمس دقائق، فإنه لا توجد صعوبة جديّة. فاعتذار بسيط يكفي عادة. بالرغم من أن النظام الرسمي في ثقافتنا ينص على أن الشخص يجب أن يكون دقيقاً في مواعيده، فهو يوفر قدراً معيناً من التفاوت. يمكن أن يُخرق المعيار بطريقتين رئيستين: أولاً، بالذهاب بعيداً وراء الحد المسموح به بحيث يكون واضحاً أنك تتحدى العُرف؛ ثانياً، بتجاهل التفاوت غير الرسمي المسموح به وبأن تصبح تقنياً جداً، وبطلب اعتذار إذا تأخر أحدهم فقط لعشرين ثانية.

مواقف غير رسمية تجاه التغيير

إن إساءة التعامل مع النظام غير الرسمي يمكن أن يؤدي غالباً إلى صعوبات جديّة معرّضة لأن تتفاقم وتصبح أسوأ نظراً لأن المشاركين في وضع غير رسمي غير واعين تماماً لما يجري. إنهم فقط يعرفون أنه تحت مجموعة محددة من القوانين غير المصرح بها يمكنهم التصرّف بطريقة معينة والاعتماد على الأشخاص الآخرين لكي يستجيبوا بشكل ملائم. هذا التوقُّع غير الرسمي هو غالباً محبط عندما يوجد صراع بين نمطين داخل محيط ثقافتنا أو في الوضع المألوف أكثر في حالة تعدد الثقافات.

مثال على صراع ثقافات مرهق جداً حدث في الغرب منذ عدة سنوات مضت. نظراً لأن أحداً لم يكن مدركاً لما كان يجري، فإن النتيجة كانت وضعاً مأساوياً بشكل يبعث على السخرية والذي استمر لحوالي

عشرين عاماً. كانت الثقافتان المتورطتان هما الإسبانية والأمريكية، وكانت الأزمة الطويلة في الواقع هي اختلاف النظرة التي تتخذها كل مجموعة عن القانون والحكومة والعائلة. فقد طوّر إسبان أمريكا اللاتينية مؤسسة العائلة إلى حجم واستقرار ونفوذ غير قابلة للتصديق بالنسبة لنا. من ناحية أخرى، لم تكن حكوماتهم تشغل مركزاً مهماً في نُظم الأشياء كما كانت حكوماتنا تشغله. فإذا كان شيء ما يجب أن يحدث أو إذا كان هناك شيء مرغوب به في أمريكا اللاتينية، فإن العائلات تكون أكثر ملاءمة في معالجتها للمشكلة من الحكومة. هذا العُرف غير الرسمي مترافق مع مفهوم مختلف للقانون عن مفهومنا. فالقانون في أمريكا اللاتينية يُنفذ تقنياً (حسب القوانين)، ولكنه يحدث عن طريق توسُّط العلاقات العائلية. بالنسبة لنا هيئات القضاء، وبالذات الموظفون المنفذون، ليس من المفترَض أن يكونوا فطنين ويجب أن يكونوا موجهين بالأنظمة الرسمية للثقافة. هذا يعني أن القانون لا يُتوقَع أبداً أن يكون صارماً أكثر من باقي الثقافة. فإذا مارس جوراً مفرطاً على الناس، عندئذ يجب أن يتم تغييره. عندما يصادف الأمريكي قانوناً يعتبره جائراً أو غير منطقي، فاحتمالات انتهاكه له تكون أكبر بكثير مما لو كان يعتبره واقعياً ومنطقياً.

إن النقطة التي تصادمت عندها الأساليب الإسبانية والأمريكية في البلدة الغربية كانت حول فرض حدود السرعة بالقوة. لعدة سنوات كان للبلدة ـ التي كانت إسبانية في سكانها وحكوماتها ـ رجل شرطة على

الدراجة النارية يُطلق عليه اسم (سانشو)، منحدر من أصل ثقافي إسباني. كان عمله هو فرض حد سرعة يصل إلى 15 ميلاً في الساعة والذي امتد إلى الضواحي وشمل امتداداً لطريقين رئيسين قوميين. كان (سانشو) مجتهداً ودائم المجاملة في عمله لدرجة أنه كان معروفاً لجميع سكان المدينة وكذلك *للأمريكانوس* الذين كانوا يقيمون في التجمعات المحيطة. وكونه كان يعمل وفقاً للنص القانوني، كان يعتقل الأشخاص الذين يقودون على سرعة 16 ميلاً في الساعة ـ مخالفة كان يُعاقب عليها بغرامة تعادل 12.75 دولاراً، وهو مبلغ كبير من المال خلال سنوات الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات.

كان للإسبان الأمريكان الذين كانوا يحضرون أمام المحكمة عادة إبن عم أو عم يجلس على مقعد القضاء وكانوا سرعان ما يبرأون، أما *الأمريكانوس* الذين نادراً ما كانوا محظوظين هكذا، فقد أصبحوا غاضبين من الوضع. وفي نهاية المطاف، بدأوا بتدبير مكيدة ضد (سانشو). ذات مرة تمت قيادته خارج المدينة على سرعة 60 ميلاً في الساعة ثم تُرك يخرج عن الطريق. كُسرت رجلاه بشكل خطر لدرجة أنه لم يعد يتمكن من ركوب دراجة نارية. وعندما خرج من المستشفى، اشترى رودستر[1] سريعاً وعاد إلى العمل. ولكن منذ ذلك الحين ولمدة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة تالية، أصبحت الحياة بالنسبة لـ (سانشو) سلسلة من

---

(1) رودستر : سيارة مكشوفة ذات مقعد لشخصين.

"الحوادث". فلم يعد يثق بأحد بعد ذلك واعتقل المسرعين بمسدس أشهرُه في وجوههم. حتى ذلك لم يمنعه من أن يتعرض للضرب المبرح بين الفينة والأخرى من قِبل الآنجلوس (الإنجليز) الذين كانوا يستاؤون من اعتقالهم لقيادتهم على سرعة 16 ميلاً في الساعة والذين كان عليهم أن يدفعوا الغرامات المترتبة عليهم. ما لم يفهمه الأمريكيون ــ ولهذا يمكن أن يُغفر لهم بسهولة ــ هو أن الثقافتين تعالجان مسألة السلوك نفسها بشكل مختلف تماماً وتشيِّدان النظام غير الرسمي في أجزاء مختلفة من أنظمتهما الخصوصية. تقنياً، فإن القانون كان قانوناً بالنسبة للإسبان، و16 ميلاً في الساعة كان مخالفة للقانون. وبعد أن يتم اعتقالهم فقط كانوا ينفذون النظام غير الرسمي بالتحوّل إلى نظام الأقارب والمجهِّز لكي يتعامل مع الحكومة الضعيفة. من ناحية أخرى، يسمح الأمريكيون لأنفسهم قدراً معيناً من التفاوت في تفسيرهم لما تتكون منه المخالفة، ولكنهم يميلون لأن يكونوا خشنين (وتقنيين) بمجرد أن تبدأ آلية القانون بالعمل. إن فكرة إلزام الناس بسرعة 15 ميلاً في الساعة بالضبط ينتهك كلاً من موقفنا تجاه القوانين (يجب أن يكونوا منطقيين) وفهمنا للتفاوت غيرالرسمي. تكمن مشكلة (سانشو) في أنه لم يحصل أبداً على نموذج ليريه كيف يتعامل مع الأنجلوس. إجمالاً، لم يطوّر الأمريكيون نظاماً لجعل القانون سهلاً بحيث يمكن التعايش معه، كما فعل الأمريكيون اللاتينيون. ينص قانوننا الرسمي الخاص على أن استخدام النفوذ لإظهار تحيّز ومحسوبية هو أمر يستحق الشجب ويكون هذا الشجب مضاعفاً تجاه الموظفين العامين. إننا

نسمح بقليل من التفاوت هنا، على أساس أنه مالم يكن الشخص إما غبياً أو مجرماً، فإنه ما كان سيخرق القانون أصلاً. قد تُنتهك القوانين في الولايات المتحدة ولكن يوجد تردد كبير في التلاعب بالآلية القانونية بمجرد أن أخذت مجراها. وكوننا نتاج ثقافة أمريكية فإننا عُرضة لأن نعاني من أوقات صعبة في الخارج عندما تفتقر القوانين لتفاوت غير رسمي في تنفيذها. إننا لا نرى طرقاً بديلة لجعلها ملائمة للتعايش معها. ونجد أنه من الصعب أن نكتشف تلك النقاط حيث يوجد تفاوت، وعندما نجد تفاوتاً فإننا نتردد في استخدام ما نكتشفه لأنه يخرق أنظمتنا الرسمية الخاصة. إن ما يحبه الأمريكيون حقاً ويرفضون التنازل بشأنه عادة هو أن يغيّر الآخرون أنظمتهم بحيث تكون "منطقية" كما هي أنظمتنا.

يوجد، بالطبع، قليل من غير الرسمية في كل شيء. والشيء المربك للأشخاص الذين يسافرون أو يعملون في الخارج هو أنه لا توجد طريقة لمعرفة أين بالضبط تم إنشاء التفاوت في وضع ما. ولجعل ذلك أصعب بشكل مضاعف، فإن السكان المحليين لا يمكنهم أن يصفوا القوانين أيضاً. علاوة على ذلك، فإن النظام الرسمي مع قليل من المرونة فيه ذات مرة، فإنه ربما يُظهر قدْراً كبيراً من المرونة بعد بضعة سنوات. إن مواقف العرب تجاه النساء، على سبيل المثال، تتغير بسرعة كبيرة جداً. وما كان راسخاً لقرون لم يعد يصمد.

مواقف تقنية تجاه التغيير

عندما يُهيأ الفنيون الأمريكيون للعمل في الخارج، فإنه يجب أن يتم تحذيرهم لتجنُب إدخال التغييرات التي تنتهك المعايير الرسمية. فقد يسأل الفني: "إذن في أي مجال يمكنني محاولة مساعدة هؤلاء الناس ليساعدوا أنفسهم وفي الوقت نفسه لا أناقض الأنظمة الرسمية وغيرالرسمية؟ أين يمكن أن يكون لدي سيطرة على ما يجري؟" الجواب بالطبع هو في النظام التقني. هنا يمكن للمرء أن يُقدِّم تغييرات بسهولة كبيرة دون انتهاك معايير النظامين الآخرين. وتماماً كما أن الولايات المتحدة لا تعاني من تعطُّل في سير التقدم المستمر في أشياء مثل تصميم محركات السيارات والوقود والنفط والمعادن والمضادات الحيوية والأدوية، فإنه يمكن إحداث تغييرات مشابهة في دول لم تتقدَّم إلى الحد الذي تقدّمنا به تكنولوجياً. أياً تكن التغييرات المُقدَّمة يجب أن تُنفَّذ في تلك الأجزاء من حياة السكان المحليين والتي يتم *التعامل معها تقنياً* وإلا يجب أن تُقدَّم كأنظمة *جديدة تماماً وكاملة بحد ذاتها*. على سبيل المثال، في عدة أجزاء من أمريكا اللاتينية تم تقديم السفر جواً قبل أن يكون قد تم الوصول إلى مرحلة العربة والسيارة. وكان بناء مطارات أسهل من بناء شبكة طرق. وتُطبَق القفزات التكنولوجية نفسها في إفريقيا.

إن التغييرات التقنية تكون عادة صغيرة ولها علاقة بتفاصيل عملية ما. فيمكنك تغيير عيار أو حركة سيارة ما دون تغيير التصميم الكلي.

يمكنك تغيير درجة ميل مروحة الدفع ليتماشى مع ظروف معينة، ويمكنك تغيير مواد بناء منزل دون انتهاك المعايير الرسمية التي تملي التصميم الكلي، ويمكنك أن تضع رأساً معدنياً على محراث خشبي دون خرق المعايير الرسمية، ويمكنك عمل مبيدات حشرية بشكل بودرة أو سائل لتتماشى مع العُرف المحلي. وبتغيير التوكيد من "جعل التربة أكثر إنتاجية" إلى "تغذية" التربة بالسماد، فيمكن جعل الزراعة الحديثة أكثر قبولاً بالنسبة للأندونيسيين، الذين بسبب معتقداتهم الدينية الرسمية يحاولون أن يتجنبوا السيطرة على الطبيعة.

من التغييرات الجديرة بالملاحظة والتي خرجت إلى دائرة الضوء في السنوات الأخيرة هي تلك التي وصفتها (مارغريت ميد) في تقريرها عن الشعب الفريد لـ (مانوس) في منطقة جنوبي المحيط الهادي. إن سكان جزيرة (مانوس) يعالجون ثقافتهم تقنياً. يبدو أنهم فعلوا ذلك منذ وقت طويل بحيث أنه لا يوجد دليل يذكر على أنهم تمكّنوا من قبول أي موقف آخر بدون إيقاع فوضى في حياتهم بشكل جدّي. إنهم يختبرون ثقافتهم بوعي بتجزأتها ومن ثم بإعادة تجميعها مع بعضها مرة ثانية ليروا كيف تعمل بطرق مختلفة. وبهذه الميول كان أمراً حتمياً أن يتم توفير أنظمة سلوك جديدة وطرق جديدة لتنظيم المجتمع نتيجة الاتصال القريب مع الأمريكيين خلال الحرب. وهذا هو ما حدث. يبدو أن الـ (مانوس) قد قاموا بفعل الشيء الذي لا يُصدق بالجلوس والقول لأنفسهم: "الآن لننظم

مجتمعاً جديداً يكون أكثر قدرة على البقاء على صلة بالعالم الخارجي."
إنهم لم ينتظروا أن يباغتهم التغيير تدريجياً، أو ينساقوا بأعداد قليلة ويخسروا أنفسهم بين الرجال البيض. لقد جلسوا وصمموا مجتمعاً جديداً كلياً. والشيء غير الواضح بالنظر إلى الموقف التقني تجاه الحياة، هو *أين هو الجوهر الرسمي* وما هو الشكل الذي يتخذه في الـ (مانوس). أحد الآراء الذي يمكن تبنيه بشأن ما حدث في (مانوس) هو أن الأشياء التي تم تغييرها مثّلت هامشاً سطحياً نسبياً حول مركز أكثر ثباتاً واستمراراً، تماماً مثل صانعة فخار من (بويبلو) التي قد تُحدث اختلافات في التصاميم على الآنية التي تستخدمها ولكن من غير المحتمل أن تغيّر أسلوب بناء الجدران أو الصقل أو خبز الخزف بالنار.

(ماريا)، صانعة فخار مشهورة من نيومكسيكو، تزودنا بمثال رائع على كيف تحدث تغييرات صغيرة وإلى المدى الكبير الذي يمكن أن تصل تأثيراتها. إنها تمارس فناً مقتبساً من المكسيك بشكل غير مباشر وقد تم نقله من جيل إلى آخر من قِبل نساء (بويبلو) لحوالي ألف وثلاثمائة إلى ألف وخمسمائة عام.

كانت نساء (بويبلو) معروفات دائماً بقاومة التغيير في صناعتهن الفخارية. وقبل فترة وجيزة من الحرب العالمية الأولى بدأت صناعتهن الفخارية تتدهور بشكل ملحوظ، وهذه إشارة على أن حياة (بويبلو) كانت تفقد بعض قواها التكاملية. وحيث أن الهنود كانوا ينحدرون أكثر وأكثر

على السلم الاجتماعي الإقتصادي بالمقارنة مع البيْض، فقد بدأوا بفقدان احترامهم لذاتهم. ولا يعلم أحد ماذا كان سيحدث لولا ثلاث شخصيات رئيسة: (ماريا) وزوجها (جوليان)، كلاهما فنانان ماهران، و(كينيث تشابمان)، عالم الإنسان الذي رأى ماذا كان يحدث وكرّس نفسه لإحياء الحرف اليدوية لـ (بويبلو). ساعد (جوليان) (ماريا) في صنع الفخار بالقيام بتلوين التصاميم لها بين الفينة والأخرى. هذا كان أحد تلك التغييرات التقنية الصغيرة التي تؤدي إلى أشياء أكبر. كانت (ماريا) أفضل صانعة خزف في سان إلديفونسو. فالاهتمام والانتباه للتفاصيل في عملها كانا واضحين حتى لغير الخبراء. وكانت بحسب معايير الـ (بويبلو) فردانية[1]. وبخلاف العديد من الآخرين، لم يتدهور عملها ولذلك أصبحت أكثر شعبية. اختار (تشابمان) عملها لترويجه في عالم البيْض.

ذات مرة وبالصدفة تحولت آنيتان من أواني (ماريا) إلى اللون الأسود بدلاً من الأحمر. والآنية السوداء تماماً والتي لم تُصنع بإتقان كان شيئاً شنيعاً. والآنية السوداء تماماً والتي صُنعَت بشكل جميل حقاً تُمكِّن المرء من تقدير بساطة اللون الأسود والبراعة الفنية. وبالرغم من ذلك فإن شعب سان إلديفونسو لم يكن في عالمهم مكان لآنية سوداء تماماً. من ناحية أخرى، لم يكن عند البيْض تقليد يتعلّق بصناعة الخزف، ولا تصوّر مسبق بأن الآنية يجب أن تكون بيضاء أو سوداء أو حمراء. كانوا

(1) فردانية: كان نهجها في عملها مستقلاً إلى حد كبير.

يعتقدون أنها يجب أن تكون جيدة الصنع ومصقولة ومتناسقة. وذات مرة عندما نفدت الأواني الحمراء من عند (ماريا) و(جوليان) قاما بالبيع بواسطة صاحب متجر في (سانتا في)، وأعطياه الآنيتين ذاتي اللون الأسود "التالفتين". وقبل أن يصل بهما الرجل إلى متجرة كان قد باعهما.

كان من السهل جداً على الهنود أن يصنعوا المزيد من الأواني السوداء، نظراً لأنهم كانوا يعرفون جيداً الخطأ الذي يتسبب في إنتاجها. وبمجرد أن اكتشفت (ماريا) أن آنيتها أصبحت أكثر شعبية مما كانت عليه سابقاً، علّمت أخواتها كيف يسيطرن على هذا الحادث ليُرضي ذوق البِيْض. في نهاية المطاف، كانت باقي نساء (بويبلو) يحذون حذوها. وجلبت شهرة (ماريا) المزيد من السياح والمزيد من الزبائن حيث استفاد كل شخص. واليوم ترتبط سان إلديفونسو بالخزف الأسود بدلاً من الخزف الأحمر. التحوّل من التغيُّر غير الرسمي، وهو الآنية السوداء التي شكّلت سبباً، إلى التغيُّر التقني في صناعة الخزف كان له نتائج مذهلة أخرى. أولها أنه حسّن النوعية لخزفيات (بويبلو) ككل.

ثم أدى هذا التغيير إلى تجريب إضافي في تصاميم الخزفيات واللمسات الأخيرة، وفتح الطريق للإنحراف عن النماذج القديمة التي قادت حتى إلى صناعة الفضيات، والمرتبطة تقليدياً مع (النافاهو) و (الزُوني).

هذا المثال يلقي الضوء على عدد من الأشياء حول التغييرات التقنية:

إنها دائماً محددة. في هذه الحالة يقوم الشخص بالاختيار لنوع خبز

الخزف بالنار، وهذه خطوة واحدة من بين حوالي مائة خطوة يتطلبها صنع قِدر فخارية. وتتم بسهولة ملاحظة التغييرات التقنية والحديث عنها ونقلها إلى الآخرين. إنها تفتح الطريق لتغييرات إضافية وغالباً لتحسينات في نوعية المنتج. إنها تتحدى دائماً المعايير الرسمية القديمة وهي ذات تأثيرات بعيدة المدى. بجمعها مع بعضها فإنها تشكّل القاعدة لنظام رسمي جديد بمجرد أن تصبح موطدة ومقبولة إلى حد بعيد.

إن نظامنا التقويمي هو مثال لما كان ذات مرة تجديداً تقنياً، ونتيجة للعديد جداً من التغييرات التقنية الصغيرة المبنية داخل نموذج أصبح مقبولاً إلى حد كبير، مقبولاً إلى درجة أن فترات مثل الساعة والأسبوع تعتبر تقسيمات "طبيعية" للوقت. في الواقع، لقد كان نظاماً رسمياً جداً إلى درجة أنه عندما تم تحديث التقويم في إنجلترا عام 1752 ليتكيف مع نص التقويم الغريجوري، انتشرت أعمال الشغب في الشوارع وصاح الناس: "أعيدوا لنا أيامنا الأربعة عشر."

حتى هذه النقطة كنا ننظر إلى ثلاثية رسمي - غير رسمي - تقني على أنها نظام ثابت وساكن. في الحقيقة أن هذه الحالات مرنة وتنتقل من حالة إلى الأخرى ـ فالنشاط الرسمي يميل إلى أن يصبح غير رسمي، وغير الرسمي يصبح تقنياً، وغالباً سيتبنى النظام التقني نظاماً رسمياً جديداً. في القسم التالي أقترح شيئاً عن العمليات المتأصلة التي تحدث بواسطتها هذه التغييرات.

عملية التغيير

صرّح (ثيودوسيوس دوبزانسكي)، عالم الوراثة البشرية العظيم، ذات مرة أن الحياة لم تكن نتيجة لتخطيط ولا لمحض صدفة، ولكن نتيجة لتفاعل ديناميكي للمادة الحية مع نفسها. كان يقصد أن الحياة، وفي بيئة متغيرة، تضع جهوداً على الكائن الحي ليتكيف بحيث أن الكائن الحي ينقرض كنوع، إذا لم يتكيّف بشكل مستمر. إن عملية التكيّف هذه تؤدي إلى إنتاج العديد من الأشكال المعقدة التي تقيم على هذه الأرض. إن الثقافات المختلفة مشابهة للأنواع المختلفة بمعنى أن بعضاً منها يبقى على قيد الحياة في حين أن بعضها الآخر يفنى. بعضها أكثر تكيفاً من الآخرين. ولذلك فإن دراسة التغيُّر هي دراسة البقاء. إنها أكثر من اهتمام أكاديمي لفهم كيف توجد الأنظمة الرسمية وغير الرسمية والتقنية في علاقة ذات تغيُّر مستمر. إن النظرية التي تتناول طبيعة تلك العلاقات هي نظرية التغيُّر.

وبسبب الطبيعة التقنية والتعقيد لكثير من البيانات المتوفرة، فإنني أضمّن وصفاً واحداً فقط لنموذج تغيّر الثقافة. (وثلاثة آخرين سيردون في ملحق III). إن صلاحيته لكل زمان ستُدرَك مباشرة، ويتضمن فيه عناصر أساسية توضّح المبادئ التي يعمل بها تغيُّر الثقافة. يجب أن يكون واضحاً بالنسبة للقارئ أن معظم المادة المتضمنة تحت عناوين أخرى توضّح أيضاً كيف يحدث التغيير.

إن السمة البارزة عادة في تغيُّر ثقافة ما هي فكرة أو تطبيق سيواصل

تقدمه بتصميم مقاوِماً جميع الجهود لتغيّره وبعد ذلك فجأة وبدون إشعار سينهار. الحالة التالية، والمألوفة لكثير من الأمريكيين، هي توضيح مؤلم لهذه الظاهرة.

في أي مرحلة مفترضة، تبدو الثقافة مكونة من أنماط سلوك رسمية تشكّل نواة يوجد حولها تكيّفات غير رسمية معينة. النواة معززة كذلك بسلسلة من الدعامات التقنية. تم تقديم حالة كلاسيكية ذات مرة خلال مناقشة كنت أجريها مع صف من شابات كليّة. كن مهتمات بجديّة بدورهن المستقبلي في الحياة. وبالطبع كان الموضوع الذي يشغل بالهن جداً هو مسألة علاقاتهن مع الرجال. في مناقشة لهذا الموضوع، قامت إحدى الشابات بتلخيص القضية ببلاغة وفي الوقت نفسه أوضحت المبدأ الذي ذكر أعلاه.

كانت المشكلة التي طرحتها هي كما يلي: لقد منحتها عائلتها، وبالذات والدتها، سلسلة من المعتقدات الرسمية التي شددت على أهمية العفّة قبل الزواج. لم ترغب الفتاة في انتهاك هذه المعتقدات، ومع ذلك فهذا ما وصلت إليه، كانت تتجول في سيارات في الليل مع الشبان وتستمتع وتذهب إلى حفلات منزلية بدون مرافقة. في الواقع أن التعزيزات التقليدية (أو القيود) التي قامت عليها العفة الجنسية منذ وقت طويل، تم قطعها. علاوة على ذلك، كان عليها ضغط مستمر لتلقي بفكرة العفة قبل الزواج بعيداً. وسألت كيف كان يمكن أن تحافظ على وضعها في غياب

الدعم؟ كيف كان من الممكن بالنسبة لها أن تحمي نواة النظام الرسمي في الوقت الذي تم إقصاء جميع الدعامات التقنية الهامة؟

بالتفكير بالأمر لاحقاً يمكننا أن نضحك على الألف وواحد من الدعامات الصغيرة التي جعلت احتفاظ المرأة بأخلاقها أمراً سهلاً بالنسبة لها. ولكن إلى أي مدى كانت تلك الدعامات مفيدة. أتذكر سماعي لسيدة كبيرة في السن من منطقة نيوإنجلند، انتقدت زوجة إبنها على الطريقة التي كانت تتصرف بها بجسدها، وخاصة برجليها. فعتابها كان إلى حد ما شيئاً مثل هذا: "عزيزتي، في هذه العائلة لا تصالب المرأة رجليها أبداً. فهي تجلس على كرسيها متقدمة إلى الأمام ورأسها منتصب ويداها مطويتان على حجرها وركبتاها مضمومتان. وفي المناسبات غير الرسمية، في منزلها وفي حضور والدها أو إخوتها، يمكنها أن تصالب كاحليها." اليوم، هذا النوع من الكلام يبدو فكاهياً لغرابته.

كان من المألوف أن توجد مفردات منفصلة للرجال وللنساء. كانت يوجد كلمات لا يفترض أن تسمعها النساء أبداً. كانت هناك أوضاع وملابس مختلفة للجنسين، وكانت هناك أماكن محرّمة على النساء ــ أماكن حيث كان من الممكن أن لا تتلقى النساء فيها معاملة محترمة. الملابس كانت تغطي كل شيء باستثناء الوجه. ووجود مرافقة وتحديد الأوقات والأماكن التي يمكن أن يشاهدن فيها مع رجل كانت أموراً إجبارية. كل ذلك كان موجوداً ويتذكره عدد كبير من الناس الذين هم على قيد الحياة اليوم.

من ناحية أخرى، فإن الدعامات التقنية في أمريكا اللاتينية والتي تؤيد الفضيلة الرسمية ماتزال أكثر صرامة. بينما يتشبث الأمريكيون بالرأي الذي يقول بأن التحكُّم يوجد داخل الشخص وليس في الوضع، تتخذ الدول اللاتينية إلى الجنوب فرضية مختلفة. فيُعتقَد أن الرجل لا يمكنه أن يقاوم دوافع شهوته الجنسية عند مواجهة إمرأة *إذا* كان الوضع من النوع الذي يمكّنه من النجاح معها. وتصوَّرُ النساء على أنهن مخلوقات ضعيفة وسهلة الإنقياد ومن غير المحتمل أن يتمكّنَّ من مقاومة أي رجل. لهذا كان يجب السيطرة على الوضع بكامل قوة التقاليد.

من الواضح أن أي تغيير في التصرفات الجنسية في أمريكا الجنوبية سيكون من الواجب أن يتوقف على مفهوم جديد لطبيعة الرجل والمرأة. هذا يمكن أن يكون آتياً مع ازدياد اتصال النساء اللاتينيات بالرجال في علاقات غير تلك التي هي علاقات اجتماعية رسمية بريئة. إن كاتبة الاختزال التي تعمل في مكتب وتكون على اتصال يومي مع رجال يُنظر إليها بشكل مختلف تماماً عن النموذج القديم للفتاة المرافقة جيداً.

إن المعدّل المختلف الذي تتغير فيه الأنظمة الرسمية والتقنية، يمكن أن يؤدي إلى قدر كبير من القلق الشخصي. فالدعامات التقنية في الجنس انتهت أولاً في الولايات المتحدة، ولكن الحقيقة بأن المُعتقَد الرسمي مايزال صامداً يظهر في السؤال المطروح من قِبل الطالبة وآخرين كثيرين مثلها. إلى أي مدى يمكن أن يصمد ذلك هو موضع شك. منذ عدة سنوات

مضت، نُقل عن (جي. بي. ميردوك)، وهو عالم إنسان مشهور، قوله إن العفة قبل الزواج لن تدوم لجيل آخر. ارتعب الناس. وهُوجِم في الصحف، وانهالت عليه رسائل غاضبة ونُدد به. كان رد الفعل نموذجياً لما يحدث عندما يتنبأ أحدهم بانهيار أي نظام رسمي.

غالباً تتحول الأنظمة التقنيّة إلى أنظمة رسمية بسرعة كبيرة بحيث يستجيب الناس لها وكأنها ماتزال تقنية. إن معظم العمل القائم عند مزار الأساليب العلمية في علوم الاجتماع هذه الأيام له نكهة النظام الرسمي أكثر من نكهة النظام التقني. في هذه الأيام يبدو أنه من السهل بشكل ملفت أن يتحول العلماء إلى قديسين. ومع أنه على خلاف القديس المعيّن الذي يعرف أنه قديس ويتلقى دعم المؤسسة الرسمية، فإن العالِم الشعائري متورط في حفلة تنكرية محرجة.

ومثال جيد عن هذا التحوّل هو ما حدث لأتباع فرويد في التحليل النفسي في هذا البلد. كان لعملياتهم كل الزخارف الخاصة بدين ما ومن ضمنها إعادة فحص لقضايا العقيدة شبيهاً بالتحريم الكنيسي للهراطقة. يعمل الكثير منهم بشكل جيد داخل النظام ويتدبّرون تكيّفهم معه لأنهم يعرفون أنهم في نظام رسمي - وليس في نظام تقني. من ناحية أخرى، إنه الوقت الذي بدأنا فيه بإدراك أن الكثير مما يُعرف على أنه علوم اليوم، ربما كان علمياً بالأمس ولكنه لا يمكن أن يبقى مؤهلاً بعد ذلك لأنه لا يقدم أية بيانات إضافية هامة عن أي شيء. إنه يلتزم على غير هدى بالإجراءات كما تلتزم الكنيسة بشعائرها الدينية.

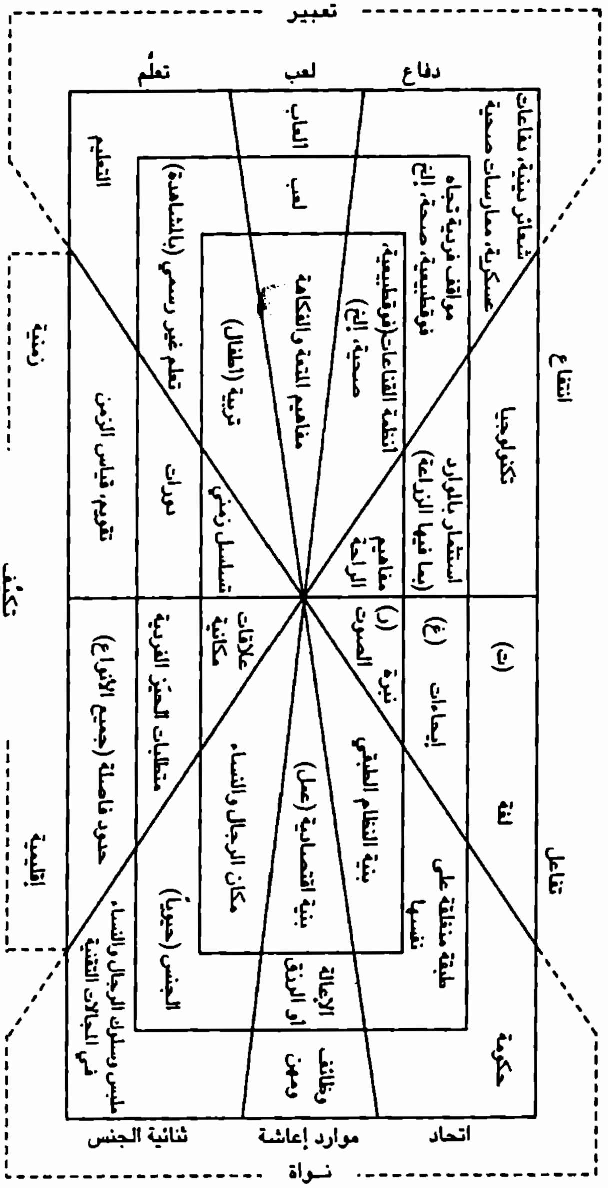
يوماً ما في المستقبل سيصبح من الممكن أن نقول أكثر عن النوعين الآخرين للبيانات التقنية التي تفترض أنها علمية. يبدو كأن نوع أ قد صُمم ليؤيد اهتماماً متواصلاً وليقدِّم دعامة للنواة الرسمية (القوانين، والبيانات عن السلوك والشعائر، والأنظمة وما شابه)، في حين أن نوع ب يقوم غالباً بعكس ذلك، فهو يفكك الدعامات الموجودة ويبني أخرى جديدة مكانها. إن رجالاً مثل (داروين) و(نيوتن) و(آينشتاين) قلبوا البنيات القديمة، مفسحين الطريق لأنظمة جديدة في التفكير. يميل نوع ب نحو الهدف الكلاسيكي للعلم الحقيقي والذي يقوم بشرح حوادث أكثر وأكثر بنظريات أقل وأقل. هذه المقارنة بين وجهي النظام التقني يمكن أن تُلخص أفضل ما يمكن بالعبارة التالية: *جميع التعابير العلمية هي تقنية، ولكن ليس جميع التعابير التقنية هي علمية.*

الملخص هو أن التغيير عبارة عن عملية دائرية معقدة. إنها تتقدَّم من نظام رسمي إلى غير رسمي إلى تقني إلى رسمي جديد، مع التأكيد الذي يتغيَّر بسرعة جداً عند نقاط اتصال معينة. تُفسَّر التغييرات السريعة بحقيقة أن الناس لا يمكنهم تحمُّل العيش في نظامين في الوقت نفسه، يجب عليهم أن يفهموا الحياة في أية لحظة مفترضة فقط من أحد هذه المستويات الثلاثة للتكامل وليس من أكثر من واحد.

من المشكوك فيه أن يقوم أي شخص بتغيير الثقافة حقاً بالمعنى الذي يُستخدم فيه هذا التعبير بطريقة عادية. ما يحدث هو أن تكيّفات

رسمية صغيرة يتم إحداثها باستمرار في مسار الحياة اليومية. بعضها يعمل بشكل أفضل من الآخرين. هذه التكيّفات تصبح في النهاية تقنية كالتحسينات، وتتراكم التحسينات بشكل غير مُدرك إلى أن ينادى بها كـ"اختراقات" (تقدمات مفاجئة). إن التحسينات الصغيرة والثابتة في تصميم الطائرة تضخمت إلى آلات لم يكن أحد يحلم بها قبل عشرين سنة مضت.

إذا أراد شخص أن يُدخل تغيُّراً ثقافياً، فيجب عليه أن يكتشف ما الذي يحدث على المستوى غير الرسمي وأن يحدد أي تكيفات غير رسمية تبدو كأنها الأكثر نجاحاً في التطبيقات اليومية. أحضر تلك التكيفات إلى مستوى الإدراك. حتى هذه العملية يمكن فقط أن تُسرّع التغيير، وليس التحكُّم به حقاً بالطريقة التي يرغب بها القائمون بالعمل. هذا لأن طبيعة خارج الإدراك للنظام غير الرسمي هي المكان الذي تبدأ فيه كل التغييرات. ولإعادة صياغة ما قاله (دوبزانسكي)، فالحياة هي نتيجة للتفاعل الديناميكي للمادة الحية مع نفسها وليست نتيجة الصدفة أو التخطيط.



المظاهر الرسمية (ر) وغير الرسمية (غ) والتقنية (ت) للنشاط البشري

5

الثقافة هي تواصل

في السنوات الأخيرة، عوّد علماء الطبيعيات وعلماء الرياضيات والمهندسون أنفسهم على النظر إلى مدى واسع من الأحداث كمظاهر اتصال. إن عنوان كتاب مثل *إلكترونات وأمواج ورسائل* لا يبدو متنافراً. وعنوان كتاب آخر *النظرية الرياضية للاتصال*، يبدو مناسباً جداً بحيث يتم قبوله بسهولة، على الأقل من قِبل الشخص العادي الذي له ميول علمية. من ناحية أخرى، فإن العلماء السلوكيين لم يبدأوا إلا مؤخراً بفحص حقولهم المتخصصة كتواصل.

من الممكن أن يتساءل القارئ عن طبيعة العلاقة بين الاتصال عندما أستخدم المصطلح ونظرية الاتصال (نظرية المعلومات) لمختبر الإلكترونيات. بطريقة ما، يمكن القول إن نظرية الاتصال هي اختزال للحديث عن أحداث الاتصال التي تم إخضاعها سابقاً للكثير من التحليل، كعلم الأصوات في

اللغة وعلم الإملاء وإشارات الهاتف والتلفاز وما شابه. تبدو هذه العملية أنها تسير بشكل حتمي في اتجاه واحد ـ نحو الترميز. يجب تذكُّر أنه عندما يتحدث الناس فإنهم يستخدمون رموزاً صوتية اعتباطية لكي يصفوا شيئاً ما حدث أو ربما حدث وأنه لا يوجد اتصال بالضرورة بين هذه الرموز وما حدث. الكلام هو عملية انتقائية جداً بسبب الطريقة التي تعمل بها الثقافة. لا توجد ثقافة ابتكرت وسيلة للكلام بدون إلقاء ضوء على بعض الأشياء على حساب أشياء أخرى. تبعاً لذلك تصحُّ بالضرورة فكرة أن الكتابة هي ترميز لترميز. نقلت نظرية الاتصال هذه العملية خطوة إلى الأمام. والاختلاف الرئيس، كما أراه، بين طريقة فهم المهندس الالكتروني وطريقة فهم أخصائي الاتصال الثقافي هو أن أحدهما يعمل مع معلومات رمزية مركزة جداً في حين يحاول الآخر أن يكتشف ماذا يحدث عندما يتكلم الناس، قبل أن تجرّد البيانات من جميع معانيها الإضافية.

عند اعتبار الحياة كلها كتواصل، فإننا نرى مجالاً يغطي مدى واسعاً من أحداث التواصل. من الممكن مراقبة رسائل كاملة ذات فترات زمنية مختلفة، فبعضها قصير جداً (أقل من دقيقة) وأخرى تغطي سنوات وسنوات. بشكل عام تتعامل دراسة الثقافة مع أحداث ذات مدة قصيرة إلى حد ما. إن سيكولوجية الفرد في المحيط الثقافي والاجتماعي تمثّل أحداث التواصل ذات مدة أطول ككل. إن دراسة نظام الحكم وعلم السياسة يمكن أن يتضمن "رسائل" تستغرق سنوات لكشفها. الأمثلة التالية تُظهر كيف أن مدة هذه الرسائل يمكن أن تتغيّر على نطاق واسع.

عندما يعود الزوج إلى البيت من مكتبه ويخلع قبعته ويعلّق معطفه ويقول لزوجته: "مرحباً"، فالطريقة التي يقول بها "مرحباً" تُدعَّم بالطريقة التي يخلع بها معطفه، وتلخّص مشاعره حول الطريقة التي اتخذت فيها الأمور مجراها في المكتب. إذا أرادت زوجته التفاصيل فربما يجب عليها أن تصغي لفترة، ومع ذلك فهي تستوعب بلحظة الرسالة الهامة الموجهة لها؛ أعني، نوع الليلة التي سيقضيان وكيف ستتدبر ذلك.

أو خذ مثال بائع كان يحاول أن يبيع شيئاً لزبون مهم منذ عدة أشهر. في النهاية يتفق الزبون على أن يصل إلى رأي مع لجنة المدراء ويَعد أن يُعلِم البائع بالقرار خلال أسبوع. إن أول نصف ثانية من المقابلة التي تلي، تُخبر البائع عادة ما يريد أن يعرفه - إذا كان ناجحاً أم لا.

تُلقي شخصية سياسية خطاباً يفترض أن يكون مطمئناً. إلا أن تأثيره يأتي معاكساً. عندما تُقرأ الكلمات تكون مطمئنة. ومع ذلك فإن الرسالة الإجمالية كما تم إلقاؤها ليست كذلك. لماذا؟ للسبب نفسه الذي تعرف فيه الزوجة والبائع ماذا يتوقعان. يمكن أن تكون الجمل بدون معنى بحد ذاتها. ويمكن أن تكون إشارات أخرى أكثر بلاغة بكثير. إن الأجزاء الهامة للتواصل على مستوى الثقافة تتميّز بقصرها مقارنة بأنواع أخرى من التواصل. بمجرد رفع درجة الصوت في نهاية تعبير ما بدلاً من تركها تتلاشى، فمن الممكن (في اللغة الإنجليزية) أن نغيّر التصريح بحقيقة إلى سؤال. إن حقيقة أن التواصل يمكن أن يحدث في وقت قصير جداً على

المستوى الثقافي هو غالباً مسؤول عن الإرباك الذي يحدث غالباً في تبادلات ثقافية متعددة.

عندما يترك المرء الجزء الثقافي من الطيف وينتقل إلى قسم الشخصية، فإن طول الموجة يزداد. إن حجارة البناء التحليلي، وبدلاً من أن تكون الأصوات وما شابه، هي تفاعلات كاملة بين الناس ـ كالأم والطفل، على سبيل المثال. وبالتالي فإن الانطباع الأول قد يكون خاطئاً لأن أياً من الشخصين لم تكن لديه فرصة ليظهر نفسه بشكل كامل في فترة قصيرة. فالشخصية تظهر كجملة بشكل بطيء جداً وتُعرف بشكل تام بعد سنوات.

إن جزء طيف الاتصالات الذي يشمل الأحداث السياسية يتكوّن من وحدات ذات مدة أطول بكثير. والمعاني يجب أن توجد في سياق لمئات من السنين في التاريخ. وفي النموذج الكلي، فإن تقريراً حكومياً رسمياً ليس مجرد وثيقة أخرى؛ فقد يكون معادلاً لنقطة أو فاصلة منقوطة أو حتى إشارة استفهام في نهاية الرسالة لما تم بناؤه لسنوات. وتتكوّن الرسالة من حالات وأفعال متعددة ـ شيء يُفهم من قِبل أي عالم سياسي أو رجل دولة. يمكن أن تعتبر الدبلوماسية والاستراتيجية السياسية كنوع من المجادلة حيث تغطي الكلمات سنوات.

أبعد من ذلك، فإن علماء مثل (توينبي) كانوا يحاولون أن يستنبطوا قواعد لغة الرسالة والتي يمكن أن تدوم لعدة مئات من السنين، وبذلك

تتجاوز عمر كائن بشري منفرد. إنهم يحللون بناء الجملة لجميع المجتمعات والحضارات.

المشكلة التي واجهت علماء الاجتماع عندما يتحدثون إلى شخص ما كان يعمل في جزء مختلف من طيف الاتصالات هي أن ما يراه شخص ما بوضوح يمكن أن يكون غشاوة مبهمة أو نقطة مجهرية بالنسبة للشخص الآخر. ومع ذلك فإن كل باحث يحاول كل جهده ليؤسس نموذجاً لاستخلاص المعنى مما درسه. في النهاية تكون جميع هذه النماذج ذات علاقة مع بعضها البعض. فلغة السياسة ولغة الثقافة متباعدتان عن بعضهما جداً، ومع ذلك فكل منهما تندرج تحت الأخرى.

وكنظام الهاتف، فإن أي نظام إتصالات له ثلاث سمات: بنيته الكليّة بما يشبه شبكة الهواتف، وأجزاؤه بما يشبه لوحة المفاتيح والأسلاك وأجهزة الهاتف؛ والرسالة بحد ذاتها والتي تُحمل عبر الشبكة. وبشكل مشابه يمكن تحليل الرسائل إلى ثلاثة أجزاء: مجموعات (مثل الكلمات)، ووحدات صغرى (مثل الأصوات) وأنماط (مثل القواعد والنحو). إن تحليل الرسائل إلى هذه الأجزاء، المجموعات والوحدات الصغرى والأنماط، هو شيء أساسي لفهم الثقافة كاتصال. وقَدر كبير مما يلي هو شرح مطول لتلك العبارات وما يكمن وراءها.

ولتلخيص الشرح، فإن الناس يكافحون لكي يكتشفوا معنى العلاقات بين الأفراد ومجموعات الأفراد. يتعلم العالم المحترف بسرعة أن

يتجاهل المعنى الصريح المباشر لما هو واضح وأن يبحث عن نمط ما. ويجب على العلماء كذلك أن يتعلموا أن يعيروا الإدراك صعوداً أو نزولاً معتمدين على أي نوع من الاتصالات يحاولون أن يحلّوه. هذا يؤدي إلى جهل وظيفي مفهوم والذي يجعل الأمر مستحيلاً تقريباً لتركيز الانتباه على اتصالات من أنواع أخرى، وعلى أطوال موجات أخرى، كما كانت. إن المقدرة على حل رموز اتصالات في منطقة محصورة من تخصص مّا هو ما يجعل الناس خبراءً. قد يكون أحد الأشخاص خبيراً في الأحداث طويلة المدى، وآخر في التفاعلات القصيرة الأجل. وكذلك إذا عدنا إلى اللغة كمنطوقة (وليست كمكتوبة) على أنها نظام اتصال متخصص، يمكننا أن نتعلم شيئاً عن كيف تعمل الأنظمة الأخرى الأقل تطوّراً. معظم ما يُعرف عن الاتصالات تم تعلمه من دراسة اللغة. ولأن العمل في اللغة كان مثمراً جداً، فإن هناك تشابهات معينة مُستنتَجة منها ويمكن أن تكون مفيدة في وصف أنظمة الاتصالات الأخرى.

في دراسة اللغات لا يمكن للمرء أن يفترض شيئاً. لا توجد لغتان متماثلتان؛ فكل منهما يجب الإقدام عليها بطريقة جديدة. ومع ذلك فسواء كانت اللغة قريبة أو بعيدة، ومترابطة إلى حد كبير أو غير مترابطة، فهناك خطوات معينة يجب أن تُتخذ في تحليل اللغة بحيث يمكن أن يستمر التعلُّم.

في البداية تكون اللغة ليست أكثر من تشويش صوتي. وسرعان ما

تظهر بعض الأشياء وتتكرر الأحداث المُدرَكة. على سبيل المثال هناك فواصل أو وقفات ملاحظة، وهي فراغات تفصل حدثاً ما عن آخر. ويفترض عادة أن هذه الفواصل تباعد ما بين الكلمات. في الواقع أنه من الممكن أن تكون كلمات أو هملاً، أو ربما تكون أشياءً أخرى. الفكرة هي أنه يوجد شيء مُدرَك، وهذا هو ما يستوعبه المتعَلّم. في الوقت الحالي سنسمي الأشياء التي ندركها "كلمات". هذا مجرد وسيلة مريحة لأن الكلمة كما نعرفها تكون محصورة جداً في المعنى.

أثناء تعلُّم لغة جديدة نكتشف، بعد أن نكون قد أعدنا نطق عدد من الكلمات بأفواهنا، أن "الكلمات" مكونة من أصوات ذات أساليب متنوعة، معظمها مختلف عن أصوات اللغة الإنجليزية. بعدئذ نجد أن هناك طريقة لربط الكلمات ببعضها بحيث تكوِّن تعبيراً تاماً والذي نعتبره جملة.

وللإعادة، ففي اكتشاف كيفية عمل لغة جديدة وفي تعلُّم تلك اللغة يبدأ المرء بشيء مماثل *للكلمة*، مكوَّن من *أصوات*، وموضوع مع بعضه البعض بطريقة خاصة وبحسب قوانين معينة، والذي ندعوه النحو. هذه هي الخطوات الرئيسة وهي تحدد الأجزاء الأساسية للغة.

وبسبب أن مصطلحات اللغوي متخصصة ومعقدة جداً، فقد قدمنا (تراجر) وأنا مجموعة مصطلحات تُطبَق على جميع أنواع الاتصال، بما فيها اللغة. تُستَخدَم المصطلحات البديلة لتظهر بوضوح العناصر الثلاثة الرئيسة للرسالة، وهي: *مجموعات* ووحدات صغرى *وأنماط*. المجموعات

(الكلمات) هي ما تدركه أولاً، والوحدات الصغرى (الأصوات) هي الأجزاء التي تكوِّن المجموعات، في حين أن الأنماط (النحو) هي الطريقة التي ترتبط بها المجموعات مع بعضها بحيث تعطيهم معنى.

إن فكرة النظر إلى الثقافة على أنها وسيلة اتصال كانت فكرة مفيدة في أنها أثارت مشاكل لم تخطر على البال من قبل وقدَّمَت حلولاً لم تكن ممكنة بطريقة أخرى. إن الفائدة المثمرة للمدخل يمكن أن تُعزى إلى التفريق الواضح بين النظام الرسمي وغير الرسمي والتقني، وكذلك الإدراك بأن الثقافة يمكن أن تُحلل إلى مجموعات ووحدات صغرى وأنماط. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن الدراسات المبكِّرة للثقافة المادية للهندي الأمريكي كانت تُعالج أصلاً بهذه الطريقة، ولكن أصبحت متورطة في مستنقع منهجي لأن دراسة اللغويات لم تكن تتقدم بشكل كاف في ذلك الوقت ليمكِّن العامل من الحصول على أي تشابهات مفيدة من الطريقة التي تعمل بها اللغة. لقد أوضحت البيانات أنه كانت هناك أشياء مثل الفاصل والتي كانت تسمى ميزات ومجموعات توافقيات مشابهة للكلمة التي كانت تُسمى مجموعات الميزات.

في عدة أمثلة، تعثرت المحاولات المبكرة في معالجة الثقافة المادية لأن الراوية الحيّ، إذا كان متوفراً أصلاً، لم يُستخدَم بشكل ملائم لتقديم أساسي حقيقي لتحليل العاملين في الميدان. وكان العمل الميداني معرضاً في ذلك الوقت، كما هو اليوم، إلى أن يفسد بثقافة العالِم.

مثل الفلاسفة والكيميائيين القدماء الذين فهموا الأشياء الصحيحة بالطريقة الخاطئة، فالعديد من علماء الإنسان كانوا يبحثون عن حجارة البناء الأساسية للثقافة. باستخدام الفونيمات (حجر بناء اللغة) كنموذج، حاولوا أن يكتشفوا مكافئة الثقافي، مفترضين خلال العملية أن الثقافة كانت كينونة مستقلة، مثل اللغة. العديد من هذه الجهود كانت معتمدة على فهم ناقص للفونيم[1]. في الحقيقة أن الفونيم هو مجموعة أصوات معروفة لمتكلّم اللغة. فحرف *a* كما يلفظه سكان منطقة نيوإنجلند في كلمة "father" وكذلك في اختلافه المحلي، يكوّن فونيماً واحداً. وحرف *p* في بداية كلمة "pip" أو "pop" هو في الحقيقة مختلف عن الـ *p* في النهاية، ومع ذلك فكلاهما معروفان كألوفونز (أشكالاً متباينة معروفة) للفونيم *p*.

إن الفونيم، كجميع الوحدات الصغرى، هو فكرة تجريدية تنحل في مجموعة حالما يُثبَّت في موضع ما. نظراً لأن هذا كان غير مفهوم من قِبل علماء الإنسان، فإن الفونيم لم يقدِّم نموذجاً ملائماً لباقي الثقافة. كما يمثِّل الفونيم نقطة بناء واحدة فقط في نظام اتصال متخصص جداً. ومن غير المجدي أن نبيِّن تشابهاً ما على أساس نقاط البناء وحدها بدون الإشارة إلى كيف يتصرف النظام ككل. وعند اختيار حجارة البناء مثل الفونيمات كنماذج، يجب على علماء الاجتماع أن يكونوا متساوقين.

---

[1] الفونيم: إحدى وحدات الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز نطق لفظة ما عن نطق لفظة أخرى في لغة أو لهجة.

وذلك يعني أن مفهوم الفونيم هو جزء لا يتجزأ في سياق نظام لغوي ووظيفته في ذلك النظام يجب أن تكون مفهومة. يبدو أن التحليل اللغوي يتطلّب بعض التكيُّف قبل أن يشكّل نموذجاً مناسباً لأنظمة الثقافة الأخرى. وستكرَّس الفصول التالية للتوسع في شرح ما يُقصَد بالمصطلحات وحدة صغرى ومجموعة ونمط والتي تُستخدم لتحل محل المصطلحات فونيم ومورفيم والنحو التي تستخدم في علم اللّغة.

6

المجموعة المنتشرة

كقاعدة عامة، المجموعة هي جمع جزئين أو أكثر تُعرَف على أنها مجموعة منفصلة عن أحداث أخرى. إن الأشياء المادية كالكراسي والطاولات والمكاتب وآلاف التراكيب الأخرى من الأشياء يمكن أن تُعتبر مجموعات. وكذلك يمكن اعتبار الكلمات والفترات الزمنية ومقاييس معينة مثل الميل، والهيئات الحكومية، وهذا فقط بضعة من ملاحق الحياة الحقيقية والتي تناسب تعريفنا. ولأن هناك أنواعاً مختلفة من المجموعات ـ مجموعات رسمية ومجموعات غير رسمية ومجموعات تقنيّة ـ فإن بعض المجموعات تُدرك بسهولة أكبر من مجموعات أخرى. فعلى سبيل المثال، المجموعات الرسمية هي تلك الأشياء التي يسلّم بها الناس والتي تبدو طبيعية: الكلمات والأبنية والحكومات والعائلات واليوم والأشهر والسنة. ومع ذلك فكل هذه تتبدد كمجموعات مرْضية بمجرد أن

يبدأ الشخص بالنظر إليها تقنياً. لا يمكننا التفكير بالكلمات بدون اللغات، والأبنية بدون حضارة، والوقت بدون أطوار.

وبغض النظر عن المستوى، فإن المجموعات نادراً ما تُدرك منعزلة. وهي تظهر عادة في سياق وكواحدة من عدة سلاسل من أحداث متشابهة أو ذات علاقة. في حالة التعدد الثقافي، فإن أول شيء سيتعلمة المرء عن مجتمع آخر هو وجود مجموعات رسمية معيّنة. وتلك إما أن يتم تحديدها مباشرة أو تكون واضحة جداً بحيث لا يمكن إخطاؤها. من ناحية أخرى، في كثير من الحالات لا يتجاوز القادمون الجدد الخطوة الأولى أبداً. على سبيل المثال، قد يتعلمون عدداً كبيراً من كلمات (أو مجموعات) لغة أجنبية ولكن مايزالون يستخدمون وحدات لغوية صغرى من لغتهم الأم ــ الأمر الذي يعطيهم لكنة. علاوة على ذلك، فإنهم، وبدون معرفتهم بالأمر، قد يهيئون مكاناً للكلمات الأجنبية في تركيبات أو نماذج لغتهم الأم ــ وهذا يمكن أن ينقل أفكارهم بشكل غامض لا يمكن فهمه. ولنأخذ مثالاً آخر، نحن في أمريكا نفهم أن كل طراز للعربات هو سيارات، في حين أنه في أجزاء معينة من العالم يعتبر طراز واحد فقط، وهو الكاديلاك، أنه سيارة. في مثل هذه الحالات يشعر الأجنبي (العربي مثلاً) أنه قد فهم مجموعة مختلفة تماماً عن تلك التي يألفها ويكون لديه وهم بأنه فهم ثقافة أخرى. في الحقيقة أنه تم فقط أخذ الخطوة الأولى المترددة. لكي تفهم ثقافة أجنبية فهماً كاملاً من الضروري أن تفهم أنماطها ووحداتها الصغرى كما تفهم مجموعاتها.

تُحدد المجموعات فقط بواسطة عدد التجمعات الممكنة لوحداتها الصغرى وأنماطها. ومحاولة أن تتعامل مع ثقافة أجنبية عن طريق تعلُّم المزيد والمزيد من المجموعات هو مهمة ميئوس منها. أن تجمع المجموعات في ذهنك هو أمر سهل، ولكن أن تحلّ رموز نمط ما هو أمر صعب. إن الحديث عن المجموعات بدون تقديم أنماط هو كالحديث عن الطوب دون ذكر أي شيء عن المنازل. لذلك، وبالرغم من أن هذا الفصل مكرَّس أصلاً للمجموعات، فمن الضروري أن أقدِّم مفهوم النمط بشكل متكرر.

إذا تمكَّن الناس من تمييز نمط ما، فلا يهم كثيراً ما يدركونه من أحداث معينة. فهي في الحقيقة قد تكون مختلفة تماماً وماتزال جزءاً من الأسلوب نفسه، تماماً كالبيوت التي تبقى بيوتاً حتى لو صُنعَت من مواد مختلفة. على سبيل المثال، المساومة في كل مكان في الشرق الأوسط هي نمط أساسي ومختلف بشكل هام عن النشاط الذي يتم تحت ذلك الاسم في ثقافتنا. ومع ذلك، فإن ما يُفهم سطحياً (أعني أساليب العرب في المساومة) يبدو مألوفاً ويفترض أنه الشيء نفسه. لا شيء يمكن أن يكون أبعد من الحقيقة. إن أول أخطائنا هو في تقدير قيمة المساومة في الشرق الأوسط والدور الذي تلعبه في الحياة اليومية. يميل الأمريكيون إلى ازدراء الناس الذين يماحكون. وهم يقصرون مقايضاتهم الجدية على المنازل والسيارات. من ناحية أخرى، فالمساومة بالنسبة للعرب ليست مجرد وسيلة لتمضية يوم ما ولكن في الواقع هي تقنية للعلاقات البينشخصية. إنها ليست مجرد

القيمة المترتبة على المساومة التي تختلف في الشرق الأوسط ولكن على النمط أيضاً.

ما ندركه عند أول زيارة إلى دولة عربية هو سلسلة من التفاعلات التي نعرفها كشيء قريب من المساومة. هذا يعني أننا أدركنا المجموعات: الأفعال، والحركات، والارتفاعات في نبرة الصوت، والتزايد في الارتفاع، والانسحاب والتعامل بالبضائع. وبكل هذا يجري أمام أعيننا لا نفكّر عادة بكيف يختلف نمطنا عن هذا النمط الذي يظهر مألوفاً. يسأل الأمريكي: "ما هي نسبة سعر الطلب والتي يجب أن أعطيها كعرضي الأول؟" إن ما لا يعلمه هو أنه توجد عدة أسعار طلب. ومثل الأسكيمو الذين يوجد لديهم عدة كلمات مختلفة للثلج، فإن العرب لديهم عدة أسعار طلب مختلفة، وكل منها ذو معنى مختلف. إن النمط الأمريكي هو أن لدى الفريقين أسعاراً مخفية لن يتحركوا أعلى منها ولا أقل منها، وسعر طلب يُفهم ويعتبر على أنه الحصول على نوع من العلاقة الثابتة مع الأسعار المخفيّة. وستتم مناقشة مزيد من التحليل المفصّل حول كيفية عمل كل هذا في الفصل الثامن.

وبالعودة إلى المجموعات، فإن الفكرة الرئيسة التي يجب تذكرها هي أنها الشيء الأول الذي يجب ملاحظته، وعددها غير محدد، وتفسير أهميتها يعتمد على معرفة الأساليب التي تُستخدَم فيها.

توجد تعميمات إضافية يمكن أن يقوم بها المرء بشأن المجموعات.

تلك التعميمات يمكن أن تكون ذات فائدة لعمال الميدان، لأنها تشير إلى الطريق نحو نماذج أعمق.

إن قسماً كبيراً من مفردات الثقافة مكرسة لمجموعات. وبالنظر إلى المفردات يمكنك أن تحصل على فكرة تقريبية عن محتوى ثقافة وعن الأشياء التي تُقدَّر. إن حقيقة أن لدينا كلمة واحدة تعني ثلج في حين أن الأسكيمو لديهم عدة كلمات هي القضية. تعكس المفردات التقنية المطوّرة جداً ثقافة تقنية. لا يمانع الأمريكيون امتلاء إعلاناتهم بكلمات معروفة فقط للعلماء والمهندسين، مثل كلوروفيل، ونووي حراري وكلورو ـ ميسيتين وقلبي وعائي وما شابه.

يمكن أن تُقيّم المجموعة نفسها بشكل مختلف. فالأمريكي اللاتيني، إذا كان قادماً من مكان مثل فنزويلا، من المحتمل أن يسأل، لماذا نشدد على شيء قذر جداً وغير لطيف مثل الصرف الصحي. فالفنزويلي يمكن أن يرغب حتى أن يعرف لماذا نضع المرحاض في الحمام. ولنأخذ مثالاً آخر، في اليابان تُصنّف العاطفة أوالمشاعر في مرتبة رفيعة جداً. ويُسمونها كيموكبي أو دوجو. والمنطق، كما نفكر به، يصنَّف في مرتبة متدنية. إن تصنيفنا للمجموعتين هو بالطبع عكس تصنيف اليابانيين تقريباً.

تتكون كذلك مجموعات مشابهة من عناصر مختلفة في ثقافات مختلفة. فنحن نعتبر مجموعة من الخزف الصيني على أنها أصلاً الأطباق والفناجين والصحون المصنوعة من المادة نفسها وتحمل النموذج نفسه أو تكون بالنمط نفسه. في اليابان الأمر ليس كذلك. إحدى المجموعات

العديدة التي رأيتها في المتاجر الكبيرة الحديثة في (جينزا) كان "طقم قهوة" في علبة. كان يشتمل على خمسة فناجين وخمسة صحون وخمس ملاعق (جميعها خزف صيني)، ومصفاة واحدة من الألمنيوم (تشكيلة مطبخ)، وإبريق واحد للكريما من الزجاج المنقوش، ووعاء غير مزخرف للسُكَّر له غطاء من البلاستيك. في الولايات المتحدة، مهما حاولنا أن نتصور، لا يمكن وضع هذه المواد المتنوعة في مجموعة واحدة.

هناك نقطة مهمة أخرى هي أن المجموعات نفسها *تُصنَّف بشكل مختلف* عندما يتجول المرء حول العالم. هذا يزودنا ببعض العقبات الإضافية ويوهمنا بأننا نتعلَّم حقيقة شيئاً مختلفاً. في اللغة الإنجليزية لا تصنَّف الأسماء على أساس الجنس. من ناحية أخرى، تصنَّف الأسماء في اللغة العربية على أساس الجنس. فعليك أن تعرف جنس الإسم إذا أردت أن تستخدمه بشكل مناسب. من ناحية أخرى، نحن نصنِّف كل شيء على أساس أنه حيّ أو غير حيّ. هذا يعني أن سكان (تروبرياند) الذين لا يستخدمون هذه التمييزات سيتوجب عليهم أن يتذكروا في كل مرة كانوا يشيرون إلى شيء ما إذا كنّا نعتبره حياً أم لا. وسيتوجب عليهم كذلك أن يواجهوا بعض الصعوبة في تصنيفاتنا للحيوان والخضار، وذلك لأنهم يفهمون الخضار على أنها مثل الحيوانات ويمكنها أن تهاجر من حديقة إلى أخرى. (المُزارع الجيد بالنسبة لهم مثل الراعي القادر على الاحتفاظ بخضاره في حديقته ومن المحتمل أن يجتذب قليلاً، وليس كثيراً جداً، من خضار جاره لتدخل حديقته).

وتوجد في اللغة الإنجليزية كذلك أسماء غير معدودة وأسماء معدودة. الأسماء غير المعدودة تشمل أشياءً مثل رمل وثلج وطحين وعشب. ويستدل عليها بجملة مثل: "أعطني بعضاً من ــــ." أما الأسماء المعدودة فتتضمن أشياءً مثل رجل وكلب وكشتبان وورقة شجر. وجملة: "أعطني واحداً من ــــ" هي الدليل اللغوي على وجودها. يجب على الأجنبي أن يتعلم دائماً، غالباً عن طريق الاستظهار بدون فهم (الصَم)، أي الأسماء غير معدودة وأيها معدودة. فكلمة عشب غير معدودة، وكلمة ورقة شجر معدودة، ولا يوجد منطق ثابت معروف يبرر لماذا يوجد اسم في فئة ما وليس في أخرى. في الحقيقة، هذا صحيح بالنسبة للمجموعات بشكل عام حيث يوجد قدَر كبير من التعلم القديم البسيط المليء بالتكرار المتضمَّن في استخدامها. يجب حفظ المفردات كيفما وجدتها وأينما وجدتها.

كما أننا نميِّز بين حالات الأشياء المختلفة ـ هذا يعني إذا كانت معلومة أو مجهولة. وكذلك تختلف كيفية اتصال كلام الشخص بالأحداث الطبيعية. فنحن نقول: "سأراك في ساعة." ويقول العربي: "ماذا تعني بـ(في ساعة)؟ هل الساعة مثل الغرفة بحيث يمكنك أن تدخل فيها وتخرج منها؟" بالنسبة له يكون نظامه منطقياً إذا قلتَ: "سأراك قبل انقضاء ساعة واحدة،" أو سأراك بعد أسبوع واحد." نحن نخرج *في* المطر. والعربي يخرج *تحت* المطر.

المجموعات ليست مصنفة فقط، ولكن يمكن تجزئتها إلى فئات أكثر. أحياناً يمكن أن يبيِّن لك تحليل لعدد من المجموعات في فئة مفترضة الأهمية النسبية للموضوع في الثقافة الكليّة. إن أول شخص تحدث عن هذه السمة

علمياً كان (فرانز بواس) في مناقشته عن أشياء مثل استخدام الأسكيمو لعدة "أسماء" مختلفة لحالات الثلج العديدة. في ثقافتنا يمكن للشخص أن يحصل على فكرة عن أهمية النساء بفحص التكاثر الهائل للمرادفات الخاصة بالإناث، وبالذات الفتيات الصغيرات ـ كعكة ولعبة وشعلة وتنورة وبندورة وملكة وإمرأة وحقيبة وصحن وجديلة، هذا غيض من فيض. وكل منها تشير إلى مجموعة مختلفة أو إلى تمييز دقيق في سلّم المراتب.

هناك ميزة إضافية للمجموعات، أُشيرَ إليها أعلاه، وهي أنها تقريباً دائماً تصنَّف في فئاتها. فالتصنيف، بالطبع، يختلف أثناء تنقُّل الشخص. كان الرجال البيض في وقت يفوقون الرجال السود بالمرتبة في الولايات المتحدة. وفي ليبيريا الوضع معكوس. في صناعة الساعات الدقيقة، يصنَّف الذهب بدرجة تفوق الفولاذ إذا كان الهدف الأناقة أو الظهور الاجتماعي. وإذا كان الشخص رياضياً، فربما يأخذ الفولاذ الأفضلية. بالنسبة للشعب الأمريكي بشكل إجمالي، فإن سيارة الكاديلاك تتفوق على سيارة البيويك، والتي بدورها تتفوق على سيارة الشيفروليه.

في الحقيقة، أن تصنيف المجموعات دقيق جداً بحيث أن على الشخص أن يكون أكثر تحديداً. ولا يكفي أن نقول إن المجموعات مصنَّفة. فالفئات المرتبة حسب المنزلة، التي تُظهر نموذجاً بحد ذاتها، هي على الدرجة نفسها من الأهمية. في الحقيقة أن هناك ثلاث طرق مختلفة تُصنَّف بها المجموعة حسب المنزلة: (أ) رسمياً، كمادة تقليدية في نظام مجموعات ذات قيمة (رصاص، نحاس، ذهب، بلاتين)، (ب) غير رسمي، وفقاً لذوق المراقب أو

متطلبات الوضع (لحم ستيك غير ناضج، وسط، ناضج ؛أحمر، أخضر، أزرق، أصفر)؛ (ج) تقنياً، كما يظهر في نموذج مثل: "تباع البطاطا مقابل خمسة دولارات بالجملة؛ وفي الأمس بيعت مقابل 4.95 دولاراً." النموذج في هذه الحالة هو ما يُسمّى قانون العرض والطلب. في جزر (تروبرياند) مادة صالحة للأكل مشابهة مثل البطاطا الحلوة كانت تُثمَّن وفقاً لحجمها، وشكلها ومتى تم قطافها ومن كان سيستلمها. فالعرض والطلب ليس لهما علاقة في هذه الحالة.

يتعامل الأمريكيون مع الألوان بطريقة غير رسمية ككل ـ هذا يعني حسب الحالة. فقد نستخدم بقعة من الأصفر أو من الأحمر، أو من الأصفر والأحمر لإبراز حائط رمادي. وقد نستبعد وضع الأصفر والأحمر إلى جانب بعضهما. والألوان بحد ذاتها لها قيمة قليلة أو بدون قيمة. فإذا كان لها قيمة فالمقياس هو الذوق. بالنسبة للـ (نافاهو) يختلف الوضع تماماً، فالألوان تصنَّف تماماً كما نصنف نحن الذهب والفضة ـ فقط بشكل عاطفي أكثر. وعدم إدراك ذلك سبّب إحراجاً كبيراً لعدد من موظفي (خدمات الهنود) منذ سنوات. ففي محاولتهم لتحقيق "الديمقراطية" للهنود حاول أولئك الأشخاص ذوو النوايا الحسنة أن يقدموا نظام تصويت بين (نافاهو). ومن المؤسف أن عدداً كبيراً من الـ (نافاهو) كانوا أميين، لذا فكَّر أحدهم بفكرة ذكيّة بتحديد ألوان متنوعة لمرشحي المجالس القبلية المختلفة بحيث كان يمكن للـ (نافاهو) أن يدخل إلى حجيرة الاقتراع ويضع إشارة على اللون الذي كان يريده. ونظراً لأن اللون الأزرق هو لون جيد والأحمر لون

سيء، فقد كانت النتيجة هي التحكم بالنرد لصالح بعض المرشحين وضد الآخرين. في الوقت الحاضر تستخدم الصور الشخصية من أجل الاقتراع.

على الرغم من أن الغربيين يميلون إلى التأثر بالأرقام الكبيرة ولديهم بُغض للرقم ثلاثة عشر، فإن رقماً ما هو رقم جيد كالذي يليه عندما يتضاءل المعتقد الخرافي. وتصبح الأرقام ذات معنى فقط في سياق تقني. واليابانيون لديهم أرقام تعني حظاً سعيداً وثروة وإفلاساً وموتاً. هذه الحقيقة عقّدت نظام الهاتف الياباني. فبعد الحرب حققت الأرقام الجيدة سعراً عالياً، والأرقام السيئة الطالع كانت تُفرض على الأجانب بالحيلة.

من الواضح تماماً إذن أن أحد الاختلافات المُلاحظة بسهولة بين الثقافات هي الفئة التي تنتسب إليها المجموعة، وبمجرد أن يتم تحديدها، كيف تُعامل: رسمياً أو غير رسمي أو تقنياً.

بإيجاز، فربما نبيّن أن المعنى الوحيد الذي يمكن نسبه إلى المجموعات كمجموعات هو ما يمكننا تسميته معنى *إيضاحياً*: هذا "كلب"؛ ذلك "رجل"، هناك تنطلق "طائرة". المجموعات بذاتها حيادية. من ناحية أخرى، في الأنماط تتخذ المجموعات كل أنواع المعاني الأكثر تعقيداً. إن التحليل الأكثر شمولاً للمجموعات في أنماط تم إجراؤه في دراسة علم دلالات الألفاظ وتطورها، والذي يهتم بمعاني الكلمات في سياقات متنوعة. وبالرغم من أن دراسات علم دلالات الألفاظ وتطورها قد حقق تقدماً ملحوظاً، فإنه لا يزال أمامها شوط طويل لتقطعه. والخلل الرئيس فيها، كما تتم إدارتها الآن، هو أن النماذج تؤخذ كأمر مسلّم به.

7

الوحدة الصغرى المُضلّلة

إذا كانت المجموعة هي تلك السمة للكائن التي يمكن إدراكها بيسر وإذا كان النمط هو الخطة التنظيمية التي تعطيها معنى، فالوحدة الصغرى هي الفكرة التجريدية المضللة، تقريباً وهماً. إنها العنصر الذي يقوم بتكوين مجموعة، ومع ذلك، بشكل متناقض، عند اللحظة التي يبدأ الشخص فيها تفحُص المجموعة عن كثب لإيجاد وحداتها الصغرى، فإن التمييز بين المجموعات والوحدات الصغرى يتلاشى. بلا ريب، فإن الوحدات الصغرى ستُظهر نفسها، ولكن بمجرد أن يتم إدراكها بوضوح فإنها تُرى على أنها مجموعات حسب مستواها الخاص. هذا الانتقال من مجموعة إلى وحدة صغرى إلى مجموعة هو ذو أهمية عظيمة. لقد سبب مشاكل لا تعد ولا تحصى للعالِم لأنه عندما يحدث الانتقال فإن البناء المُدرَك يتغيّر. وحتى المجموعات القديمة أصبحت شيئاً مختلفاً. على سبيل المثال،

مجموعة نسميها "كلمة" هي مجموعة مفهومة. ومع ذلك، عندما تحلل إلى ألفاظها المكوّنة التي هي الوحدات الصغرى، نجد أن الكلمة كما تُعتَبر عادة قد ضاعت للأبد. يلاحظ كل شخص عادي هذه الظاهرة عندما يبدأ باللعب بألفاظ الكلمة، متجاهلاً الكلمة نفسها. عندما يبدأ اللغويون الذين يعملون بطريقة أكثر حِنكة بتسجيل وتصنيف الألفاظ في بحثهم عن الوحدات الصغرى، فإنهم يدركون أنه بالإضافة إلى حروف العلة والحروف الساكنة المألوفة توجد مجموعات من الحروف الساكنة غير الرسمية مثل التشديد وطبقة الصوت والتنغيم (ارتفاع وانخفاض درجة الصوت). وكنتيجة لذلك فإنهم يميلون إلى اكتشاف أن الكلمة لا تنفصل وتتركّب بالطريقة التي يعتقدون أنها تفعل ذلك. ويُلاحظ أن سلسلة من المجموعات الجديدة تحل محلها.

نظير لمبدأ اللاتحديد في علم الفيزياء الطبيعية قد يبدو أنه يُطبّق على هذه المُعضلة. إن مبدأ اللا تحديد يعتبر أن المراقب ووسيلته متعلقان بشكل لا مفر منه بالظاهرة التي هي تحت المراقبة وأن فعل المراقبة يغيّر الظروف التي تحت المراقبة. فكلما تم فحص عناصرنا اللغوية بدقة أكبر، أصبحت المشاهدات القديمة أكثر تجريداً وغير دقيقة. بمعنى أخر، عند العمل بحقائق ثقافية، فإن *الشخص يمكنه أن يكون دقيقاً فقط على مستوى تحليلي واحد في كل مرة على حدة وفوق ذلك للحظة فقط*. إنني أدعو هذا "اللاتحديدية الثقافية."

عندما يفكر المرء ملياً بالنظام الرائع المعروض بشكل متكرر من قِبل

الطبيعة فإنه ليس مفاجئاً أن تكتشف أنه حالما يبدأ المرء بالبحث عن الوحدات الصغرى في فئة مجموعات مفترضة، كالألفاظ في الكلمات، تظهر بعض التماثلات المتكررة. وهذا لحسن الحظ يضع حدوداً واضحة لما قد يكون لولاها عملاً لا نهائي. يبدأ المرء بمعرفة أن ما يتم البحث عنه سيثبَت في النهاية أنه *فئة* مجموعات غير مترابطة. على سبيل المثال، عند أخذ اللغة بالاعتبار يبدأ الشخص بفرضية أنه من عدد محدد من الألفاظ يمكن استخراج جميع الكلمات في الإنجليزية. تعلمنا كذلك أنه يوجد "نظام لفظ" لأي لغة وأن الناطقين بها *ملزمون* بنظام لغتهم. وهذا السبب في أن أول لغة يتعلمها الشخص تمارس تأثيراً على جميع اللغات التالية وتضفي عليهم لكنة. إن التأثير المُلزِم للغة لا يوجد في المجموعات بل في الوحدات الصغرى والنمط. وتقريباً أي شخص يمكنه أن يستخرج الألفاظ للغة أجنبية على انفراد، ولكن العديد يجد أنه من الصعب أن تجمعها في كلمة. وعندما يحاولون ذلك فإنهم يغيرون اللفظ، فرابطة العادات القديمة قوية جداً.

عندما يبدأ العلماء، أياً كانت اختصاصاتهم، بحثهم عن الوحدات الصغرى، فإنهم يعرفون أنهم سيجدون في النهاية *نظاماً* وسيكون له ترتيب ونمط، وأن هذا العمل لن يدوم للأبد. فسيأتي وقت عندما يتقنون النظام ويتمكنون من وصفه. ويمكنهم عندئذ تعليم الناس وبالقيام بذلك يوجِدون نظماً جديدة، مثل نظم الكتابة والأبجدية وترميز النظم القانونية، وهذا بعض من أنظمتنا العقلية.

إن هدف الباحث الذي يتعامل مع ظاهرة بشرية هو أن يكتشف أنماط الفواصل التي توجد مخفية في أذهان الناس، وفي الجهاز الحسي لهم وفي عضلاتهم. هذه الأنظمة لا يمكنها عادة أن تُكتشَف عن طريق استخدام الآلات وأجهزة القياس الدقيقة. إن فيها الكثير من التفاوت وتعتمد على مقدرة الإنسان على *إدراك الأنماط والاستجابة لها*. وإذا كان العلماء سيستخدمون الآلات، فيجب عليهم أن يستخدموها بتفاوتات مسموح بها بما يتناسب مع المعلومات التي يحللونها ومدى دقة التحليل. وإذا كانوا دقيقين جداً، فإنهم يكتشفون أجزاء النظم التي يكونون غير قادرين على التعامل معها. والمهم هو الاختلافات التي يصنعها المتحدثون بلغتهم الأم عندما يتكلمون، مقارنة مع تلك التي يسمعونها عندما يصغون. هذه تكون متماثلة. إنهم يشكّلون نظاماً خفياً، ذلك المشتَرك بين الآلاف، إن لم يكن الملايين، من الشعوب الأخرى. إن الباحث لا يهتم بالتغييرات الفردية والاختلافات الوضعية واللهجات ولا بعيوب الكلام ولكن بالنظام الذي يجعل من الممكن للناس أن يفهموا الآخرين حتى عندما يفقدون أجزاءً هامة لأجهزتهم الصوتية، مثل أسنانهم. والمطلوب هو نقاط البناء التي يتجمّع حولها السلوك والتي تكون مُدرَكة على أنها ذات علاقة أو تعتبر متماثلة. فنحن نبحث تلك الأشياء التي تمكّن جميع المشاركين العاديين في ثقافة مفترضة (ليس 90 بالمئة أو 80 بالمئة، بل الجميع) من التمييز بين الحدث أ والحدث ب. هذه الأحداث يمكن أن تكون مسافة المحادثة بين شخصين، أو وقت الانتظار على قارعة الطريق أو في حجر الانتظار، أو، بقدر ما يتعلق الأمر بذلك، أي شيء في الثقافة له معنى

بالنسبة لأعضاء تلك الثقافة. في الحقيقة، لكي تسأل ما هو الذي يجعل الشخص قادراً على أن يُظهر الاختلاف بين أ و ب يتضمن إجراءً مختلفاً عن السؤال ماذا يحدث لتشكيل أ و ب. إن الاختلاف في الإجراء هو نتيجة لحقيقة أن الموضوع لا يمكن أن يعطي بياناً دقيقاً عن كيف يشرع الشخص في صنع التصنيفات. ولكن يمكن للشخص أن يحدد إذا كان أ و ب متماثلين أم مختلفين. إن عمل العالِم هو أن يحلل الاختلاف وبذلك يكشف النظام الخفي للشخص موضع البحث.

إن الإجراء المستخدم بالشكل الأكثر شيوعاً هو العمل مع أزواج متغايرة من المجموعات، والشروع في معالجة الاختلافات زوجاً بعد زوج إلى أن تُحدَد جميع الفروقات. على سبيل المثال، كلمة pit تختلف عن كلمة pat، وكلمة tit تختلف عن كلمة tat. وحيث أن لفظ حرف p الأول وحرف t الأخير يُعتبران ثابتين في كلمتي pit و pat، فإن المتغيّر الوحيد هو حرفا i و a القصيران. والأمر نفسه يصحّ بالنسبة لكلمتي tit و tat، وهكذا. وبهذه المعلومة يكون من الممكن أن تركّب فرضية أن لفظي حرفي i وa القصيرين هما وحدتان صغيرتان وأن المتكلمين باللغة سيميّزون بينهما. علاوة على ذلك، إذا بُدِّل أحدهما بالآخر في كلمة ما، فإن الكلمة ستتغير. ومن هذه النقطة فصاعداً يُواجَه العلماء بقدَر كبير من العمل الشاق الروتيني. فالعالِم يتابع تحليله محتفظاً بكل شيء ثابت ما عدا المتغيّر الذي يحاول تحديده. يتم العمل باستمرار في نموذج تمثيلي لـ"كلمات" اللغة إلى أن يتضح أن جميع الفروقات الهامة التي صنعها

المتحدثون باللغة الأم قد تم تحديدها. يوجد في اللغة الإنجليزية المنطوقة 45 متغيّراً تجتمع لتشكّل كل المجموعات وتوافقياتها؛ 9 حروف علة، 3 أشباه أصوات لِيْن، 21 حرفاً ساكناً، 4 حروف تشديد، 4 طبقات صوت، 4 نقاط اتصال. ويوجد 26 متغيّراً فقط ــ حروف الأبجدية الـ 26 ــ المُستخدَمة في نظام الكتابة، بالإضافة إلى الوحدات الصغرى والنقاط وعلامات الاستفهام.

ولنلخص مناقشتنا عن الوحدات الصغرى: فمن الواضح جداً أنه نظراً لأنها أشياء تجريدية، وفقاً للتعريف، فإنه من الصعب وصف الوحدات الصغرى. ويبدو مفهوم الوحدة الصغرى أو حجر البناء أنه جزء متمم للتواصل البشري على كل مستوى. علاوة على ذلك، الوحدات الصغرى هي شيء يحاول البشر اكتشافه وتحليله باستمرار، سواء تم ذلك بوعي أو بدون وعي. إن المُصطلح وحدة صغرى هو كذلك مصطلح يُستخدَم ليسهّل الدلالة على نوع الحدث المقوِّم الذي يشرع في تشكيل أحداث أخرى، وهو دلالة على المستوى التحليلي كأي شيء آخر. على الرغم من ميل الوحدات الصغرى إلى الإندماج مع بعضها البعض، فإنها والمجموعات مختلفة تماماً في عدد كبير من المجالات. إن الوحدات الصغرى محدودة في العدد، في حين أن المجموعات محدودة فقط بالإندماجات الممكنة المُشكّلة للوحدات الصغرى. إنهم محصورون في نظام ويصبحون مجموعات فقط عندما يُخرَجون من ذلك النظام. من ناحية أخرى، يمكن معالجة المجموعات وفهمها خارج أنظمتها ولكن *تشتق معناها* من السياق الذي ترد فيه. وخلافاً للمجموعة

التي تُفهم بوضوح، فإن الوحدة الصغرى هي شيء تجريدي للحوادث التي تتجمع حول معيار معروف لدى أفراد ثقافة ما. إن الاختلاف الحقيقي بين وحدتين صغيرتين قريبتين من بعضهما البعض في عالم القياسات يمكن أن يكون أقل من مدى الاختلاف داخل المعيار لكل منهما؛ إن *النمط* الذي تحدثان فيه هو الذي يجعل الشخص قادراً على التمييز بينهما. على سبيل المثال، إن المتحدثين باللغة الإسبانية ذات اللكنة المكسيكية لا يمكنهم التمييز بين حرف i كما يرد في كلمة "dish" وحرف e كما يرد في كلمة "feet". بالنسبة لهم تلك هي متغيرات على اللفظ نفسه. عندما يتحدثون لا يعرفون أيهما ينطقون.

إن الإجراء لاختبار إذا ما كان أي عنصر معيّن في مجموعة ما وحدة صغرى هو أن تحتفظ بكل شيء ثابت وتغيّر العنصر كما تريد. فإذا غيَّر هذا معنى المجموعة يكون العنصر عندئذ وحدة صغرى. على سبيل المثال، إن الطريقة التي ينهي بها المرء تعبيراً ما يمكن أن تجعله إما تصريحاً أو سؤالاً بالاعتماد على ما إذا كانت طبقة الصوت ترتفع أم تنخفض. إن تغيُّر مقام الصوت ارتفاعاً في نهاية الجملة هو وحدة صغرى، وتغيُّر مقام الصوت هبوطاً هو وحدة صغرى أخرى. هذا ينطبق على اللغة الإنجليزية وبعض اللغات الأخرى القريبة ولكنه ليس عالمياً. شكل آخر لهذا النص هو ملاحظة الشيء الوحيد الذي يستمر في التغيير عندما يبدو أن كل شيء آخر تحت المراقبة ثابت. فإذا استلزم هذا التغيُّر اختلافاً في المعنى، عندئذ فإن المتغيّر يميل لأن يكون وحدة صغرى.

حتى الآن تم وصف الوحدة الصغرى بشكل أولي كجزء من تركيبة المجموعة. وهو كذلك أحد العناصر الرئيسة في النمط. علاوة على ذلك، يمكن الآن توضيح أن العمل الأساسي الذي تم حول الوحدات الصغرى الذي كان يبدو ذات مرة عادياً جداً، كان ذا قيمة كبيرة في تحليل النمط. توفر الوحدة الصغرى انتقالاً من المجموعة إلى النمط *وهي الوسيلة الرئيسة للتمييز بين الأنماط*. هذه الوحدة الصغرى، التي من الصعب الوصول إليها وتحديدها، اكتُشِف اليوم أنها المفتاح لقدر كبير من تحليل الاتصالات لأنها تعمل على ثلاثة مستويات في ثلاث طرق مختلفة: على مستوى المجموعة كجزء أساسي (ك -ع -ك -ة = كعكة)؛ وعلى مستوى الوحدة الصغرى كمجموعة (*كل لفظ* مكوَّن من أجزاء) يحللها عالم تمثيل الأصوات؛ على مستوى النمط كمميّز للأنماط. لذا، فإن عجز المتكلِّم عن التمييز بين حرفي V و W في أول الكلمة تكشف أنه اسكندنافي. وبشكل مشابه فإن تحويل ألفاظ oy وer في كلمتي "oyster" و "birds" بحيث تصبحان مثل "erster" و "boids" كان نمطياً في عقول معظم الأمريكيين بالنسبة للمتحدثين باللغة الأم لمدينة بروكلين.

8

النمط المُنظِم

الأنماط هي تلك القواعد الثقافية الضمنية التي بواسطتها يتم ترتيب المجموعات بحيث تتخذ معنى. يُعرف القليل جداً عن الأنماط وكيف تعمل. من الصحيح أن القواعد التي تصحّ بالنسبة لعدة مظاهر للثقافة يمكن أن تورد على سبيل المثال، ولكن ليس هناك نظرية للنمط، وليس هناك تفسير لكيف يقوم الشخص بتحليل ووصف الأنماط.

في هذا الفصل سأوضّح عدداً من النقاط التي تم سابقاً الإشارة إليها فقط. بعض هذه النقاط تخترق أنظمة معتقداتنا بعمق وتمثّل انحرافات جذرية عن طرقنا الشائعة في التفكير والعمل. والأمر الأكثر أهمية هو أنه لا يوجد نظرياً شيء مثل "تجربة" كنمط منفصل ومختلف عن الثقافة. فالثقافة ليست مشتقة من الخبرة ولا تُعرَض على مرآة الخبرة. علاوة على ذلك، لا يمكن أن تُختبَر مقابل شيء غامض يُعتبَر على أنه خبرة. *الخبرة*

هي شيء يُسقطه البشر على العالم الخارجي عند اكتسابهم لها بشكلها المُحدد ثقافياً.

هناك سلسلة أخرى من النقاط الرئيسة التي أرغب في التأكيد عليها وهي أن هناك قوانين تحكم النمط: قوانين الترتيب والانتقاء والانسجام.

إن فكرة أن الشعب كمخلوقات ثقافية مقيدون بقوانين مخفية وليسوا أسياد مصائرهم يمكن أن تأتي كصدمة للبعض - لقد كان من الصعب دائماً قبولها. الشيء الوحيد الواضح جداً هو أن الناس مقيدون طالما بقوا جاهلين لطبيعة الطرق المخفية التي تزودهم بها الثقافة. وبالنسبة للأسئلة التقليدية حول الإرادة الحرة والحتمية[1] والشخصية الفريدة التي يميل المواطن العادي إلى عرضها عندما يواجه مفهوم عالم بقوانين خفية، يمكن لعالم الإنسان أن يعطي جواباً مقنعاً. وبالطبع هناك دوافع تظهر وكأن لها أصولاً مستقلة من الداخل، ولكن حتى هذه يتم تغييرها جذرياً بالثقافة حيث يُعمد إلى استخدامها تحت ظروف متحكَّم بها. فالرجل الذي ينجذب إلى إمرأة قد يرغب في دعوتها إلى موعد. والخيار في أن يفعل ذلك أم لا هو أمر من شأنه. وما ليس من شأنه أن يقرره تماماً هو اللغة التي سيستخدمها، والهدية التي سيقدمها لها والساعات التي يمكنه الاتصال فيها والملابس التي يمكنه أن يرتديها، والحقيقة هي أن المرأة لها الكلمة الأخيرة في هذا الشأن في الولايات المتحدة. والأمريكي في هذه الأيام لن يفكر عادة بانتقام الأخوة

---

(1) الحتمية: مذهب يقول بأن أفعال المرء والتغييرات الاجتماعية هي ثمرة عوامل لا سلطة للمرء عليها.

كثمن لرؤية إمرأة دون إذن من أهلها، ولن يخطر في باله أنها يمكن أن تفقد حياتها إذا اختارت أن تكون على علاقة جنسية غير شرعية معه. هذه ليست "بدائل" يمكن أن تخطر له أثناء قيامه بالتفكير باختيار الأساليب المتوفرة لديه. إن موت المرأة والانتقام من الرجل هما ضمن المدى المتوقع للسلوك في الأجزاء الأقل تأثراً بالثقافة الأوروبية من العالم العربي. هذا النوع من الأمثلة واضح جداً وهو نمط الفكرة التي تم وضعها عدة مرات ورُفضَت عدة مرات كذلك. إن تفسيرنا الطبيعي هو أنه أمر "غير حضاري" أن يقوم الشخص بقتل أخته فقط لأنها كانت على علاقة جنسية غير شرعية مع رجل. إن ما لا نعرفه غالباً ونجد صعوبة في قبوله هو أن مثل هذه الأنماط تتلائم مع أنماط إجمالية أكبر وأن ما تتم حمايته ليس حياة الأخت (بالرغم من أنها يمكن أن تكون محبوبة جداً) ولكن مؤسسة اجتماعية مركزية والتي بدونها كان المجتمع سيفنى أو يتغيّر جذرياً. هذه المؤسسة الاجتماعية هي الأسرة. والأسرة في الشرق الأوسط مهمة لأن الأسر مترابطة مع بعضها في مُنشأة وظيفية متماسكة. إن الشبكة (والالتزامات) المرافقة توفر العديد من الوظائف نفسها التي توفرها حكومتنا. إن الأخت هي رابطة مقدّسة بين العائلات، ومثل القاضي في ثقافتنا، فهي يجب أن تبقى بعيدة عن العار. لذا، فمن الضروري عادة أن نلقي نظرة أخرى على الاختلافات الأكثر وضوحاً في السلوك لأنها غالباً ما تُخفي، أو تنشأ من، اختلافات أساسية أكثر والتي بُديء بدراستها للتو: الاختلافات التي تحكم السلوك بطريقة لم يُحلَم بها قط، والتي هي ليست أعرافاً تدل ضمناً على خيار ولكنها قوانين راسخة ليست معروفة كقوانين نهائياً.

إن (بنجامين ورف)، الذي استخدم اللغة كهدف لأبحاثه، لديه الكثير ليقوله عن القوانين المتعمقة التي تحكم التفكير والسلوك. في الحقيقة أنه، كان أحد الأوائل في الحديث تقنياً حول المعاني الضمنية للاختلافات التي تؤثر في الطريقة التي يختبر المرء فيها العالم. وحتى وقت قريب كان يُعتقَد أن الشيء الذي يتشارك به المرء مع الآخرين بصرف النظر عن الثقافة كان *الخبرة*. ومع ذلك، يبدو من المشكوك فيه فعلاً الآن أن الخبرة مشتركة أو أنه يوجد شيء ثابت يستطيع المرء أن يدعوه خبرة يمكن أن يحكم أو يقيس بناءً عليها كل شيء. يمكن القول عن جميع الثقافات بأنها مترابطة مع بعضها البعض على صعيد النمط. ويوجد تراكم متنام في الأدلة التي تشير إلى أن الجنس البشري ليس لديه اتصال مباشر بالخبرة بحد ذاتها بل أن هناك مجموعة متداخلة من الأنماط التي توجه حواسه وأفكاره، جاعلة إياه يستجيب بطريقة ما بينما سيستجيب شخص آخر ذو أنماط ضمنية مختلفة كما تمليه عليه خبرته.

يقدم الأمريكيون والإسبان في مصارعة الثيران مثالاً مألوفاً عن كيف أن مجموعة الظروف نفسها يمكن أن تُختبَر بشكل مختلف. فالأمريكي يختبر الخوف الذي كان سيصيبه لو كان في حلقة المصارعة؛ والإسباني، بطريقة تقمصيّة، يختبر المتعة في السيطرة التي يمارسها مصارع الثيران على الثور. أو لنأخذ الحقيقة القاسية للموت كمثال آخر: تقول (كورا دي بوا)، عالمة الإنسان المشهورة، إن شعب (آلور) يعتبرون شخصاً آخر ميتاً قبل وقت طويل مما قد يعتبره الأوروبيون كذلك وغالباً يدفنون الأشخاص

الذين نعتبرهم نحن مايزالون أحياء. وفي حديثه عن مدينة (تانالا) في مدغشقر، وصف (رالف لينتون) كيف أن ما ندعوه موتاً يُفهَم كفرضية لحالة جديدة تتضمن مشاركة فعالة في الحياة. فالمرأة يجب أن تحصل على الطلاق من زوجها الميت لكي تتزوج شخصاً آخر. وللكثير من ذلك سيقول القارئ: "نعم، بالطبع، ولكن أولئك الناس لا يعرفون أفضل من ذلك، إنهم متخلفون وجاهلون وليس لديهم علوم. إنهم لم يتقدموا كما تقدمنا. ماذا يمكنك أن تتوقع من بدائيين غير ذلك؟" وعلى هذا يمكن للمرء أن يجيب: "نعم، ولكن الحياة والموت هما تجربتان موضوعيتان ولذلك يجب أن تكونا متماثلتين ـ أياً كانت الثقافة." والحقيقة تبقى أنهما ليستا كذلك.

كان (ورف) مهتماً بالطبيعة اللاواعية للفرضيات الضمنية التي يعتمد عليها كثير من تصرفاتنا. ويطوّر هذه الفكرة في جزء من مقالته، "العلوم واللغويات":

نحن نحلل الطبيعة على طول خطوط موضوعة بواسطة لغاتنا الأم. إن الأصناف والأنواع التي نعزلها عن عالم الظاهرة لا نجدها هناك لأنها تحدّق في وجه كل مراقب، على العكس من ذلك، فالعالم يُعرض في تدفق مشكالي[1] للإنطباع الذي يجب أن يُنظّم بواسطة عقولنا ـ وهذا يعني إلى حد كبير من قِبل الأنظمة اللغوية في عقولنا. إننا نجزئ الطبيعة، وننظمها في مفاهيم، وننسُب الأهميات أثناء قيامنا بذلك، لأننا مشاركون إلى حد

---

(1) المشكال: أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان.

كبير في اتفاقية لتنظيمها بهذه الطريقة ـ اتفاقية تستمر على طول حديثنا المشترَك وتُصنَّف في نماذج لغتنا. الاتفاق بالطبع هو اتفاق ضمني وغير مصرّح به، *ولكن شروطه إجبارية كليّاً*، ولا يمكننا الحديث نهائياً إلا عن طريق الاشتراك في التنظيم وتصنيف المعلومات التي يقضي بها الاتفاق.

هذه الحقيقة مهمة بالنسبة للعلوم الحديثة، لأنها تعني أنه لا يوجد أي فرد حر *في وصف الطبيعة بنزاهة مُطلَقة* ولكنه مُجبَر على أنماط معينة في التفسير حتى عندما يعتقد نفسه حراً إلى أقصى حد.

في مقال آخر عنوانه "اللغويات كعلم دقيق"، يتابع (ورف):

. . . نحتفظ جميعنا بصورة خادعة عن الحديث، وهم بأن الحديث غير مقيّد وتلقائي إلى حد بعيد و"يوضّح" فقط أي شيء نرغب أن نجعله واضحاً. هذا المظهر المضلل ينتج من حقيقة أن الظاهرة الإجبارية المضمَّنة في تدفق الحديث الذي يبدو حُراً تكون مستبدة تماماً حيث يُحجَز المتحدث والمستمع وكأنهما في قبضة *قانون الطبيعة*. [الخط المائل خاص بي].

إن المعاني المتضمنة لتلك التصريحات تندفع عميقاً جداً حقاً. أحد المعاني هو أنه حالما نكون قد بدأنا نفهم شعباً آخر بإتقان لغته، فإننا سنظل نجد حواجز خفية تفصل شعباً عن آخر.

ومع ذلك توجد طريقة للتغلب على هذه الحواجز الخفية.

فيما يتعلق بمناقشاتي السابقة عن المجموعات والوحدات الصغرى، فإن أبسط تعريف للنمط يمكن أن يصل إليه المرء كان ما يلي: النمط هو

ترتيب ذو معنى للمجموعات. ما لم يتم ذكره هنا هو أن النمط يكون ذا معنى فقط إذا تم تحليله في مستواه الخاص به. على سبيل المثال، إن فونيم اللغوي هو ترتيب ذو معنى لمجموعات بالنسبة للغوي ولكن ليس بالنسبة للشخص العادي. وديكور غرفة معيشة مُنَفَذ بذوق جيد هو ترتيب ذو معنى لمجموعات بالنسبة لنساء ينتمين إلى الجماعة نفسها وعلى وعي بفن ديكور غرفة ما. والرجال على الأرجح ينظرون إلى الغرفة كمجموعة، ليروها كشيء واحد وليستجيبوا للتأثير الكلّي. إن ما لا يرونه، والذي تراه معظم النساء، هو التفاصيل. إن التفاصيل التي في النمط هي التي تُخبر إمرأة ما العديد من الأشياء عن إمرأة أخرى. بالنسبة لغالبية الناس الحصان هو الحصان، ومع ذلك فإن المدرِّب المتمرِّس في شراء وبيع الخيول يتفحَّص عدداً من المجموعات مثل الطول والوزن وطول الجذع وسماكة الصدر وعمقه وتركيبة الرقبة والرأس والوقفة وحالة الجلد الخارجي والحوافر والمشية. هذه الصفات تُرى كوحدات صغرى بالنسبة للشخص غير الخبير، ولكن بالنسبة للخبير فإن كل وحدة صغرى تُرى على صلة بباقي الأجزاء الأخرى. ويَجمع الكل نمط أوحكاية أو صورة الحصان. هذا يعني أن الخبير يضع هذا الحصان في نمط مع باقي الأحصنة المماثلة، تماماً كما يقيّم ذوّاق الخمر "نوعيات" الخمر. الشيء المهم تذكره هو أن النمط يُرى كنمط فقط إذا تم فحصه على مستواه نفسه وبدون إهمال ذلك المستوى.

إن نمطاً معيناً يكون واضحاً فقط لفئات معينة من الناس. فالرجل يرى شيئاً ما في غرفة ما، والمرأة ترى شيئاً آخر، والخادمة شيئاً ثالثاً. هذا

يعـني أن هنـاك علاقـة بـين النـاس والأنمـاط . في الواقـع، يمكـن تحديـد المجموعات حسب علاقة أفرادها بنمط معيَّن . ويتشارك أفراد جماعة ما بالأنماط التي تمكِّنهم من رؤية الشيء نفسه وهذا يوحدهم . وفي ضوء هذا التحليل يكون من الضروري أن نوسِّع تعريف النمط . يجب أن يُفسر الآن كما يلي : النمط هو ترتيب ذو معنى للمجموعات تتشارك به فئة ما .

الأنواع الثلاثة للنمط

في بداية القرن كان رجال الأعمال اليابانيون يحضرون إلى هذا البلد بأعداد كبيرة . ومثل جميع المسـافرين ، كـانوا يجدون صعوبة في تكييف أنفسـهم . يقـال إن أحدهم ألَّف كتاباً لرجـال الأعمـال اليابـانيين الآخـرين الذين قد يسافرون إلى أمريكا . وفي تفسير المقطع التالي ، يجب تذكُّر أن المركز النسبي هو المفتاح لكثير من حياة اليابانيين . هذا النظام الهرمي هو نظام رسمـي ، ومع ذلـك فكـثير مـن القـوانين تقنيـة . لـذا ، فـالأمر لا يـأتي كمفاجأة أن نجد كاتبنا اليابـاني يفتـتح كتابـه بإعلام قرائـه بـأن الحيـاة الأمريكية مليئـة بالشـكليات ولكـن تلك الشـكليات معقـدة جداً بحيـث لا يمكـن لأي أجنبي أن يأمـل بـأن يتقنها أبـداً . ومـع ذلـك فقـد قـدَّم الكاتـب بشـجاعة دلـيلاً للتوجيـه عـن طريـق الشـرح بأمثلـة للسـلوك الـذي يمكـن اتباعـه . ويوضِّـح أنـه عنـدما يتقابـل رجـلا أعمـال أمريكيـان ، فإنـه يوجـد الكـثير مـن الضـجة ، فهمـا يضـربان بعضـهما علـى الظهـر ، ثـم وكأنهمـا يتحـدثان بالإشـارة يحـاولان الوصـول إلى سـيجار يقدمانـه لبعضـهما . وسيرفض كل من الرجلين سيجار الرجل الآخـر ، ولكـن في النهايـة سـيقبل الرجل ذو المركز الأدنى سيجار الرجل ذي المركز الأعلى .

وبالرغم من هذا التحليل الغريب، فإن معظمنا يعرف النمط. إنه نمط غير رسمي ينقرض. ولكننا نعرف كذلك أن جزءاً من النمط هو أن الأعلى مركزاً سيقبل سيجار الأقل مركزاً إذا كان الأقل مركزاً في طريقه إلى المركز الأعلى ـ والإشارة بالنسبة له هي أن "الرجل الكبير" يدرك ذلك. إن التأكيد الهرمي الذي أعطاه المراقب الياباني لهذا النمط يقترح سمة أخرى لطريقتنا في الحياة والتي تتميّز ظاهرياً بنمط ضمني رسمي للمساواة. إنه يشير إلى حقيقة أنه لدينا أيضاً نظام مراتب معقد جداً ومشكّل بشكل غير رسمي. إن العدادات على سلّم النظام الدرجي المتحرك كثيرة جداً ومتنوعة بشكل رائع بحيث أنه بينما يتمكن الشخص العادي من استخدام النظام فإنه لا يمكن أن يصف كيف يعمل تقنياً. إن العديد من الروايات الأمريكية الحديثة مثل *الرجل ذو البدلة الصوفيّة الرمادية* حاولت أن تصف جزءاً واحداً من هذا النظام. إن المركز، في الحقيقة، هو الخيط الثابت لأجزاء هذه الرواية الأمريكية. أحد المواضيع هو استغلال الصراع بين نظام المراتب غيرالرسمي ونمط المساواة الأساسي. وموضوع آخر يعالج شخصيات ترتقي بسرعة كبيرة، ويجدون أنفسهم عالقين في أنماط غير مألوفة، ويُعاقبون لعدم إطلاعهم.

إن الأنماط الرسمية في أمريكا تعتبر أنه عندما نريد أن نعبر عن مرح فإننا نضحك، ولنعبر عن حزن نبكي. وعلاوة على ذلك، فإنهم يصرون على أنه من الأسهل بكثير على النساء أن يضحكن ويبكين مما هو الأمر بالنسبة للرجال. في اليابان، كما اكتشف عديد من الأمريكيين، فإن

الضحك لا يعني دائماً أن شخصاً ما سعيد. فقد يعني أنه مرتبك. والبكاء كذلك قد لا يعني بالضرورة أن شخصاً ما حزين. وعندما يحاول عالم الاجتماع أن يوضّح الأنماط الرسمية، ويكون في حالة الضرورة مقتصراً على جزء من اتصال مقتطع من سياق ما، فيجب عليه أن يتعامل مع أشخاص يجدون متعة كبيرة في قول أشياء مثل: "نعم، ولكن شعب الولايات المتحدة يبكون عندما يكونون سعداء أيضاً." هذا صحيح تماماً. ولكن الحقيقة هي أننا نعتقد بأنه من الـ"طبيعي" أن نبكي عند الحزن ونضحك عند الفرح. ولحسن الحظ، كما أشرت سابقاً، فإن الأنظمة الرسمية تقدِّم غالباً قدراً كبيراً من التفاوت في الطريقة التي يمكن أن يُعبَّر بها عنها. والحدود عادة تكون معروفة جيداً بالنسبة لكل من له علاقة، وطالما أنها لا تُنتهك فيوجد مدى للاختلاف مسموح به. إن الاختلاف الرئيس بين الألماني والنمساوي يوضّح هذه النقطة. يميل الألمان لأن يكونوا أكثر تقنية في القيود التي يضعونها على أنفسهم من النمساويين الذين يكونون أكثر رسميّة. النتيجة هي أن النمساوي يظهر على أنه متمهّل أكثر. إنهم أكثر استرخاءً بشأن معظم الأشياء، وهذا يمنحهم حرية أكثر إلى حد ما، شريطة أن يبقوا داخل حدود معينة ومقررة جيداً. من ناحية أخرى، يضع الأمريكيون القليل نسبياً من القيود التقنية والرسمية على أنفسهم ولكنهم مثقلون بقيود غير رسمية. هذا يعني أن الأمريكيين معرَّضون لأن يكونوا محبطين تماماً لأنه لا يمكنهم التصريح بوضوح ما هي القوانين. يمكنهم فقط الإشارة إليها عندما يتم انتهاكها.

لقد ألمحت سابقاً إلى الاختلافات بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط في فن المساومة. ويستحق المثال مزيداً من التوسُّع. إن نمط الأمريكيين في المساومة يستند إلى فرضية أن كل طرف لديه نقطة عالية ونقطة منخفضة مخفيّة (ماذا كان سيرغب بأن يحصل عليه وعلى ماذا سيستقر). إن مهمة المساومة هي أن تكتشف، إن كان ممكناً، ما هي وجهات نظر الخصم دون إظهار المرء لوجهات نظره. سيسأل الأمريكي في الشرق الأوسط، معطياً فكرة عن نمطه غير الواعي: "أي نسبة من السعر سأقدم ؟" هذا يعني: "إذا طلبوا عشرة جنيهات، هل سيستقرون على خمسة؟" هذا الإجراء ليس خاطئاً فقط ولكن يمكن أن ينتهي بمشكلة. إن المبدأ الذي يجب تذكُّره هو أنه بدلاً من أن يكون لدى كل طرف سعر عالٍ وآخر منخفض، هناك حقيقة نقطة رئيسة *واحدة* فقط، والتي تكمن في مكان ما في الوسط. تماماً مثل آخر تحديد أسعار في سوقنا المالي، ولا تُقرَر هذه النقطة من قِبل الطرفين فقط ولكن من قِبل السوق أو الحالة. هناك وحدة صغرى مهمة في هذا النمط وهي أن السعر لا يُحدَد أبداً من قِبل الشخص أو رغباته، ولكن يُحدد دائماً من قِبل مجموعة ظروف معروفة للطرفين. وإذا لم تكن معروفة فيُفترض أنها كان يمكن أن تُعرف. ولذلك تتأرجح المفاوضة حول محور مركزي. إن الجهل بموقع المحور يُبدي للشخص أسوأ نوع من الاستغلال كما يفقده ماء وجهه. و لا يهم ما إذا كان عصيراً في دكان أو سد كهربيمائي في السوق العالمي. فالنمط يبقى ثابتاً. توجد فوق وتحت النقطة المركزية سلسلة من النقاط التي تعبِّر باختصار عما يشعر به كل من الطرفين أثناء دخولهما إلى الميدان.

وفيما يلي كيف وصف عربي من دمشق هذه العملية. كانت النقطة المحورية ستة قروش، و هي ثمن العصير في اليوم الذي كان يصفه. كانت هناك أربع نقاط أعلى وأدنى منها. أياً من النقاط الأعلى كان يمكن أن يكون السعر الأول المطلوب من قِبل البائع. وأي نقطة من النقاط الأربع الأدنى تمثل أول عرض مُقدَّم من قِبل المشتري المحتَمَل. إن المعنى الخفي أو الضمني لهذه الشيفرة معطى مقابل كل خطوة على السلّم في أسفل الصفحة. هذا المعنى ليس دقيقاً ولكنه يقدِّم دليلاً على مواقف الطرفين أثناء دخولهما في عملية المساومة.

قـرشـا

12 أو أكثر جهل تام من طرف البائع.

10 .... إهانة، يتلوها جدال ومشاجرة، البائع لا يريد أن يبيع.

8 .... سأبيع ولكن لنستمر بالمساومة.

7 .... سأبيع أقل من السوق.

6 .... سعر السوق (المحور).

أسعار مطلوبة من البائع

5.......... المشتري يريد العصير فعلاً، سيدفع أعلى من السوق.

4.......... سيشتري.

2.......... مجادلات ومشاجرة، المشتري لا يريد أن يشتري.

1.......... جهل بقيمة السلعة من جانب المشتري.

أسعار معروضة من المشتري

عند أخذ اختلاف المعنى المُرافِق لفرق قرش واحد بالاعتبار، يبدو السؤال: "ما هي النسبة التي أعطيها على سعر الطلب؟" لا معنى له. أي سعر طلب؟ سعر القيام بعمل تجاري أم سعر عدم القيام بعمل تجاري أم سعر طلب القيام بمشاجرة؟ هناك أشكال أخرى لهذا النمط لديها خمس أو ست نقاط أعلى وأدنى الخط، كل منها له معناه الخاص.

لا يستطيع المرء أن يقلل من شأن مثل هذه الأنماط والسيطرة التي تمتلكها على الناس وفي جميع المستويات. في مناقشتنا لموقفنا في مصر أثناء ومباشرة بعد فشلنا في قضية سد أسوان وقبل تدهور وضعنا في الشرق الأوسط بشكل سيء جداً، عبَّر عربي متعاطف مع قضيتنا عن ذلك بهذه الطريقة: "إذا لم تعطِ القليل في المساومة، فإن الشخص الآخر سيتراجع. إذا تقدَّم خطوتين، يجب عليك أن تتقدَّم خطوتين، فإذا لم تتقدَّم فإنه سيتراجع أربع خطوات." لم نعطِ خطوتينا فتراجع جمال عبد الناصر أربع خطوات.

عندما يُحتمَل أن تعتمد أحداث بمثل هذه الأهمية على مثل هذه الاستنتاجات البسيطة فإنه يبدو واضحاً أن أحد التطورات الواعدة في حقل البينثقافي يتعلق ببحث موجه نحو إحضار أنماط غير رسمية إلى الوعي. إن هذا العمل، من عدة أوجه، هو الأكثر دقة ومشقة وصعوبة. حتى أفضل الرواة لا يمكنهم أبداً وصف الأنماط غير الرسمية على الرغم من أنهم ولِدوا ونشأوا في ثقافة وكانوا متنبهين لتلك الأنماط. إن العلماء الذين يعملون في الغموض ويوجدون فرضيات حول ما يعتبرونه أنماط سلوك

ثابتة ثم يختبرون الفرضيات إلى أن يتأكدوا بأنهم ثبَّتوا واحدة منها. إن عملاً من هذا النوع مُعزز جداً بسبب الإحساس الحقيقي للاكتشاف. وبمجرد أن يتم وصف نمط غير رسمي بشكل ملائم عندئذ يمكن أن يُفهَم من قِبل الآخرين في الثقافة نفسها بسرعة البرق تقريباً طالما أنه كان قد تم اكتسابه سابقاً. وبجعله واضحاً فكلِ ما يقوم به العالِم حقاً هو أن "يصيغه بكلمات"، مما سيجعل تعلُّم الأنماط غير الرسمية أسهل.

إن معظم الصعوبات في مدارسنا اليوم تنشأ من حقيقة أن المعلّم يحاول أن يغرس في الذهن ويعلّم الأنماط المحللة جزئياً أو بشكل غير صحيح. وفي حالات كثيرة ببساطة لا يلائم الوصف التقني الحقائق. فبدلاً من الحصول على رنين جرس مألوف للطفل يوجد من غير ريب رنين غريب. في الحقيقة أن معظم ما يسمعه الطفل يخالف كل شيء كان قد تعلمه خارج غرفة الصف. وقدَر كبير من المحتوى الذي تم تعلمه تحت عنوان "قواعد" يندرج في هذه الفئة. لنأخذ الاختلاف بين "can" و "may" الذي يقضي المعلمون وقتاً طويلاً وهم يحاولون أن يغرسوه في أذهان الأطفال. قد يبدو أن هذا الاختلاف تطوّر أصلاً بشكل غير رسمي وكان مرتبطاً بالجنس، فالرجال والأولاد كانوا يقولون "can"، والنساء والبنات كن يقلن "may". "May" كانت تُلفَظ طبيعياً بشكل أكثر نقاءً بالنسبة للنساء لذا فهن كن يصررن على خداع الرجال بها مع كثير من الكلام غير المفهوم عن الممكن وغير الممكن. في الوقت الحاضر، ومع محاولة بعض النساء أن يكنَّ كالرجال، وبعض الرجال يقومون أكثر وأكثر بأشياء

اعتادت النساء القيام بها، فإن may-can اختلطت الآن كثيراً بحيث أصبح من الممكن تقريباً لأي منهما أن تُطبَّق في الكثير جداً من المواقف.

إن تمييز can-may يوضِّح واحداً من الأنواع العديدة المختلفة للأنماط غير الرسمية التي توجد في لغتنا. وهناك نوع آخر مرتبط مع استخدام ما يُعرف تقنياً بـ سوبرفيكس والذي تم تعريفه لأول مرة من قِبل (تراجر). إن القارئ على معرفة بالبوادئ واللواحق (prefixes) و(suffixes) التي تُضاف إلى بدايات ونهايات جذور الكلمات. والسوبرفيكس، كما تدل الكلمة، يكون عادة فوق أو أعلى الكلام.

وبتعريف السوبرفيكس، رفع (تراجر) فئة قواعدية كاملة وأحداثاً أخرى من النظام غير الرسمي إلى التقني. إن ذلك التكتُّل للألفاظ المعرَّف بشكل سيء والمهم جداً والمعروف بـ "نبرة الصوت" قد بدأ بالإنحلال بتحديد السوبرفيكس. إن الفرق بين الوصفي والإسمي يُشار إليه عن طريق استخدام السوبرفيكسات، وفي هذه الحالة هو الدرجات المتنوعة للارتفاع أو التشديد. على سبيل المثال، في اللغة الإنجليزية الفرق بين بيت أخضر (green house) أي لونه أخضر، وبين بيت بلاستيكي حيث تُزرع النباتات وتنمو (greenhouse)، و بيت (غرين) (Green house) أي البيت الذي يمتلكه السيد والسيدة غرين هو مجرد وظيفة لتغيير التشديد. واللغة الفرنسية، تصادفياً، لا تتشارك بهذا النمط معنا ولا يمكن أن نسمع الفرق بين هذه التعابير الثلاثة. إن قوانين القواعد للغة الإنجليزية، عندما تظهر في آخر الأمر، يمكن أن تصوّر التعابيرالنعتية بحسب نمطها في التشديد فيما يتعلق بالمواضيع الأخرى.

لن يكون من الصواب أن نلوم النحويين السابقين لأنهم لم يحللوا جميع الأنماط غيرالرسمية للغة أو لأن معظم ما حللوه قصّر عن بلوغ مستوى الفعالية. يجب أن نميز بين أنواع الأنماط الثلاثة لكي نساعد في سند نظامنا التعليمي الضعيف وكذلك من أجل طمأنينة أطفالنا. يمكن تعلُّم الأنماط الثلاثة كلها أو تعليمها ولكن بطرق مختلفة تماماً. كما تم ذكره، فإن أفضل طريقة لتعلُّم نمط غير رسمي هي عن طريق اختيار نموذج جيد ونسخه بأكبر دقة ممكنة. بينما الأنماط الرسمية، كما ذكِر سابقاً، يتم تعلمها بقاعدة سلوك وبالتذكير. والأنماط التقنية تُشرَح.

بالإضافة إلى عزل أنواع الأنماط الثلاثة الرئيسة، اكتشفنا (تراجر) وأنا أنها جميعها تبدو وكأنها مربوطة بثلاثة قوانين: قوانين *الترتيب* وقوانين *الإنتقاء* وقوانين *الانسجام*. ويجب التأكيد أنه ربما توجد قوانين إضافية تحكم تشكيل الأنماط التي لم تُكتشَف بعد. ويبدو أن هذه الثلاثة تقدِّم البداية.

الترتيب

إن قوانين الترتيب هي تلك القوانين التي تحكم التغييرات في المعنى عندما يتغيّر الترتيب. "القطة أمسكت الفأر" تعني شيئاً مختلفاً بوضوح عن "الفأر أمسك القطة". كانت الخطيئة العظمى في القرون الوسطى هي قول القداس الأسود الذي كان فيه ترتيب الطقس الديني معكوساً. أي شخص صاحب مهنة في أي من فنون الاتصال يكون مطلعاً تماماً على تأثير

إعادة ترتيب الكلمات والجمل والفقرات من جديد . وتحت مستوى الجملة، يكون الترتيب الذي توضع به الألفاظ مع بعضها البعض هو أساس تشكيل الكلمات. إن الكلمات التي تعطي المعنى نفسه سواء قرأتها بالشكل الصحيح أم بالعكس(من البداية حتى النهاية أو من النهاية إلى البداية) هي انحرافات سائغة عن قاعدة الترتيب اللفظي، كما هي الكلمات التي لها معنى حقيقي عندما تُقرأ بالعكس. يُستخدَم الترتيب بشكل مختلف في ثقافات مختلفة. بالنسبة لنا هو جزء أساسي من نظامنا النحوي. ويجب أن يُلاحَظ أنه بينما يكون الترتيب ذا أهمية كبيرة على مستوى الجملة في اللغة الإنجليزية، فهذه ليست هي الحالة في اللغات التي تصرِّف الفعل مثل اللاتينية والإنجليزية القديمة في زمن (آلفرد) . إن للترتيب أهمية كبيرة في أنظمة ثقافية أخرى بالإضافة إلى اللغة: ترتيب الإنجاب وترتيب الوصول وترتيب في الدور للحصول على بطاقات. ويطبَّق الترتيب على وجبات الطعام. فكِّر ملياً كيف كان سيبدو الأمر عندما تبدأ الغداء بقطعة حلوى ثم تتحوّل إلى البطاطا ثم المقبلات والقهوة والسلطة ثم تنهي باللحمة.

يتغلغل الترتيب في كل نشاط تقريباً في ثقافة كثقافتنا . ومع ذلك ففي بعض الثقافات الأخرى يمكن للنشاطات التي يكون فيها الترتيب مهماً أن توضح اختلافات نمط أساسية بين الثقافات. إن ربات البيوت الأمريكيات اللواتي يجب عليهن تدريب خادمات في الخارج، جمعيهن مطلعات على صعوبة غرس أنماط الترتيب الأمريكية في أذهانهن، الترتيب

الذي يجب أن يتم فيه تقديم وجبات الطعام أو الجدول الأسبوعي للتنظيف المنزلي. أي شخص استمع إلى الأعداد المتزايدة دائماً من الأمريكيين الذين عاشوا في الخارج، ربما سمع حكاية عن خادمة تظهر فجأة في منتصف إحدى الوجبات ومعها كعكة عيد ميلاد مضاءة. باختصار، إن موقع الذروة لأي حدث يختلف حول العالم.

إن فهم الاختلافات في الترتيب هو العنصر الرئيس في العمل في الخارج. يعرف الأمريكي أن الترتيب الذي يصل فيه الناس إلى المطعم في بلده يُفترض أن يُحدد متى سيتم تقديم الخدمة لهم، وأن الترتيب الذي يتم توظيفهم به يملي متى يُسرَّحون. بالنسبة للأمريكيين، أن تكون الأول يعني أن تكون أكثر استحقاقاً. إذا كان الأمريكيون يجلسون حول طاولة في مطعم لبعض الوقت وتم تقديم الخدمة لواصل متأخر قبل تقديمها لهم، فإن ضغط دمائهم سيرتفع بشكل ملحوظ. ومع ذلك فالترتيب في حالات مثل هذا النوع في معظم الأماكن خارج أوروبا هو أمر غير معروف. وبدلاً من ذلك تُطبَّق قوانين الانتقاء، بمعنى أن تقديم الخدمة يعتمد على مركز الشخص.

نوع آخر من الترتيب هو ترتيب المجتمعات مثل (بويبلو) في نيومكسيكو وفي آريزونا حيث يحدد العُمْر (ترتيب المولِد) المقام والمركز والاحترام ومراعاة الرغبات. إن النقطة الرئيسة هي أن المجتمعات سترتب الناس أو الحالة أو المنزلة الاجتماعية في الحياة، ولكن ليس الثلاثة في الوقت نفسه.

الانتقـاء

يضبط الانتقاء ضم مجموعات يمكن أن تُستخدَم مع بعضها فنقول: a boy و an arm. وكلمتي struck و stricken توضحان حالة أخرى حيث يُرى قانون الانتقاء وهو يعمل. ونقول لقد كان "ممتلئاً رعباً" (awestruck) ولكن يمكن أن نقول كذلك لقد كان "مصاباً بالبكم" (stricken dumb). قد نُصدَم بسيارة (struck by a car)، ولكننا دائماً مصابون بالحزن (stricken with grief). لا يوجد منطق ملازم للانتقاء. إن أكثر ما يمكن أن يقوله الشخص هو أنه في حالة كذا وكذا فإن الانتقاء يعمل كما يلي ويصوغ الفئة عموماً. على سبيل المثال، لماذا يجب أن نقود السيارة على اليمين والإنجليز على اليسار؟ مثل باقي الثقافة، فإن أنماط الانتقاء تتغير مع الوقت. فمثلاً كان هناك وقت لبس فيه الرجال مجوهرات أكثر وملابس فاخرة أكثر مما يفعلون الآن.

توجد لكل نمط نقاط معينة يُطبَّق عليها الانتقاء، تماماً كما توجد نقاط أخرى يُعمد فيها إلى استخدام الترتيب. إن ما يمكّننا من التمييز بين الأنماط هو أنها لا تستخدم الانتقاء والترتيب بالطريقة نفسها.

تم ذكر الترتيب على أن له دوراً مهماً في نمط طعامنا. والانتقاء كذلك يلعب دوراً مهماً ولكنه مختلف. فطعام الإفطار يتكّون عادة من عدد من المواد المختارة من قائمة محدودة لأشياء صالحة للأكل: فواكه وعصيرها، حبوب الفطور بأنواعها المختلفة، توت، لحم مقدَّد، سجق،

بيض، فطائر محلاة، كعكة الوفل، لفائف، خبز محمص، زبدة، مربى، قهوة أو شاي أو حليب. واعتماداً على المنطقة في الولايات المتحدة يمكن أن تصبح أصناف أخرى جزءاً من هذا النموذج ـ كالجريش في الجنوب والبطاطا المقلية في الغرب الأوسط، على سبيل المثال. ومازال شرائح اللحم المشوية والبطاطا تؤكل على الإفطار من قِبل بعض سكان منطقة نيوإنجلاند وأصحاب المزراع في الغرب بأعداد تتقلص. ولا تتضمن القائمة شاتوبريان (شريحة لحم بقري مع بطاطا مقلية)، أو شوربة سلحفاة خضراء أو محار روكيفلر.

يلعب الانتقاء دوراً بارزاً في أنماط العلاقات الاجتماعية حول العالم في الملبس والجنس والعمل واللهو ـ في الحقيقة، جميع أنظمة التراسل الأولية الأساسية. إن أسهل طريقة لتحديد ما إذا تم تطبيق الانتقاء أم لا هي أن تلاحظ إذا كان هناك شيء مرتبط بشيء آخر بواسطة العُرف عندما يكون من الممكن لعدد من الأشياء الأخرى أن تفي "منطقياً" بالغاية نفسها. يتطلب قانون الانتقاء بذلة رسمية طويلة مشقوقة الذيل. كما يتطلب هذا القانون إقامة زوجة أو قريبة أنثى للرئيس في البيت الأبيض. لقد اخترت كلمة انتقاء لذات السبب الذي يتم فيه "اختيار" شيء ما من فئة ما. بمجرد أن يحدث الانتقاء فهو ملزم بشكل استبدادي. إن تحكُّم الثقافة غير مفهوم بشكل عام لأن هناك مناطق أخرى يكون للثقافة فيها تفاوت هائل. والانتقاء هو استثناء هام.

الانسجام

من الأصعب التحدُث عن الانسجام بدقة أكثِر من الترتيب أو الانتقاء. ومع ذلك فإن إملاءاته الدقيقة قد تكون أكثر إلزاماً. وبخلاف الترتيب والانتقاء اللذين يتعلقان بتنميط المجموعات، فإن قانون الانسجام يمكن أن يتم التعبير عنه على أنه *نمط الأنماط*. إن الانسجام هو ما يحاول جميع الكتّاب أن يحققوه فيما يتعلق بأسلوبهم، وما يريد كل شخص أن يجده أثناء تنقله في الحياة. في المستوى الأرفع تكون ردة فعل البشر تجاه الانسجام مليئة بالرهبة أو النشوة. والانسجام التام هو شيء نادر. قد يقول الشخص أنه موجود عندما يستغل الفرد جميع الإمكانيات لنمط ما بشكل كامل. وخطاب (لينكون) في غيتيسبيرغ هو أحد الأمثلة. يحدث النقص الكامل في الانسجام عندما يكون كل شيء غير متجانس بحيث لا يمكن لأي فرد في الثقافة أن يتخيل نفسه يُحدِث فوضى كهذه.

إن نقص الانسجام في الملبس يكون دائماً واضحاً وغالباً فكاهياً ـ شاهد أفلام الصور المتحركة المتصلة للقرن التاسع عشر لسكان أصليين يرتدون زي أسد وقبعة من الحرير. وفي فن العمارة عندما تقتبس ثقافة أ فن عمارة من ثقافة ب، فإن ثقافة أ تأخذ المجموعات ولكن ليس النمط. شاهد الأعمدة اليونانية الرائعة والتفاصيل على أي قصر واقع في ضاحية.

أجريت محاولات في عدة حالات لتحقيق الانسجام على صعيد واحد دون اعتبار للتشويهات المقدّمة على صعيد آخر. على سبيل المثال، يميل

معلمـو المـدارس إلى نقـد طلابهـم لقـول "الأكثـر تفـرّداً" ، وحجتهم هـي أن التفـرّد لـيس بـأمر لـه مراتـب . إن مـا يحـدث بـالطبع هـو أن المعلـم يقتـبس معياراً ملائماً على مستوى المنطق ويطبقه على مستوى اللغة . ويصادف أن اللغـة تعمـل بطريقـة بحيث أن أي نعت يمكـن أن يكـون لـه صيغة تفضيل وصيغة تفضيل عُليا . ومـن أجـل الحصول على انسـجام فإن كلمـة (فريـد) يمكن أن تُستخدَم في حالات معينة فقط .

العديد من النكات تعتمـد على التنـافر بشـكل أو بـآخر ، والـذي هو أحد الأسباب التي تبيّن لماذا يجب أن يكون القـارئ (أو المسـتمع) متكلـّماً أصلياً للغة لكي يُـدرك إدراكـاً تامـاً كـل المعاني المتضمنة للنكتـة . فإذا لم يتمكنوا من تقدير درجة الانسجام فلـن يسـتطيعوا أن يـُعجبوا بالفكاهـة . إن النكتة القديمة عن فتاة من بـروكلين تحاول أن تتصـرف بتصنـُّع في مطعـم شرافتس بطلب "esters on the half shell" (مستخدمة *a* بلهجة مدينة بوسـطن) هـي نكتـة مضـحكة لأنهـا متنـافرة على عـدة مسـتويات . فهـي لم تسـتخدم فقـط لهجتين ولكنهـا تحولـت مـن طريقـة اسـتعمال الألفـاظ دون المعتاد إلى ما تعتقد أنه خاص بطبقات المجتمع العليا .

إن انسـجام نمط أو أسـلوب في الكتابة هو مهمـة تعرُّف على مـا يمكـن ومـا لا يمكـن تحقيقـه داخـل حـدود الـنمط . تم تكييـف الصـحف أو الكتابـة الصحفية مع الوسط ومع كل ما يمليه هذا الوسط . فعندما تكـون سيئة فذلك لأن الكـاتب لم يتعلم ما الذي يمكن عمله داخل الحـدود الموضـوعة مـن قِبـل النمط . والقيام بهذا النوع من الكتابة بإتقان هـو فـن يتطلـب مهـارة عاليـة

ولا يتم تعلمه إلا بعد سنوات من الخبرة. إن كتابات العالِم تكون غالباً متنافرة لأنها تسحب القارئ من مستوىً تحليلي إلى آخر ثم تعيده إلى الوراء مرة ثانية. معظم الكتابات العلمية تُعامل القارئ كشخص فظ يقول "هل فهمت"، مما يدل على خوف العالِم من أن الناس سيحيدون و يشوهون ويعارضون ما قيل. يجب على العالِم أن يتواصل على عدد من المستويات التحليلية المختلفة في الوقت نفسه بكتابة ملاحظات هامشية و يصف كل بيان بإسهاب. ودفاعاً عن زملائي العلماء يجدر القول إن أصعب الأشياء التي تقوم بها في العالم هي أن تتعلم الاحتفاظ بالمستويات منفصلة كما تحتفظ بالانسجام. قام (هاري ستاك سوليفان)، وهو مشارك عظيم جداً في فكر الطب النفسي في هذا البلد، ذات مرة بوصف محاولاته الخاصة في الكتابة بالقول إن الشخص الذي ظهر أمامه أثناء قيامه بالكتابة وقيِّم جمله وهي تتجلّى كان مزيجاً بين أبله وناقد متشكك بشكل مزعج! لم يكن (سوليفان) وحيداً في امتلاك هذا النوع من الصورة الذاتية؛ لقد أدرك صعوبات وهزل الاضطرار إلى محاولة إقحام كتابات المرء على طريقة سرير (بروكرستين)[1]. وهناك نقطة أخرى للتأكيد عليها عن العلماء وهي أن معظمهم مهتمون بتقديم بيانات دقيقة أكثر مما هم مهتمون بالكتابة. إنهم يعتمدون على زملائهم ليعرفوا ما الذي يقولونه. ولذلك يمكنهم أن

(1) بروكرستين: منسوب إلى بروكروستيز أو فراشه. وكان بروكروستيز لصاً إغريقياً خرافياً يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها ليجعل طولها منسجماً مع فراشه.

يكتبوا ويكتفوا بمقدرة أدبية أقل من المؤلفين. فانشغالهم هو في انسجام علمي وليس في انسجام أدبي.

هناك شيء واحد يبدو أكيداً تماماً. بينما يُظهر الناس درجات متنوعة من الحساسية للانسجام، فإن الانسجام الكامل نادراً ما يتحقق. إنه يكمن في كل ثقافة ونُفتَن به في إبداعات نادرة. توجد الفنّيّة (ذوق الفنان أو براعته) الحقيقية عندما يكون الانسجام عالياً جداً بحيث يبدو كل شيء بسيطاً وسهلاً، وعندما يبلُغ بجلاء بحيث يتساءل الناس لماذا لم يقولوها هم أنفسهم.

يسعى الناس بجهد للانسجام المثالي. إنهم يركزون انتباهاً متواصلاً على التفاصيل والمجموعات والوحدات الصغرى والنمط الكليّ. وهذه عادة مسألة تكرار للبيان وجعله أوضح بحيث يتناسب كل شيء في النهاية ولا يظهر شيء بين ما يتم إبلاغه وبين الحضور.

قد يفترض المرء أن الكثير معروف عن انسجام النمط. في الواقع أن هذا المجال قد تم بالكاد وصفه على أنه حقل دراسة علمية. إن الاختلاف الرئيس بين مفهوم الانسجام وبين المعتقدات التي يؤمن بها على نطاق أوسع حول الأعمال المبهجة هو أن أعمال الفنانين، عادة، تُشاهَد وكأنهم ابتكروا القوانين لتحفهم الفنية بدون الإشارة إلى نمط الثقافة. وهذا لا يعني أن الفنان لا يملك سيطرة على ما هو فن "جيد" أو "سيء". بل يملك الفنانون السيطرة. هناك علاقة وطيدة تجمع بين الشخص والنمط الكلي. بعض الفنانين أكثر حساسية تجاه نقص الانسجام من آخرين ويبذلون جهداً أكبر

لتقليل التوترات المستحثة من التنافر. بالفعل إنها تلك الحساسية الهائلة نحو تنافر النمط التي يُحدثها الفنانون في أعمالهم. إن لديهم حساً متطوراً جداً للعمل ضمن الأنماط، مستفيدين إلى أقصى حدود الإفادة منها، دافعين وموسعين امتداد حدودها ولكن لا يتخطونها أبداً، وبذلك يمكن أن يتم الاحتفاظ بالنفوذ ولا يتم تبديده. يجب الفنان أن يتلاعب بالأنماط ويكتشف ما الذي يمكن صنعه حقيقة بالمواد التي في متناول اليد. وهم يقومون بذلك أحياناً في إطار فئات قليلة من الناس الراغبين أو المهتمين في مجالات ضغط وتوتر وتغيير ثقافي. ولأن العديد من الفنانين يتشاركون في تنوعات للنمط الكلي والتي ليست مشتركة على نطاق واسع، فإنهم مشهورون باستهلالهم لعُرف يحتذيه كل شخص آخر. وينسب الفضل إليهم في "ابتكار" أنماط جديدة. وعلى الرغم من ذلك فإن معظم الفنانين يعرفون أن أي عظمة يحصلون عليها تكمن في كونهم قادرين على تنظيم عرض ذي معنى بشأن ما يجري من حولهم. إنهم يقولون ما حاول آخرون قوله ولكن يقولونه بشكل أكثر بساطة وأكثر مباشرة وأكثر دقة وأكثر وضوحاً وباستبصار أعظم.

إن الفنانين لا يوجهون الثقافة ويبتكرون أنماطاً؛ إنهم يحملون مرآة للمجتمع ليرى أشياءً قد لا يمكنه رؤيتها بدونها. البرهان على أن الفن يعكس الثقافة وعصر الفنان، يمكن الحصول عليه ببساطة بالسير خلال أي متحف مُجهز جيداً أو بمشاهدة الصور التوضيحية في كتب فن معاصر.

إن "قانون" الانسجام، أو الأسلوب بالمعنى الأوسع، لا يعم عالم الفن

فقط، ولكن جميع أنواع الاتصالات. إن الوضع الحالي لفهمنا لكيفية عمل الانسجام هو بدائي جداً حيث أننا قادرون بالكاد على توفير دليل عن الاتصالات الخاطئة أقل بكثير من تحديد ماذا يمكن أن تكون الأخطاء. ومع ذلك، فقد تُرتكب أخطاء جديّة في مناقشة دولية أثناء تفسير أمور يُفترض أنها بسيطة مثل ما إذا كان أحد المشاركين غاضباً أم أنه مجرد مخادع. لا عجب في أنه توجد حروب! إن مُجرد الإحباط لعدم القدرة على الفهم في بعض الأحيان يجعل الشخص يرغب في الهجوم للإحساس بأن ثورة الغضب ستُفهَم. ومع ذلك فإنه من الواضح جداً أنه يمكننا فعل شيء أفضل من ذلك؛ فقد كان الدافع نحو الانسجام سيبدو بقوة حاجة بشرية كالرغبة في البقاء المادي. بدأت دراسة الثقافة تقدّم استبصارات. كان يمكن أن تحقق أكثر، إن تطوّر أدوات الفهم يساعد في هذا الشأن. من أكثر المبادرات الواعدة هناك مبادرتان هما في دراسة أنماط النوع غير الرسمي، وفي تطوير معرفتنا للانسجام وكيف يعمل.

9

الزمن يتكلم:
اللهجات الأمريكية

في بداية هذا الكتاب قدَّمتُ تحليلاً خاطفاً للوقت كأحد عناصر الثقافة الذي يتواصل بقوة كاللغة. نظراً لأن خطتي المتعلقة بالمفاهيم لم تكن قد توسعت بالتفصيل بعد في تلك المرحلة، فقد كانت معاينتي سطحية نوعاً ما. والآن كوني قدَّمت الوسائل التقنية لسبر أسرار الثقافة، يمكنني أن أعود إلى الوقت. هنا سآخذ بالاعتبار الطريقة التي يستخدم فيها الأمريكيون الوقت ويتواصلون به، مُشدداً على التفاصيل والأمور الدقيقة التي يكشفها التحليل عن كثب. بعض النقاط التي أطرحها يمكن أن تُحدث صدمة إدراك، إحساساً بأن هاهنا شيء عرفه القارئ دائماً. على هذا المنوال يجب أن تسير الأمور. إن تحليل الشخص لثقافته الخاصة يوضّح ببساطة العديد من الأمور التي نسلّم بها في حياتنا اليومية. من ناحية

أخرى، فإن الحديث عنها يغير علاقتنا بها. إننا ننتقل إلى تراسل فعّال ومتسامح مع مظاهر وجودنا التي تؤخذ جميعها كأمور مسلّم بها أو التي تُثقل كواهلنا في بعض الأحيان. إن الحديث عنها يحررنا من قيودها.

صرح أحد الخبراء في أمور الأطفال في الولايات المتحدة ذات مرة بأن الطفل العادي يحتاج أكثر من اثنتي عشرة سنة ليدرك معنى الوقت. ربما أن هذا التقدير متحفظ إلى حد ما. إن الشّباب الصغار في هذا العمر يعرفون كيف يعمل نظامنا الأساسي للوقت ولكن لا يبدو بعد أنهم قد استبطنوا التفاصيل أو المعاني الإضافية الإنفعالية لنظام الوقت الرسمي.

لماذا يحتاج الطفل إلى مثل هذه الفترة الطويلة ليتعلم الوقت؟ إن الجواب ليس سهلاً. في الحقيقة أنه عندما يبدأ الشخص باكتشاف عدد التعقيدات المتضمنة، فإنه ربما يتساءل إذا كان يمكن فهم المجال الكامل للأمور الدقيقة للوقت أصلاً.

إن الأنظمة الثلاثة التي ناقشتها ـ الرسمي وغير الرسمي والتقني ـ تستخدم غالباً مفردات متماثلة. هذا لا يجعل الأمر أسهل بالنسبة للطفل، أو للأجنبي، ليتعلمها. على سبيل المثال، السنة هي جزء رسمي أو تقليدي من نظام الوقت الخاص بنا. هذا يعني ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً بالإضافة إلى ربع يوم والذي يؤخذ بالحساب عند إدخال السنة الكبيسة. ويمكن أن تعني إثني عشر شهراً كما تعني إثنين وخمسين أسبوعاً.

في غير الرسمي، يمكننا أن نقول: "آه، الأمر يستغرق سنوات لإنجـ ـر ذلك." يجب عليك أن تكون هناك وتعرف الشخص وخلفية الملاحظة قبل

أن تعرف تماماً ماذا تعني هذه الكلمة "سنوات". ربما مسألة دقائق أو أسابيع أو سنوات حقيقية. *تقنياً*، السنة هي شيء آخر مرة أخرى. فهي لا تُحسَب فقط بالأيام أو الساعات أو الدقائق أو الثواني، ولكن هناك أنواعاً مختلفة للسنة وذات مدد زمنية مختلفة. وكذلك تُستخدَم الدقائق والساعات والأشهر والأسابيع في ثلاثة سياقات. إن السياق الكامل فقط هو الذي يخبرنا أي نوع من الوقت هو المُشار إليه.

إن أي شخص تقريباً يمكنه أن يستعيد تلك اللحظة من طفولته عندما تم قضاء اليوم تقريباً والأم تُسأل: "ماما، كم نحتاج لكي نصل إلى البيت؟ أنا متعب." وتجيب الأم: "برهة يا عزيزي. كن ولداً طيباً فقط وسنكون في البيت قبل أن تدري."

"كم طول البرهة؟" "من الصعب القول يا عزيزي." "هل البرهة تعني خمس دقائق يا أمي؟" "أحياناً يا عزيزي ولكن ليس دائماً. وفي هذه الحالة ستكون أطول قليلاً من خمس دقائق." "آه."

عند هذه النقطة يستسلم الطفل - على الأقل في الوقت الحالي.

ليس هناك ثلاث فئات مختلفة للوقت فحسب، ولكن كلاً منها لها أجزاؤها ومجموعاتها ووحداتها الصغرى وأنماطها، وهذا يشكّل تسعة نماذج مختلفة للوقت موجودة في ثقافتنا. لحسن الحظ ولتبسيط الأمور، فإن الناس العاديين لا يحتاجون لمعرفة النظام التقني كله لينجحوا في تدبر الأمر. ومع ذلك فإنهم يعتمدون على الآخرين ليعرفوه.

عندما يصبح الناس العاديين تقنيين، فربما يسألون عالم فلك كم هو طول السنة بالضبط. عند هذه النقطة يكتشفون جهلهم عندما يُسألون أي نوع من السنة في بالهم ـ السنة المدارية أو الشمسية (365 يوماً، 5 ساعات، 48 دقيقة، 45.51 ثانية بالإضافة إلى كسر)، أم السنة الفلكية (365 يوماً، 6 ساعات، 9 دقائق، 9.54 ثانية)، أم السنة الخاصّة (365 يوماً، 6 ساعات، 13 دقيقة، 53.1 ثانية).

إن نظام الوقت الرسمي الخاص بنا هو ذلك الجزء من النظام الكلي الذي ما كنا سنغيره ولا نريد أن يتلاعب به الآخرون. ومع ذلك فإن هذا النظام الرسمي الذي نعتبره كأمر مسلّم به إلى حد كبير كان ذات مرة نظاماً تقنياً معروفاً فقط لبضعة كهنة على طول نهر النيل والذين حسّنوه استجابة لحاجة التنبؤ بالفيضانات السنوية بشكل أكثر دقة.

الوقت الرسمي: مجموعات ووحدات صغرى وأنماط

هناك طريقة سريعة لاكتشاف كيف تعمل مجموعات وقتنا الأوروبية وهي أن تعلمهما للأطفال. إن اليوم هو مجموعة رسمية مؤسسة بشكل متأصل عميقاً في الماضي، ولها وحدتان صغريان أساسيتان: النهار والليل، ويجزأ أكثر إلى الصباح وبعد الظهر، تتخلله وجبات طعام وغفوات قصيرة، ومناسبات متكررة. وهناك سبع فئات مختلفة للأيام: الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء، إلخ. وتقيم بشكل مختلف، فيوم الأحد يُهمل. يكون الطفل عادة متمكناً من هذه الأفكار العامة عند سن السادسة. وفي الثامنة يتعلم معظم

الأطفال الإخبار بالوقت بواسطة الساعة. يمكن تبسيط هذه العملية بالنسبة لهم إذا تم شرحها بأنه يوجد نوعان للوقت (فئتان من مجموعات): ساعات ودقائق. الساعات ـ من الواحدة حتى الثانية عشرة ـ يجب أن يتم تعلمها بشكل جيد جداً بحيث يكون الإدراك فورياً. وقبل تعلُّم الدقائق، يتعلم الأطفال أن الربع ساعة هي الوحدة الصغرى الأكثر نفعاً لهم. ويمكنهم استيعاب ما يلي بسرعة جداً لكونهم منطقيين: الخامسة وخمس عشرة، الخامسة وثلاثون، والخامسة وخمس وأربعون تبدأ بأن تصبح مفهومة. يجب أن لا يتم تعليم الدقائق كوحدات صغرى في البداية، بل كمجموعات يوجد منها ستون مجموعة. من ناحية أخرى، لجعل الحياة أكثر بساطة حيث أن الطفل لا يمكنه أن يدرك معنى دقيقة، فإنها تُجمَّع مع بعضها في فترات من خمس دقائق؛ أي خمس وعشر وخمس عشرة دقيقة بعد الساعة، وهكذا حتى الخامسة وخمس وخمسون دقيقة. أخيراً، فإن مجموعتي المجموعات تمتزجان في نظام واحد.

في أمريكا، أي مواطن من شرقي أمريكا أو شخص حضري يعيش في منطقة الغرب الأوسط ملمٌّ بالطريقة التي تقيّم بها ثقافته الوقت يمكن أن يدرك أن خمس دقائق تختلف عن عشر دقائق. هذا يعني أن فترة خمس دقائق هي أصغر مجموعة رسمية. وقد تخطت الحد الفاصل مؤخراً فقط من وحدة صغرى إلى مجموعة. منذ عشرين سنة مضت، كانت فترة الخمس دقائق وحدة صغرى من نوع خاص يعمل على تكوين ربع ساعة. الآن يدرك الناس إذا كانوا متأخرين خمس دقائق أم لا وسيقدمون اعتذاراً.

في ولاية يوتا طوّرت طائفة (المورمون) التأهب إلى درجة غير معروفة لباقي البلاد. في نظامهم قد تبدو الدقائق وكأنها مجموعة لا تُنتهَك. وعلى الساحل الشمال الغربي تم تعديل المشاعر التقليدية بشأن الوقت ولم تُمارَس كسلوك مُلِحّ كما هي في مناطق أخرى. يستخدم الشمال الغربي تركيبة الوقت نفسها مثل باقي الثقافة، ولكن يبدو أن لا أحد متأثر به بشكل خاص. إن الاختلاف الرئيس هو أنهم يفتقرون إلى إلحاحية الوحدة الصغرى غير الرسمية.

بعد فترة الخمس دقائق توجد فترة العشر دقائق، والربع ساعة والنصف ساعة والساعة. بعد ذلك هناك النهار المقسَّم إلى جزء مُبكر، ومنتصف النهار وآخر النهار، ثم ساعة الظهيرة، وجزء مبكر وجزء متوسط وجزء متأخر من فترة بعد الظهر؛ ثم المساء، وتقسيمات مماثلة لفترة الليل.

يبدأ يومنا بشكل رسمي عند منتصف الليل. وربما أن الفترات التي تبدأ بوجبات الطعام والنوم والاستيقاظ هي أبكر مجموعات زمنية مدرَكة بالنسبة للأطفال. ويسرِّع التلفاز عملية مساعدة الأطفال لملاحظة الفرق بين، لنقل، الساعة الخامسة والساعة السادسة، طالما أن هذه أوقات تظهر فيها برامجهم المحببة.

الأسبوع كذلك هو مجموعة، تم تعريفها كجزء من نظام الوقت التقني المصري. وهو غير مستوعب عالمياً. إن مصطلح أسبوعين (fortnight)، كالعديد من الأشياء الأخرى الباقية من الـ آنجلو ـــ ساكسون، بقي موجوداً في النظام، مذكِّراً بالعصور القديمة. إنه مازال

يُستخدَم كفترة دفع الأجور في الحكومة وكفترة النشر لدوريات معينة. إنه قديم نوعاً ما وينهار ببطء نحو عدم الاستخدام. والشهر، مثل اليوم، هو مجموعة تم إنشاؤها كجزء في نظامنا للوقت منذ فترة طويلة. ويُستخدَم لدفع الأجور وتقديم الحسابات والتقارير من كل الأنواع، ولأحكام السجن.

الموسم هو مجموعة رسمية وغير رسمية. ربما أنه أحد مجموعاتنا الأقدم. كان يُستخدم لتحديد موعد الحراثة والزراعة والحصاد وجني المحصول، كما أنه الموعد الذي كان يمكن للتربة أن ترتاح. والآن، بالطبع، توجد مواسم الصيد أوصيد السمك أوالتزلج أوالسياحة أوعيد الميلاد، وكذلك فئات المجموعات التقليدية لفصول الصيف والخريف والشتاء والربيع. قد تكون هناك علاقة بين الفصل والربع (ثلاثة أشهر) بالرغم من أن الربع مربوط بالتقويم في حين أن الفصل، كونه أقدم، متأصل في التغيرات المناخية والنشاطات المرافقة للزراعة.

من الصعب تثبيت الوحدات الصغرى الرسمية. وهي تجريدية مثل جميع الوحدات الصغرى، ومع ذلك ولأنها أشياء تجريدية مما يبدو أنه شيء صحيح ومناسب فلم يتم الانتباه إليها البتة. لقد تم إغفالها غالباً لأنها تبدو "طبيعية" جداً.

القائمة التالية لوحدات صغرى أساسية هي بلا شك ناقصة. وهي تتضمن ما أدعوه الترتيب، والدوري، والتجميع، والتقييم، والملموس، والمدة والعمق.

والأسبوع هو الأسبوع ليس فقط لأن فيه سبعة أيام ولكن لأنه ضمن *ترتيب* ثابت. إن الترتيب كوحدة صغرى رسمية قد يبدو أنه تعبير عن *ترتيب* كما في قوانين الترتيب والانتقاء والانسجام. طوّر الغرب هذا إلى حد ما. هذا يعني أننا نحافظ على وعي مستمر لحقيقة جميع أنواع الأشياء التي لولا ذلك لكانت متماثلة *ونميز بينها فقط بسبب ترتيبها*. وأصبح الرقم ستة ملايين لسيارة (فورد) المصنوعة حدثاً هاماً، كالرقم خمسين مليون مسافر ــ ميل تحليق قامت به شركة خطوط جوية. إن تعابير المولود أولاً والرئيس الأول والمركز الأول والرجل الثاني والمرتبة العاشرة من ألف، تتخذ معنى بسبب ترتيبها. فاليوم السابع يختلف عن اليوم الأول؛ ومنتصف الأسبوع يختلف عن نهايته، إلخ.

بالنسبة لمعظم الأحداث الزمنية فإن العنصر الدوري هو شيء مسلَّم به. فيوم يتبع الآخر، كما هو الأمر في الأسبوع والشهر والسنة والقرن. والدورات المعروفة محدودة العدد. فهناك سلسلة دورة الستين (الدقائق والثواني) وأسبوع الأيام السبعة وسنة الإثني عشر شهراً.

يعبِّر عن *التقييم* في تصرفنا حيث أن الوقت بحد ذاته قيّم ويجب أن لا يضيَّع.

ويعبِّر عن الملموسيّة في حقيقة أننا نعتبر الوقت كسلعة. يمكن أن يُشترى ويباع ويُوفَر وينفَق ويهدَر ويضيَّع وينظَم ويُقاس.

بالنسبة للأشخاص الذين نشأوا في التقليد الأوروبي فإن الوقت هو

شيء يحدث بين نقطتين. المدة هي الفرضية الضمنية المشتركة على أوسع مدى والتي تأخذ بالاعتبار طبيعة الوقت في العالم الغربي. بالنسبة لأولئك الأشخاص من بيننا والذين تعلموا أن يأخذوا هذه الوحدة الصغرى المفردة كأمر مسلَّم به إلى حد كبير، يبدو من غير المفهوم أنه كان من الممكن تنظيم الحياة بأي طريقة أخرى. ومع ذلك فإن إحدى معجزات الوجود البشري هي التنوع الهائل الذي يحدث في أمور أساسية كهذه. على سبيل المثال، يختلف هنود الـ (هوبي) عنا بفجوة ثقافية هائلة. فالوقت، مثلاً، ليس فترة زمنية بالنسبة لهم بل أشياء عديدة كثيرة. إنه ليس ثابتاً أو يمكن قياسه كما نعتبره نحن، كما أنه ليس مقداراً. إنه ما يحدث عندما تنضج الذرة أو ينمو الخروف ـ متتالية مميزة لأحداث. إنه العملية الطبيعية التي تحدث عندما تتصرف المادة الحية بطريقة ملائمة لأحداث حياتها. لذلك يوجد وقت مختلف لكل شيء يمكن أن يُغيِّر بالظروف. اعتاد أحدهم أن يرى بيوت الـ (هوبي) أثناء بنائها لسنوات وسنوات. من الواضح أن الهنود ليس لديهم فكرة أن البيت يجب أن يُبنى خلال فترة معينة من الزمن نظراً لأنه لم يكن بمقدورهم أن ينسبوا إليه نظام وقته المتأصل كما كانوا ينسبون إلى الذرة والخروف. إن نظرتهم إلى الوقت بهذه الطريقة كلَّفت الحكومة آلافاً لا حصر لها من الدولارات على مشاريع بناء لأن الـ (هوبي) لم يتمكنوا من تصوّر وجود وقت ثابت يفترض أن يتم خلاله بناء سد أو طريق. إن المحاولات لجعلهم يتقبلون جدول مواعيد تم تفسيرها كاستبداد وزادت الأمور تفاقماً.

كما ذكِر سابقاً أنه بعكس بعض الأنظمة الإفريقية، فإن عناصر الوقت الأمريكي ـ الدقائق والساعات ـ يجب أن تُجمع. بدأ الأمريكيون بفرضية أنهم يعملون بنظام مركّب. إن السبب لوجوب جمع الوقت هو أننا نبدأ بفرضية أننا نتعامل مع نظام وأنه يوجد نظام في الكون. إننا نشعر بأن وظيفة البشر هي اكتشاف النظام وإيجاد النماذج الفكرية التي تعكسه. إننا مندفعون بطريقتنا في النظر إلى الأشياء لتركيب كل شيء تقريباً. وحين نضطر إلى التعامل مع شعب أنظمة وقته تفتقر إلى هذه الوحدة الصغرى للتركيب فإننا نعاني من صعوبة كبيرة. إن الأمر بالنسبة لنا هو تقريباً كأنهم كانوا يفقدون أحد حواسهم وبسبب ذلك كانوا غير مدركين لجزء من الطبيعة. إن الوحدة الصغرى للتركيب أساسية لكثير إن لم يكن لكل تقديرنا للحياة حولنا.

إن الأمريكيين يعتبرون *العمق* عنصراً أساسياً للوقت، وهذا يعني أنه يوجد ماضٍ يستند إليه الحاضر. ومع ذلك فنحن لم نوسِّع جزء العمق إلى الحد الذي تم به ذلك في الشرق الأوسط وجنوبي آسيا. يعود العربي إلى الوراء حوالي ألفين إلى ستة آلاف سنة للوصول إلى أصوله. ويستخدَم التاريخ كأساس لأي عمل معاصر تقريباً. في أغلب الأحيان لا يبدأ العرب كلاماً أو خطاباً أو تحليلاً لمشكلة بدون توضيح المظاهر التاريخية لموضوعهم. يفترض الأمريكيون أن الوقت له عمق ويعتبرونه أمراً مسلّماً به.

معظم الأشكال الرسمية للوقت في الولايات المتحدة ستبدو مباشرة واضحة للقراء الأمريكيين على الرغم من أنهم ربما لم يتجشموا عناء

التفكير بها. وهي ما كانت ستكون أشكالاً رسمية لو أنها كانت لا تُدرك بسهولة. ولكن من أجل فائدة القارئ الأجنبي سأقوم بتلخيص الشكل الرسمي الأمريكي بإيجاز.

نادراً ما يشك الأمريكيون بحقيقة أن الوقت يجب أن يُخطط وأن الأحداث المستقبلية يجب إدراجها بشكل ملائم في جدول. نعتقد أنه يجب على الناس أن ينظروا إلى المستقبل وأن لا يسهبوا في التفكير بالماضي. إن مستقبلنا ليس ببعيد. ويجب الحصول على النتائج في المستقبل المنتظَر ـ بعد سنة أو سنتين أو على الأكثر خمس إلى عشر سنوات. إن الوعود بالالتزام بالمواعيد المحددة لإنهاء عمل ما والمواعيد الشخصية هو أمر يؤخذ بجدية كبيرة. هناك عقوبات حقيقية للتأخير ولعدم الوفاء بالالتزامات في الوقت المحدد. ومن هذا يمكن التوقع بأن الأمريكي يعتقد أنه من الطبيعي أن تقيس الوقت. وفشلك في فعل ذلك هو أمر لا يخطر بالبال. يحدد الأمريكي كم من الوقت يحتاج الأمر لفعل كل شيء. "سأكون هناك خلال عشر دقائق." "سيستغرق الأمر ستة أشهر لإنجاز ذلك العمل." "لقد قضيت في العسكرية أربع سنوات ونصف."

إن الأمريكيين، كالعديد من الشعوب الأخرى، يستخدمون الوقت أيضاً كرابطة تصل الأحداث ببعضها. إن الجملة اللاتينية (Post *hoc, ergo propter hoc*) والتي تعني (بعد الحادثة، لذلك بسبب الحادثة) ماتزال جزءاً متمماً للتركيب التقليدي لثقافتنا. إن حدوث حدَث ما عقب آخر يؤدي حتماً إلى محاولات من جانبنا لنسب الحدَث الثاني إلى الأول

ولكي نجد علاقة سببية بينهما. فإذا وجد أ بالقرب من جريمة قتل ب بعد ارتكاب الجريمة بوقت قصير ، فإننا بشكل آلي نكوّن صلة بين أ و ب. وعلى العكس، فإن الحوادث التي يفصل بينها وقت طويل تجعل من الصعب علينا أن نربطها في أذهاننا. وهذا يجعل من المستحيل بالنسبة لنا كأمة أن نتعامل بتخطيط طويل المدى.

الوقت غير الرسمي: مجموعات ووحدات صُغرى وأنماط

لتعقيد الأمور بالنسبة للصغير الذي يحاول تعلُّم الثقافة والعالِم الذي يحاول تحليلها، تكون مفردات الوقت غير الرسمي متماثلة مع مفردات الوقت التقني والوقت الرسمي. فكلمات مثل دقيقة وثانية وسنة هي مشتركة للأنظمة الثلاثة. وسياق الكلام يخبر المستمع عادة أي مستوى من المحادثة يُستخدَم. وبالطبع توجد كلمات غير رسمية عادة ومرتبة كما يلي (برهة، فيما بعد، وقت طويل، إلخ). عند وصف الوقت غير الرسمي نبدأ بالمجموعات لأن المجموعة هي التي تُدرَك بسهولة أكبر.

عندما يقول شخص ما : "سيستغرق برهة،" عليك أن تعرفه بشكل شخصي وأن يكون لديك كذلك قدَر جيد من المعرفة عن السياق الكلي للتعليق قبل أن تتمكن من قول ماذا يعني مصطلح "برهة". في الواقع الأمر ليس مبهماً كما يبدو لأول وهلة، والأشخاص الذين لديهم هذه المعلومات يمكنهم عادة أن يقولوا ما هو المقصود. وما هو أكثر من ذلك، أنه إذا عاد رجل "برهته" العادية تتراوح بين ثلاثين و خمس وأربعين دقيقة إلى مكتبه

بعد ساعة، وكان قد قال إنه سيخرج لـ"برهة"، فإنه عادة سيعتذر أو سيعلّق على كونه غاب أكثر مما توقّع. هذا إثبات أنه هو نفسه أدرك أنه كان هناك حدٌّ للدرجة التي توسّع بها الـ"برهة".

إن مجموعة مفردات الوقت غير الرسمي الأساسية بسيطة. ويوجد فقط ثمانية أو تسعة اختلافات أوجدها الأمريكيون. وكأننا كنا نقيس الوقت غير الرسمي بمسطرة مطاطية كان يمكن مطّها بلا حدود أو ضغطها، ولكنها مع ذلك كانت ستحافظ على وحدة العلاقات الأساسية. إن أقصر وقت على المقياس غير الرسمي هو "الحدَث اللحظي". إن الاختلافات الإضافية التالية تتوسط بين "الحدَث اللحظي" و "للأبد": فترة زمنية قصيرة جداً، فترة زمنية قصيرة، فترة زمنية حيادية (لا قصيرة بشكل ملحوظ ولا طويلة)، فترة زمنية طويلة، فترة زمنية طويلة جداً وفترة زمنية طويلة بحيث يتعذر تحديدها. والأخيرة تكون أحياناً غير مميزة عن "للأبد".

بشكل عام، الوقت غير الرسمي يكون مبهما إلى حد بعيد لأن من صفاته أنه يكون حسب الوضع. إن الظروف تتغير، لذا يتغير الوقت المُقاس: "أطول وقت" و"للأبد" و"الخلود" جميعها كلمات أو تعابير تستخدَم لوصف أي وقت يعتبر طويلاً بشكل مفرط. وبالاعتماد على الظروف فإن "الأبدية" قد تكون الوقت الذي يُستغرَق للوصول إلى الماء عندما يقفز شخص ما من لوح قفز مرتفع لأول مرة، أو قد تكون شهراً يقضيه شخص في الخارج بعيداً عن عائلته.

وبشكل غير رسمي، بالنسبة لمواعيد العمل النهارية الهامة بين

ندَّين في المناطق الشرقية للولايات المتحدة ، هناك ثماني مجموعات للوقت فيما يتعلق بدقة المواعيد وطول فترة المواعيد : في الوقت المحدد ، أم أبكر أو متأخر بخمس دقائق وعشر دقائق وخمس عشرة دقيقة وعشرين دقيقة و ثلاثين دقيقة و خمس وأربعين دقيقة ، وساعة واحدة . متذكرين أن الحالات تختلف ، ويوجد نمط سلوك مختلف قليلاً لكل حالة ، وكل حالة على المقياس لها معنى مختلف . بالنسبة لطول المواعيد فإن ساعة واحدة مع شخص مهم تختلف عن ثلاثين دقيقة مع ذلك الشخص ذاته . تأمل في معنى التعليق التالي : "لقد قضى أكثر من ساعة مختلياً مع رئيس الولايات المتحدة ." كل شخص يعرف أنه لا بد أن المسألة كانت مهمة جداً ." أو تمعّن في : "كان يمكنه فقط توفير عشر دقائق ، حيث لم نتمكن من إنجاز الكثير ." عندئذ يصبح الوقت رسالة مباشرة ببلاغة كأنما تم استخدام كلمات . وبالنسبة للدقة في المواعيد فإنه لا يوجد أمريكي سليم العقل كان سيفكر بترك شريك عمل ينتظر لمدة ساعة ؛ فذلك كان سيكون مهيناً جداً . ولا يهم ما يُقال للاعتذار ، فهناك القليل الذي يمكن أن يزيل أثر انتظار يطول لساعة خارج المكتب .

حتى فترة الخمس دقائق لها أجزاؤها الهامة . عندما يتقابل ندّان ، أحدهما سيكون مدركاً عادة لكونه متأخراً أو مبكراً دقيقتين ، ولكنه لن يقول شيئاً ، نظراً لأن الوقت في هذه الحالة غير مهم . عند ثلاث دقائق سيستمر الشخص بعدم الاعتذار أو الشعور بأنه من الضروري أن يقول أي شيء (ثلاث دقائق هي أول رقم له معنى في سلسلة واحد إلى خمسة) ؛ عند

مرور خمس دقائق يكون هناك عادة اعتذار مقتضب ، وعند أربع دقائق قبل أو بعد الموعد فإن الشخص سيتمتم بشيء ما ، بالرغم من أنه من النادر أن يكمل الجملة التي تمتم بها . إن أهمية ذكر ملاحظات مفصَّلة عن هذه المظاهر للثقافة غير الرسمية يُقتَنَع بها إذا تخيّل الشخص حالة واقعية. لقد فسَّر سفير أمريكي في دولة، بدون ذكر اسمها ، أهمية الوقت كما كان يُستخدَم في زيارات من قِبل الدبلوماسيين المحليين، بشكل خاطئ. فتأخير ساعة في نظامهم يعادل خمس دقائق في نظامنا ، وخمسين إلى خمس وخمسين دقيقة للأربع دقائق، وخمس وأربعين دقيقة لثلاث دقائق، وهكذا بالنسبة للزيارات الرسمية النهارية. وحسب مقاييسهم فقد كان الدبلوماسيون المحليون يشعرون أنهم غير قادرين على الوصول في الوقت بالضبط ؛ هذه الدقة في المواعيد يمكن أن تُفسَّر محلياً على أنها تخلٍ عن حريتهم في التصرف للولايات المتحدة. ولكنهم كانوا لا يريدون أن يسببوا إهانة ـ فتأخير ساعة كان سيعتبر متأخراً جداً ـ لذا فقد وصلوا متأخرين خمسين دقيقة. وكنتيجة لذلك قال السفير : "كيف يمكنك الاعتماد على هؤلاء الناس عندما يصلون إلى موعد متأخرين ساعة ثم يتمتمون شيئاً ما؟ إنهم لا يعطونك حتى جملة اعتذار كاملة!" لم يتمالك إلا أن يشعر بهذه الطريقة، لأن التأخير خمسين إلى خمس وخمسين دقيقة في التوقيت الأمريكي هو فترة الإهانة، في النهاية المتطرفة لمقياس الفترة الزمنية ؛ ومع ذلك فهذا مقبول تماماً في الدولة التي نتحدّث عنها .

بالنسبة لطريقة أخرى لتوزيع الوقت غير الرسمي فكِّر بعرب شرق

المتوسط، الذين يضعون تمييزات أقل مما نفعل. ويوجد لمقياسهم ثلاث نقاط فقط يمكن تمييزها بالنسبة لنقاطنا الثماني. وتبدو مجموعاتهم كما يلي: كلمح البصر، الآن (أو الحاضر)، والذي له فترات زمنية متنوعة، و للأبد (فترة طويلة جداً). في العالم العربي من المستحيل تقريباً أن تجعل شخصاً ما يكتشف الاختلاف بين الانتظار لوقت طويل والانتظار لوقت طويل جداً. إن عرب شرق المتوسط ببساطة لا يقومون بهذا التمييز الزمني.

إن الوحدات الصغرى للوقت غير الرسمي ستكون أكثر أهمية بالنسبة للقراء إذا جلسوا باسترخاء لدقيقة واحدة وفكروا في بعض التفاصيل عن الأوقات التي كانوا فيها مدركين أن الوقت إما يمر بسرعة كبيرة أو يتحرك ببطء شديد. وقد يكون مفيداً حتى إذا لاحظوا ماذا كان في الحالة التي جعلت الوقت يتصرف بالطريقة التي تصرَّف بها. إذا كانوا سيذهبون حتى أبعد ويفكرون بتفصيل تام حول كيف كانوا قادرين على التمييز بين وقت قصير جداً وبين وقت طويل بصرف النظر عن توقيت الساعة، سيكونون على الطريق تماماً لفهم كيف يعمل النظام الأمريكي. إن ما يتبع أدناه هو مجرد محاولات للتعبير بكلمات عن الأشياء التي يعرفها الناس ولكنهم لم يصوغوها بدقة.

هناك أربع وحدات صغرى تمكّن الناس من التمييز بين مجموعات الفترة الزمنية المذكورة أعلاه. إن أكثرها صعوبة في التمييز هي: الإلحاحيّة والأحادية في العمل (المونوكرونيزم) والفعالية والتنوع.

إن الانطباع عن الوقت كونه يمر بسرعة أو ببطء هو أمر متعلّق

بالإلحاحيّة. فكلما كانت الحاجة ملحَّة أكثر، بدا أن الوقت يسير ببطء أكثر. هذا ينطبق على كل شيء من الحاجات الفسيولوجية الأساسية وحتى الحاجات الناشئة من مصدر ثقافي. إن الرجل الذي لديه حاجة ملحّة للنجاح والوصول إلى القمة، سيعاني بمرور الوقت في طريقه نحو الأعلى من ألم نفسي أكثر مما سيعاني رجل آخر مسترخٍ أكثر بشأن النجاح. إن الأب الذي عنده طفل مريض وبحاجة ماسّة لعناية طبيّة يشعر بأن الوقت يتحرك ببطء شديد؛ وكذلك يشعر المزارع الذي يذبل محصوله لقلة المطر. يمكن للمرء أن يضع قوائم بكثير من الأمثلة. من ناحية أخرى، الأكثر قرباً من الموضوع هو ما لم يتم تضمينه عندما أخذنا الإلحاحية بالاعتبار كوحدة زمنية صغرى غير رسمية: أولاً، الإلحاحية على مستويات مختلفة للتحليل هي مجموعة ونمط معاً. ثانياً، إن تنوع الإلحاحية الخاص بنا يُميّزنا عن باقي الثقافة الأوربية الغربية. إن نقص الإحساس بالإلحاحية كان ظاهراً جداً للأمريكيين الذين يسافرون إلى الخارج.

حتى الإلحاحية الفسيولوجية تعالَج بشكل مختلف تماماً من قِبل الشعوب حول العالم. في عدة دول يحتاج الناس أقل مما كان الأمريكيون سيدعونه إلحاحية من أجل التحرر من التوتر. في الولايات المتحدة يجب أن تكون الإلحاحية حرجة جداً قبل أن يتصرف الناس.

إن توزيع دورات المياه العامة في أمريكا يعكس ميلنا إلى إنكار وجود الإلحاحية حتى في الحاجات الفسيولوجية الطبيعية. لا أعرف عن مكان آخر في العالم حيث أي شخص يغادر المنزل أو المكتب يوضع تحت

تعذيب متكرر بسبب أن جهوداً كبيرة بُذلت لإخفاء مواقع دورات المياه. ومع ذلك فإن الأمريكيين هم الشعب الذي يقدّر تقدم الآخرين من تمديداتهم الصحية. ويمكنك تقريباً أن تسمع المهندس المعماري والمالك يتناقشان حول دورات المياه جديدة للمتجر. المالك: "أقول، هذا لطيف! ولكن لماذا أخفيتها؟ ستحتاج لخارطة كي تجدها." المهندس المعماري: "أنا سعيد لأنها أعجبتك. لقد عملنا بجهد في دورات المياه هذه، وتجشمنا عناء كبيراً للحصول على ذلك البلاط ليكون مطابقاً. هل لاحظت الحنفيات المهوّاة المضادة لرشرشة الماء على أحواض التغسيل؟ نعم، قد يكون من الصعب قليلاً إيجادها، ولكننا نعتقد أن الناس ما كانوا سيستخدمونها إلا إذا كانوا مضطرين لذلك، ثم يمكنهم أن يسألوا موظفاً أو ما شابه."

الأحادية في العمل تعني عمل شيء واحد في كل مرة. إن الثقافة الأمريكية أحادية في العمل (مونوكرونك) بشكل مميز. ونحن كأمريكيين نجد أنه من المربك أن ندخل مكتباً في بلد أجنبي بموعد لنكتشف أن أموراً أخرى تتطلب انتباه الشخص الذي سنقابله. مفهومنا هو تركيز الانتباه أولاً على شيء واحد ثم الانتقال إلى شيء آخر.

إن الأوروبيين الشماليين وأولئك المتشاركين بهذه الثقافة منّا يوجدون تمييزاً بين ما إذا كان شخص ما منهمكاً *بنشاط* ما أم لا. في الحقيقة أننا نميّز بين أطوار "النشاط" و "السكون" لكل شيء. لذلك فإنني أشير إلى هذه الوحدة الصغرى، بحسب أصلها اللاتيني، كوحدة عمل (*ageric*) (من الفعل اللاتيني *agere* *بمعنى يعمل*). إن مجرد الجلوس

ومحاولة انتزاع إحساس بالذات، لا يعتبَر القيام *بعمل أي شيء* . لهذا السبب هناك تعليقاتٌ مثل : "لم يبد أنك تقوم بعمل أي شيء ، لذا فقد فكرتُ أن أبقى وأتحدث إليك لبرهة." الاستثناء بالطبع هو الصلاة التي لها وضعيات خاصة وسهلة التحديد مرافقة لها .

في عدد من الثقافات الأخرى، بما فيها ثقافات الـ (نافاهو) والـ (تروكيز) وعرب شرق المتوسط، واليابانية والعديد من ثقافات الهند، فإن مجرد الجلوس هو القيام بفعل شيء ما . إن الفرق بين أن تكون نشيطاً أم لا لم يتم وضعه. لذا توجد ثقافات عملية (ageric) وثقافات غير عملية (non- ageric). تكون الثقافة غير عملية إذا، أثناء عملية معالجة مسألة "يصبح متأخراً"، لم يكن هناك فرق بين ما إذا كنت تقوم بعمل ما أم لا . بالنسبة لنا، يجب علينا أن نعمل لكي نتقدَّم. فنحن لا نتقدم بشكل آلي . في الثقافات المذكورة أعلاه، هذا تقريباً ليس مهماً جداً .

يمكّننا *التنوّع* من التمييز بين الوحدات الزمنية الصغرى مثل فترة زمنية قصيرة وفترة زمنية طويلة أو فترة زمنية طويلة وفترة زمنية طويلة جداً . إن التنوع هو عامل مؤثر في الملل، في حين أن درجة الملل الذي يعاني منه الشخص تعتمد على السرعة التي يمر بها الوقت.

إننا نبحث عن التنوع في المهن والوظائف والهوايات. "يحتاج" شعبنا إلى تنوع في الأشياء المادية والطعام والملابس .. إلى آخره. تأمل للحظة حقيقة أن القليل منّا يمكن أن يقول ماذا سنأكل اليوم على الغداء أو العشاء بعد ثلاثة أيام من الآن، ناهيك عن السنة التالية. ومع ذلك هناك

ملايين من الناس في العالم يعرفون تماماً ماذا سيتناولون، إذا كان سيتوفر لديهم شيئ يتناولونه أصلاً. سيأكلون الشيء نفسه الذي تناولوه اليوم، وفي الأمس وفي اليوم الذي سبقه.

أن يكون هناك تنوع في الحياة أم لا هو أمر ذو أهمية بالنسبة لنا. لنأخذ فتاة مراهقة تشتكي لأمها من أنه لم يكن هناك أي فتيان في حفلة الرقص، وهي تقصد لم يكن هناك أي فتيان جدد. إن حاجتنا للتنوع ولشيء جديد كان سيبدو أنه يتجاوز التنوع في أية ثقافة أخرى في العالم اليوم، تقريباً. إنه مهم لاقتصاد مثل اقتصادنا. فبدون التجديد لم نكن نستطيع أبداً المحافظة على توسع منشآتنا الصناعية.

على المستوى غير الرسمي للوقت فإن الاختلاف الرئيس هو بين الرتابة والتنوع. فبالتنوع يتحرك الوقت بشكل أسرع. والأشخاص المسجونون بعيداً عن الضوء حيث لا يمكنهم معرفة ما إذا كان الوقت نهاراً أم لا، يفقدون بشكل واضح كل إحساس بمرور الوقت. إنهم يصبحون فاقدي الحس بالزمان، وإذا بقوا بعيداً لفترة أطول أكثر من اللزوم فإنهم قد "يفقدون عقولهم".

كما كانت الحالة بالنسبة للنشاط، فإننا نربط التنوع بالأحداث الخارجية. إن النضج والشيخوخة ـ مجرد التقدُّم في السن ـ لا يعتبران بالنسبة لنا أنهما يشكلان تنوعاً إلا في شخص آخر، لذا فإننا سنقول: "يا إلهي، لقد هرِمَ جداً منذ آخر مرة رأيته فيها." من ناحية أخرى، بالنسبة لهنود (بويبلو) في نيومكسيكو، فإن التقدّم في السن هو شيء يجب أن

يُمارس. هذا يعني مكانة رفيعة أكثر في المجتمع ودوراً أكبر في صنع القرار. إن التنوع، من وجهة النظر هذه، هو جزء طبيعي للحياة وسمة متأصلة للذات ويزوِّد بنظرة مختلفة بشكل أساسي للحياة عن نظرتنا.

لتلخيص هذه المناقشة حول وحدات الوقت غير الرسمي الصغرى يمكننا أن نقول إن الأمريكيين يحددون فترات زمنية نسبية بأربع وسائل: درجة الإلحاحية، وإذا كانوا يحاولون القيام بأكثر من شيء واحد في الوقت نفسه، وإذا كانوا مشغولين أم لا، ودرجة التنوع الذي يدخل في الحالة. في الوحدات الصغرى غير الرسمية لثقافة ما، يجد المرء حجارة بناء الوقت التي تقوم بتشكيل القيم والقوى المحفزة التي تميِّز ثقافة ما.

إن النمذجة غير الرسمية للوقت هي أحد أكثر مظاهر الثقافة التي يتم إغفالها باستمرار. وهذا ليس بسبب أن الناس عميان أو أغبياء أو عنيدون، على الرغم من قدرتهم على التشبث بالأنماط غير الرسمية إزاء دليل وجيه يجعلهم أحياناً يبدون كذلك.

يبدو أنه من المستحيل المشاركة في نمطين مختلفين في الوقت نفسه. كما سأوضح أدناه، فالشخص يجب أن يتوقف عن استخدام واحد ليتبنى آخر. علاوة على ذلك، فالأنماط راسخة في تصرف الجماعات والمؤسسات عندما يتم تعلمها وباستمرار بعد ذلك. إنها الطرق لعمل الأشياء التي يتعلمها المرء مبكراً في حياته والتي لأجلها يُكافأ الشخص أو يُعاقَب. لذلك، فليس من العجب أن يتشبث الناس بها بعناد وينظرون باستنكار إلى جميع الأنماط الأخرى.

إن الأنماط غير الرسمية نادراً ما تكون واضحة، إن لم يكن أبداً. إنها موجودة كالهواء من حولنا. وهي إما مألوفة ومريحة أو غير مألوفة وضارّة. إن الانحرافات عن النمط تُستقبَل عادة بانفعال مشحون جداً لأن الناس لا يفعلون الأشياء بطريقتنا. "طريقتنا" هي بالطبع مدعومة أو معززة تقريباً بشكل ثابت بتبرير تقني كالآتي: "إذا تأخرت لخمس دقائق عن اجتماع وتركت عشرة أشخاص ينتظرون، فإنك بذلك أضعت تقريباً ساعة من وقتهم."

في الولايات المتحدة تكون طبيعة النقاط المحددة على مقياس الوقت مسألة نمذجة، وكذلك هي معالجة الفترات الفاصلة بينها. على العموم فإن الفراغ بين النقاط لا يُنتَهك. هذا يعني، بالمقارنة مع بعض الأنظمة الأخرى يوجد فقط مقدار محدد للتوسع أو التحريف في الفترات الزمنية وهو مقدار مسموح به. إن التكيُّف مع هذه الطريقة لفهم الوقت يبدأ مبكراً جداً بالنسبة لنا. تقول الأم: "أعتقد أنني أخبرتك أن بإمكانك اللعب مع سوزان حتى الساعة الخامسة. ماذا تقصد بالبقاء هناك حتى وقت العشاء تقريباً؟" فيما بعد في الحياة نسمع الأب يقول لصديق: "لقد وعدت أن أقضي ساعة مع (جوني) لنعمل في بيته فوق الشجرة، ولا يمكنني أن أنصرف بأقل من ذلك بكثير." وفي حياة الكبار: "ولكن سيد (جونز) هذه ثالث مرة حاول فيها السيد (بروان) مقابلتك، وأنت وعدت أن تقضي على الأقل ثلاثين دقيقة لمراجعة تلك المواصفات معه."

يسمح نمطنا بقليل من التغيير في موقع الـ"الوحدات الزمنية

الصغرى" بمجرد أن توضع على جدول مواعيد ، ولا يسمح كذلك بكثير من التلاعب سواء بحجم أو موقع النقاط المحددة على مقياس الوقت. إن موعداً للحديث عن عقد ما مُدرج على جدول المواعيد بأن يبدأ في الساعة العاشرة وينتهي في الساعة الحادية عشرة ليس من السهل أن يُنقَل، ولا يمكنك أن تتحدث عن أي شيء آخر غير العقد دون إغضاب الناس. فبمجرد أن تم وضع جدول المواعيد ، فإنه يكون مقدّساً تقريباً ، بحيث أنه ليس فقط شيئاً غير لائق أن تتأخر ، وفقاً للنصوص الرسمية لثقافتنا ، ولكنه انتهاك للأنماط غير الرسمية أن تستمر في تغيير جداول المواعيد أو أن تحيد عن جدول الأعمال.

درجة أهمية ذلك في ثقافات أخرى لم يتم تحديدها بدقة. هناك حالات حيث يُعالج المحتوى أو "جدول الأعمال" لفترة زمنية محددة بشكل مختلف تماماً. في الشرق الأوسط، مرة ثانية، فإن رفض مجموعة ما الحضور إلى موعد ومناقشة موضوع الاجتماع يعني غالباً أنه لا يمكنهم الموافقة على شروطك ولكنهم لا يرغبون برفضك، أو ببساطة أنه لا يمكنهم مناقشة المسألة التي هي قيد البحث لأن الوقت لم يحن بعد. وعلاوة على ذلك، فإنهم لن يشعروا أنه من غيراللائق أن يتقابلوا مع عدم التطرُّق نهائياً لموضوع الاجتماع.

يتطلب نمطنا تثبيت جدول الأعمال بشكل غير رسمي مسبقاً. ونحن إجمالاً لا نشعر بأريحية كبيرة ونحن نحاول أن نعمل في وضع شبه علني للوصول إلى جدول أعمال، بالطريقة التي يعمل بها الروس ذلك. إننا

نفضل أن نفترض أن الفريقين يريدان أن يتحدثا حول الموضوع وإلا ما كانا سيحضران إلى هناك، وأنهما منهمكان بشكل كاف في الموضوع ليجعلاه جديراً بإنفاق وقتهما عليه. بالنسبة للروس هناك دلالات، على الرغم من أن هذا هو الوضع الصحيح، بأن التفاوض حول النقاط المنفصلة لجدول الأعمال يشير من ناحية أخرى إلى الطريقة التي سيتصرف بها الخصم أثناء الاجتماع الحقيقي. ولأننا لم نقرر جدول الأعمال تقنياً ولكن وافقنا بشكل غير رسمي على ما كان يجب أن يُختار، فإن اللين من جانبنا في بداية التفاوض يُفسَر غالباً على أنه ضعف. أو ربما يعطي انطباعاً بأننا سنتنازل عند نقاط معينة عندما لا نكون كذلك أبداً.

ذكر سابقاً أن محتوى وحدود فترات الوقت كانت مقدسة إلى حد بعيد. ولكن إذا تمت مناقشة الموضوع بشكل مرضٍ، أو أصبح من الواضح أنه لا يمكن تحقيق أي تقدم، عندئذ ربما يُقطع الاجتماع أو الزيارة. هذا غالباً يترك الناس يشعرون بغرابة نوعاً ما. على العموم، فإن النمط المهيمن بالنسبة لنا هو أنه بمجرد أنك جدولت الوقت فيجب عليك أن تستخدمه كما تم تحديده، حتى عندما يتضح أن ذلك ليس ضرورياً أو مفيداً.

إن كل ذلك يبدو غريباً جداً بالنسبة للعرب. إنهم يبدأون عند نقطة واحدة ويستمرون حتى ينتهوا أو حتى يتدخل شيء آخر. الوقت هو ما يحدث قبل أو بعد نقطة معينة. والشيء الذي يجب تذكره في مقارنة النظامين هو أن الأمريكيين لا يمكنهم تغيير فواصل جداول المواعيد بدون انتهاك قاعدة ما، بينما العرب يمكنهم ذلك. بالنسبة لنا الأجزاء المستقلة

مقدّسة. وإذا خصصنا وقتاً كثيراً لنشاط محدد، يمكننا أن نغيره مرة واحدة، أو ربما مرتين، عندما نحاول أن نكتشف مقدار الوقت المناسب للنشاط. لا يمكننا أن ننقل جدران أجزاء وقتنا إلى الأمام وإلى الوراء باستمرار، على الرغم من أن نشاطاً ما يمكن أن يتطلّب مثل هذه المرونة. إن نمط جدار الوقت الثابت ينطبق على معظم الحالات، حتى الفترات الزمنية الطويلة، مثل كم من الوقت يستغرق إكمال مهنة جامعية.

من غيرالضروري أن تغادر البلاد لكي تواجه أنماط وقت مختلفة بدرجة كبيرة. هناك اختلافات بين عائلات واختلافات بين رجال ونساء؛ اختلافات وظيفية واختلافات في المراكز واختلافات إقليمية. إضافة إلى ذلك هناك نمطان أمريكيان أساسيان يتضاربان عادة. وقد أطلقت عليهما "نمط الموعد المُنتشر" و "نمط الموعد المُرحَّل". إن الاختلاف بينهما له علاقة بما إذا كان التفاوت على جانب واحد من الموعد أم منتشراً حوله.

عند مقارنة سلوك مجموعتين من الناس يتشاركون في النمطين، يلاحظ المرء ما يلي: لنأخذ الساعة 8:30 صباحاً كهدف، سيصل المشاركون من نمط "الموعد المرحَّل" مبكرين في أي وقت بين 8 صباحاً حتى 8:27 صباحاً (قبل الوقت بلحظات)، في حين تصل الأغلبية في حوالي 8:25 صباحاً. وستصل مجموعة الموعد المُنتشر في أي وقت بين 8:25 صباحاً وحتى 8:45 صباحاً. كما يمكن أن يُلاحظ، لا يوجد عملياً توافق بين هاتين المجموعتين.

يمكن أن يتذكر القارئ سلوكه خلال ارتباطات مسائية. إن شخصاً

يُدعى ليقضي أمسية ما ويصل في حوالي "التاسعة"، ما كان سيفكر باستخدام نمط "الموعد المنتشر" النهاري. إن نمط "الموعد المُرحَّل" يكون إجبارياً، وعادة عشر إلى خمس عشرة دقيقة على الأقل بعد الساعة ولكن ليس أكثر من خمس وثلاثين أو أربعين دقيقة. إذا دعي إلى العشاء، مع خليط من المشروبات قبله، فإن التفاوت يكون أقل بكثير. فمن المسموح أن تصل في الساعة 7:05 من أجل ارتباط عند الساعة السابعة ولكن ليس متأخراً أكثر من 7:15. إن فترة "تمتمة بشيء ما" تبدأ عند الساعة 7:20، وقريباً من 7:30، ينظر الأشخاص حولهم ويقول كل منهم: "أتساءل ماذا حدث لعائلة (سميث)؟" وقد تكون المضيفة قد وضعت اللحم للشواء في الفرن. في مدينة نيويورك يوجد فرق كبير بين حفلة كوكتيل "من 5 إلى 8"، عندما يصل المدعوون بين 6 و 7:30 ليمكثوا لساعات، وبين وقت حفلة عشاء عندما يُسمح بعشر دقائق تأخير كأقصى حد.

بهذه الشروط فإن تنحية الموعد الحقيقية تعتمد على ثلاثة أشياء: (أ) نوع المناسبة الاجتماعية وما سيُقدَّم فيها؛ (ب) مركز الفرد الذي تتم مقابلته أو زيارته؛ (ج) طريقة الفرد الخاصة في التعامل مع الوقت.

عندما يحدث تغيير في مكتب ما من موعد منتشر إلى موعد مرحَّل، فإن الموظفين يشعرون باستياء تجاه ذلك. فجماعة الموعد المنتشر لا يشعرون حقاً براحة أبداً مع النمط الآخر. مثل هذه التغييرات تُفسَّر على أنها سلب المراكز من أصحابها. هذا يعني أن تقدير الرئيس لهم نزل إلى مرتبة أدنى. هذا بسبب استخدام النمط ذاته عند مقابلة أصحاب المقامات

الرفيعة وعندما توجد مسافة اجتماعية شاسعة بين الأفراد . من ناحية أخرى، فهؤلاء الأشخاص ذوو الموعد المرحَّل يعتبرون كل شخص آخر غير لائق للأعمال التجارية، وصبيانياً، ولديه معنويات تنظيمية ضعيفة. إنهم يشعرون بنقص في السيطرة ولا يثقون في النوع الأكاديمي من المتمسكين بشأن الوصول "في الموعد". إن الجهود المتواصلة لإلزام العلماء بنمط الموعد المرحَّل عن طريق إقحام جداول مواعيد صارمة هي وأحدة من عدة أشياء ساعدت في انتقال العديد من العلماء من العمل الحكومي خلال السنوات القليلة الماضية.

إقليمياً، في الولايات المتحدة هناك كما يبدو تنوعات غير محدودة في طريقة معالجة الوقت. وهذه التنوعات تُقارَن بتنوعات في تفاصيل الكلام المرتبط بالمناطق المختلفة للبلاد. كل شخص يشارك في النمط الكلي الذي يجعل من الممكن بالنسبة لنا أن نُفهَم بشكل متبادل أينما نذهب.

فيَ ولاية يوتا، حيث أصبحت طائفة المورمون تقنية بطريقة ما بشأن الوقت وطوّرت فيما بعد أنظمة رسمية قوية مشددة على الدقة، فإنك تجد نمط الموعد المرحَّل بتفاوت قليل. هذا يعني أن المحاولة قد حصلت للوصول "في الموعد"، مما يعني قبل الموعد بقليل وليس أكثر من دقيقة تأخير واحدة. ونظراً لأنه، وفقاً لنظامهم، من الأسوأ أن تكون متأخراً من أن تكون مبكراً، فإنهم يصلون في الجانب المبكر من الموعد، تماماً كما يفعل العسكريون. إن ما يُبلغه هذا للأمريكيين الآخرين هو أن طائفة المورمون جديّون بشأن عملهم أكثر من الأمريكيين العاديين.

يقوم سكان المنطقة الساحلية الشمالية الغربية للولايات المتحدة ببعض الأشياء الغريبة مع الوقت، عندما يُراقب من وجهة نظر بقية الدولة. فهم سيدعون شخصاً لموعد في السادسة مساءً إذا كانوا يريدونه أن يصل عند السادسة والنصف مساءً، ثم يأملون أن يصل هناك. إن تفاصيل التمتمة باعتذار بعد أربع دقائق هو شيء غير شائع وهو مُستنكَر بشدة من قِبل الكثيرين.

من ناحية أخرى، فالجزء الجنوبي من البلاد الأكثر تقليدياً يبدو أنه يتصرف إلى حد كبير كما هو متوقع؛ ويُبطئ الناس الأشياء بالسماح بتفاوت في النمطين. ويجد المرء مدى مسموحاً به أكبر ،أو مدى أوسع للإنحراف عن الهدف، مما هو الأمر في الشمال الشرقي الحضري. والشيء نفسه يمكن أن يُقال عن الغرب القديم.

10

المكان يتكلم

إن كل كائن حي له حد مادي يفصله عن بيئته الخارجية. بدءاً بالبكتيريا والخلية البسيطة وانتهاءً بالإنسان، فكل كائن حي له حد بيّن يحدد أين يبدأ وأين ينتهي. وبالصعود لمسافة قصيرة على سلّم تطور السلالات، يظهر حدّ فاصل آخر غير مادي يوجد خارج نطاق الحدّ المادي. إن تعيين هذا الحدّ الفاصل الجديد أصعب من الأول ولكنه بالواقعية نفسها. إننا ندعو هذا الحد الجديد "منطقة الكائنات الحية". إن تصرف إدعاء الحق في المنطقة والدفاع عنها يسمى إصطلاحياً الإقليمية. والإقليمية هي ما يتركز عليه البحث في هذا الفصل. وتصبح متطورة جداً عند الإنسان، كما تختلف بشكل كبير جداً من ثقافة إلى أخرى.

إن أي شخص كانت له تجربة مع الكلاب، خاصة في محيط ريفي مثل مزارع تربية المواشي والخيول ومزارع المحاصيل، يكون مطلعاً بشكل جيد

على الطريقة التي يتعامل بها الكلب مع المكان. في المقام الأول، يعرف الكلب حدود "فناء" سيده وسيدافع عنه ضد الانتهاك. ويجد كذلك أماكن معينة ينام فيها: هناك مكان بجانب الموقد، أو مكان في المطبخ، أو مكان في غرفة الطعام إذا سُمح له النوم فيها. باختصار، للكلب أماكن ثابتة يعود إليها مرة بعد الأخرى، حسب الحاجة. كما يمكن للمرء أن يلاحظ أن الكلاب تُنشئ مناطق حولها. ويدخل الشخص إليها بالاعتماد على علاقته بالكلب وبالمنطقة، فالمعتدي يمكن أن يثير تصرفاً مختلفاً عندما يجتاز الخطوط الخفية ذات المعنى بالنسبة للكلب.

هذا يُلاحظ بشكل خاص في الإناث مع جرائهن. فالأم التي ولدت جراء جديدة في حظيرة تُستخدم بشكل نادر، فإنها ستطالِب بالحظيرة على أنها منطقتها. فعندما يفتح الباب فإنها قد تقوم بحركة ضئيلة في إحدى الزوايا. وربما لن يحدث شيء آخر أثناء تحرُّك المتطفل عشرة إلى خمسة عشر قدماً داخل الحظيرة. ثم قد ترفع الكلبة رأسها أو تنهض، وتدور حول المكان ثم تضطجع عندما يتم اجتياز حد فاصل غير مرئي آخر. يمكن للمرء أن يعرف تقريباً أين هو الخط عن طريق الانسحاب ومراقبة متى ينخفض رأسها للأسفل. وعند اجتياز خطوط إضافية، ستكون هناك إشارات أخرى كضرب بالذيل أو زمجرة منخفضة أو تهمير.

يمكن أن يلاحظ المرء تصرفاً مشابهاً في فقاريات أخرى ـ مثل السمك والطيور والثدييات. إن للطيور إقليمية متطورة، مناطق يدافعون عنها على أنها خاصة بهم ويعودون إليها سنة بعد سنة. بالنسبة لأولئك الذين رأوا

طائر أبو الحنا وهو يعود إلى العش نفسه كل سنة فهذا لا يدهشهم. تُعرف الفقمات والدلافين والحيتان بأنها تستخدم مكان الولادة نفسه. وتُعرَف الفقمات المنفردة بأنها تعود إلى الصخرة نفسها سنة بعد سنة.

طوّرت الشعوب إقليميتها إلى حد لا يُصدَّق تقريباً. ومع ذلك فإننا نُعامل المكان إلى حد ما كما نعامل الجنس. فهو موجود ولكننا لا نتحدث عنه. وإذا تحدثنا، فإنه بالتأكيد غير متوقَّع منّا أن نصبح تقنيين أو جديين بشأنه. يكون رجل البيت دائماً دفاعياً تجاه "كرسيه". كم عدد الناس الذين كانت لهم تجربة الحضور إلى داخل غرفة فيرون كرسياً كبيراً مريحاً ويتجهون نحوه، ولكن فقط لكي يكبحوا أنفسهم من الوصول إليه، أو يتريثوا ويستديروا نحو الرجل ويقولوا: "آه، هل كنت على وشك الجلوس على كرسيك؟" وعادة يكون الجواب، بالطبع، مؤدباً. تخيل التأثير إذا كان المُضيف سينفّس عن مشاعره الحقيقية ويقول: "ياللجحيم، نعم إنك تجلس في كرسيّ، وأنا لا أحب أن يجلس أحدٌ في كرسيّ!" ولسبب غير معروف، فإن ثقافتنا كانت تميل إلى تقليل أهمية المكان أو إلى إحداث كبت وفصل للمشاعر التي لدينا بشأن المكان. إننا ننزله إلى مرتبة غير الرسمي ومن المحتمل أن نشعر بالذنب كلما وجدنا أنفسنا نغضب لأن شخصاً ما قد أخذ مكاننا.

تتوطد الإقليمية بسرعة كبيرة لدرجة أنه حتى الجلسة الثانية في مجموعة محاضرات تكون كافية لكي تجد النسبة الأكبر من الحضور يعودون إلى أماكن جلوسهم نفسها. وأكثر من ذلك، إذا كان شخص ما

يجلس في مقعد معين وشغله شخص آخر، يمكن للمرء أن يلاحظ غضباً سريعاً. توجد بقايا دافع قديم لرمي المتطفل خارجاً. إن المتطفل يعرف هذا أيضاً، لأنه سيستدير أو يرفع بصره ويقول: "هل أخذت مقعدك؟" عند هذه النقطة فإنك تكذب وتقول: "آه لا، كنت سأنتقل على أي حال."

ذات مرة أثناء الحديث حول هذا الموضوع إلى مجموعة من الأمريكيين الذي كانوا يسافرون إلى دول أجنبية، رفعت سيدة مهذبة جداً وذات أسلوب لطيف جداً يدها وقالت: "أنت تقصد أنه من الطبيعي بالنسبة لي أن أشعر بغضب عندما تستولي إمرأة أخرى على مطبخي؟" الجواب: "إنه ليس طبيعياً فقط ولكن معظم النساء الأمريكيات لديهن مشاعر قوية بشأن مطابخهن. حتى الأم لا يمكنها أن تدخل مطبخ ابنتها وتغسل الصحون بدون إزعاجها. إن المطبخ هو المكان الذي فيهلمن يسودلل يستقر. جميع النساء يعرفن هذا، وبعضهن يمكنهن حتى الحديث حوله. البنات اللواتي لا يمكنهن الاحتفاظ بالسيطرة على مطابخهن سيكنّ دائماً تحت نفوذ أي إمرأة تدخل هذه المنطقة."

تابعت السائلة: "هل تعرف أن ذلك يجعلني أشعر بارتياح كبير. إن لدي ثلاث أخوات كبيرات وأم، وفي كل مرة يحضرن إلى البلدة يدخلن مباشرة إلى المطبخ ويبسطن نفوذهن. أريد أن أخبرهن أن يبقين خارج مطبخي، وأن لديهن مطابخهن وهذا مطبخي أنا، ولكنني دائماً كنت أعتقد أنه كان لدي أفكار قاسية عن والدتي وأخواتي، أفكار لم أكن أظن

أنها يمكن أن تراودني. إن هذا يريحني جداً، لأنني أعرف الآن أنني كنت على صواب."

إن متجر الوالد بالطبع هو منطقة مقدسة أخرى يفضّل المحافظة عليها كذلك. والشيء نفسه ينطبق على غرفة مكتبه، إن كان له واحدة.

عندما يسافر الشخص إلى الخارج ويدرس الطرق التي يتم التعامل بها مع المكان، فسيتم اكتشاف تنوعات مذهلة ـ اختلافات نستجيب نحوها بقوة. ونظراً لأن لا أحد منّا قد تعلّم أن ينظر إلى المكان في معزل عن باقي الأشياء المترابطة، فإن المشاعر المُلمَّح إليها بالتعامل مع المكان تُعزى غالباً إلى شيء آخر. عند النضوج يتعلم الناس واقعياً آلاف الكلمات الخاصة بالحيِّز، وجميعها لها معانيها الخاصة في سياقها الخاص. هذه الكلمات *تُطلِق* إستجابات تم تكوينها سابقاً إلى حد بعيد بالطريقة نفسها التي جعلت أجراس (بافلوف) كلابه يسيل لعابها. ولكن كم هي دقيقة الذاكرة المكانية هو أمر لم يُختبَر تماماً أبداً. ومع ذلك توجد دلائل على أنها طويلة المدى إلى حد بعيد.

تُعلِّمنا آلاف التجارب وبشكل غير واعٍ أن المكان يتواصل. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة من المحتمل أنها لم تكن ستصل إلى مستوى الوعي أبداً لو لم يكن قد تم إدراك أن المكان منظَّم بشكل مختلف في كل ثقافة. إن الروابط والمشاعر المنطلقة من أحد أفراد ثقافة ما دائماً تقريباً تعني شيئاً آخر في ثقافة أخرى. عندما نقول إن بعض الأجانب "جريئون أكثر من اللازم" فكل ذلك يعني أن معالجتهم للمكان تستدعي هذا المعنى في أذهاننا.

إن ما يتم إغفاله هو أن الاستجابة موجودة *بشكل كامل* وقد كانت موجودة طوال الوقت. وليست هناك فائدة من شعور الأشخاص ذوي النوايا الحسنة بالذنب لأنهم يغضبون عندما يُبدي أحد الأجانب تجاههم إشارة مكانية تُطلِق غضباً أو عدوانية. إن الشيء الرئيس هو أن تعرف ما الذي يحدث وتحاول أن تكتشف أي إشارة كانت هي المسؤولة. والخطوة التالية هي اكتشاف، إن أمكن، ما إذا كان الشخص ينوي حقاً أن ينفّس عن هذا الشعور المحدد أم أنه كان يقصد أن يُحدث رد فعل مختلفاً.

إن كشف النقاب عن الإشارات الخاصة في كل ثقافة أجنبية هو عملية مُجهدة وشاقة. عادة من الأسهل بالنسبة للقادمين الجدد أن يصغوا إلى ملاحظات المتمرسين ثم يختبروا هذه الملاحظات بناءً على تجربتهم الخاصة. في البداية من المحتمل أن يسمعوا ما يلي: "سوف تعاني من وقت صعب لتعتاد على الطريقة التي يقوم بها هؤلاء الناس بمزاحمتك. لماذا، عندما تحاول شراء تذكرة للمسرح، فبدلاً من أن يقف الجميع في دور وينتظروا أدوارهم، يحاول جميعهم أن يمدّوا أنفسهم ويدفعوا بنقودهم إلى بائع التذاكر في الوقت نفسه. إن الطريقة التي يجب عليك فيها أن تتدافع وتقحم نفسك بالقوة لتحافظ على مكانك هو شيء مرعب. لماذا، آخر مرة وصلت فيها إلى شباك تذاكر مسرح وقلبت رأسي إلى الأعلى نحو الفتحة، كانت هناك خمس أذرع وأيدٍ تحاول الوصول من فوق كتفي وهي تلوّح بالنقود." أو ربما يسمعون ما يلي: "إن الأمر يشبه إلى حد كبير قيمة حياتك عندما تركب عربات الترام. إنها أسوأ من قطاراتنا النفقية (المترو). والأكثر من ذلك

أولئك الناس لا يمانعون في ذلك نهائياً." بعض ذلك ينشأ من حقيقة أننا كأمريكيين يوجد لدينا نمط لا يُشجِّع الملامسة باستثناء في اللحظات الحميمية. وعندما نركب في عربة ترام أو في مصعد مزدحم فإننا نكبح أنفسنا"، كوننا قد تعلمنا من الطفولة المبكرة أن نتجنب الملامسة الجسدية مع أغراب. في الخارج، يكون الأمر مربكاً عندما يتم تحرر مشاعر متناقضة في الوقت نفسه. وتمطر حواسنا بوابل من اللغة الأجنبية والروائح المختلفة والإيماءات وكذلك بمجموعة من الإشارات والرموز.

من ناحية أخرى، إن حقيقة أن أولئك الذي كانوا في دولة أجنبية لبعض الوقت يتحدثون عن هذه الأشياء هو أمر يزوّد القادم الجديد بتحذير مُسبق. إن التغلب على اللكنة المكانيّة هو أمر بمثل أهمية التخلص من لكنة محكيّة وأحياناً أهم. ويمكن أن تكون النصيحة للقادم الجديد هي : "راقب أين يقف الناس ولا تُزاحم. قد تشعر بشيء غريب عند القيام بذلك، ولكن من المدهش كم هو الفرق الذي يُحدثه ذلك في مواقف الناس تجاهك.

كيف تستخدم الثقافات المختلفة المكان

منذ عدة سنوات مضت نشرت إحدى المجلات خارطة للولايات المتحدة كما يراها المواطن النيويوركي العادي. لقد كانت تفاصيل نيويورك واضحة جداً، وكذلك تم إظهار الضواحي التي تقع شمالها بدقة. وظهرت هوليوود ببعض التفصيل بينما كان المكان بين نيويورك وهوليوود عبارة عن فراغ تام تقريباً. وكانت الأماكن مثل (فينيكس) و(آلبوكيركي)

و (جراند كانيون) و (تاوس) في نيو مكسيكو، جميعها مختلطة بفوضى ميؤوس منها. كان من السهل أن ترى أن النيويوركي العادي يعرف القليل ويهتم أقل لما كان يحدث في باقي البلاد. وبالنسبة لعالِم الجغرافيا كانت الخارطة تحريفاً من أسوأ نوع. وبالرغم من ذلك، كانت دقيقة بشكل مدهش بالنسبة لعالم الثقافة. فقد أظهرت الصور غير الرسمية التي يحصل عليها الناس عن باقي البلاد.

وكطالب في الدراسات العليا عشت في نيويورك، وكان صاحب السكن أمريكي من الجيل الأول من أصل أوروبي عاش في نيويورك طوال حياته. وأثناء مغادرتي في نهاية السنة الدراسية نزل صاحب السكن ليراقبني وأنا أحمِّل سيارتي بأمتعتي. وعندما قلت إلى اللقاء، علَّق قائلاً: "حسناً، في إحدى أمسيات يوم أحد، أضع عائلتي في السيارة وننطلق إلى نيومكسيكو ونراك."

إن الخارطة وتعليق صاحب السكن يوضحان كيف يعالج الأمريكيون الوقت بطريقة شخصية جداً. إننا نتخيل العلاقة بين الأماكن التي نعرفها بالخبرة الشخصية. والأماكن التي لم نذهب إليها والتي لسنا على معرفة شخصية بها تميل لأن تبقى مشوشة.

يبدأ الحيِّز الأمريكي عادة بـ"مكان" ما. إنه أحد أقدم المجموعات وهو مشابه *للوغار* الإسباني، ولكن ليس نفسه بالضبط. لن يعاني القارئ من صعوبة في إيجاد طرق يُستخدم فيها المكان: "لقد وجد مكاناً في قلبها"، "كان لها بيت (مكان) في الجبال"، "لقد سئمت من هذا المكان"،

وهكذا . إن أولئك الذين عندهم أطفال يعرفون كم هو صعب أن تجعل مفهوم المكان كله واضحاً بالنسبة لهم ــ مثل واشنطن أو بوسطن أو فيلادلفيا ، وهلم جراً . يحتاج الطفل الأمريكي ما بين ست إلى سبع سنوات قبل أن يكون قد بدأ باستيعاب المفاهيم الرئيسة للمكان . إن ثقافتنا تقدّم تنوعاً كبيراً للأماكن ، بما فيها طبقات مختلفة للأماكن .

مقارنة بالشرق الأوسط ، فإن نظامنا يتّصف بتسلسل رائع أثناء انتقال الشخص من فئة مكانية إلى أخرى . وتوجد في عالم العربي قرى ومدن . هذا تقريباً كل شيء . إن معظم العرب المتحضرين (من غير البدو) يعتبرون أنفسهم قرويين . والقرى الحقيقية تكون ذات عدد سكان يتراوح بين بضعة عائلات إلى عدة آلاف .

إن أصغر فئة مكانية في الولايات المتحدة ليست مشمولة باصطلاح مثل قرية صغيرة ، أو قرية أو ريف . بل يتم تعريفها فوراً على أنها وجود إقليمي لأن مثل هذه الأماكن تعطى أسماءً دائماً . إنها مناطق بدون مركز معروف حيث يعيش عدد من العائلات ـ مثل عائلة (دوغباتش) أصحاب المقالات الهزلية .

عائلاتنا مثل الـ (دوغباتش) يمثلون النمط الأمريكي بشكل سهل وغير معقّد . فقد نشروا أماكن سكناهم دون تركيز للأبنية في مكان واحد . والمكان بالنسبة لنا ، مثل الوقت ، منتشر حيث لا يمكنك أبداً معرفة أين يقع مركزه . وأبعد من ذلك ، فإن تسمية فئات المكان تبدأ بـ "متجر تقاطع الطرقات" أو "زاوية" وتستمر بـ "مركز تسوق صغير" و "عاصمة

المقاطعة" و"بلدة صغيرة" و"بلدة كبيرة" و"مركز مدينة كبيرة" و "مدينة" و"مدينة رئيسية". ومثل غالبية باقي ثقافتنا، بما يشمل نظام المقامات الاجتماعية، فليس هناك تسلسل واضح أثناء انتقال الشخص من فئة إلى أخرى. إن "نقاط التحديد" تكون ذات أحجام مختلفة، ولا يوجد إشارات لغوية تدل على حجم المكان الذي نتحدث عنه. إن الأماكن مثل الولايات المتحدة أو نيومكسيكو أو آلبوكيركي أو بَكوس، يُعبّر عنها جميعها بالطريقة نفسها وتُستخدَم جميعها بالطريقة نفسها في الجمل. إن الطفل الذي يتعلم اللغة ليس لديه طريقة لتمييز فئة مكانية ما عن أخرى بالاستماع للآخرين وهم يتكلمون.

المعجزة هي أن الأطفال في النهاية قادرون على تمييز وتحديد المصطلحات المكانية من الإشارات الضئيلة التي يزودون بها من قِبل الآخرين. حاول أن تخبر طفل في الخامسة من عمره الفرق بين أين تعيش في الضواحي وبين المدينة حيث تذهب زوجتك للتسوق. ستكون هذه مهمة مُحبِطة، نظراً لأن الطفل، في ذلك السن، يدرك فقط أين يعيش هو. إن غرفة الطفل وبيته ومكان جلوسه إلى الطاولة هي الأماكن التي يتم تعلمها مبكراً.

السبب في أن معظم الأمريكيين يعانون صعوبة في المدرسة في الجغرافيا والهندسة ينشأ من حقيقة أن الحيّز كنظام ثقافي غير رسمي يختلف عن الحيز كما يتم شرحه تقنياً حسب جغرافيا ورياضيات غرفة الصف. يجب أن نُخبر أنفسنا، لنكون عادلين، أن الثقافات الأخرى لديها مشاكل مشابهة. والراشد صاحب البصيرة هو فقط الذي يدرك أنه يوجد

شيء صعب حقاً بالنسبة للطفل ليتعلم عن الحيّز. في الواقع، أنه يجب على الطفل أن يأخذ ما هو غشاوة حيّزيّة بمعنى الكلمة ثم يعزل النقاط الهامة التي يتحدث عنها الأشخاص الراشدون. في بعض الأحيان يكون الكبار غير صبورين مع الأطفال بدون ضرورة لأنهم لا يستوعبون. الناس لا يدركون أن الطفل كان قد سمع أشخاصاً أكبر سناً يتحدثون عن أماكن مختلفة ويحاول أن يكتشف مما يسمعه الفرق بين هذا المكان وذاك. فيما يتعلق بهذا الشأن يجب أن يُوضَّح أن الأدلة الأولى التي توحي للأطفال أن شيئاً ما يختلف عن شيء آخر تأتي من الانتقال في نبرة الصوت التي تلفت الإنتباه بطرق مخادعة جداً ولكنها مهمة. التحدث بلغة متطورة تماماً كما نفعل نحن، يجعل من الصعب أن نتذكر أنه كان هناك وقت عندما لم نكن قادرين على الكلام نهائياً وعندما كانت عملية التواصل كلها تتم بواسطة تنوعات نبرة الصوت. هذه اللغة المبكرة تفتقد إلى الوعي وتؤدي وظيفتها بعيداً عن الإدراك، لذا فإننا ننسى الدور العظيم الذي تلعبه في عملية التعلُّم.

ولكي نتابع تحليلنا عن الطريقة التي يتعلم بها الأطفال عن المكان، دعونا نتحوّل إلى مفهومهم عن الطريق. في البداية الطريق هو أي شيء يتفق أن يقوموا بالقيادة عليه. هذا لا يعني أنه لا يمكنهم أن يميزوا عندما تأخذ انعطافاً خطأً. يمكنهم حتى أن يصححوا خطأً يتم ارتكابه، وكثيراً ما يفعلون ذلك. هذا يعني فقط أنهم لم يقوموا بتجزئة الطريق إلى عناصره وأنهم قاموا بالتمييز بين هذا الطريق وذلك الطريق بالطريقة نفسها تماماً التي يتعلمون بها التمييز بين الفونيم d والفونيم b في موقع ابتدائي في اللغة المنطوقة.

عند استخدام الطرق في المقارنة لمعالجة عدة ثقافات، فإن القارئ سيتذكر أن باريس، كونها مدينة قديمة كما هي مدينة فرنسية، فيها نظام تسمية شوارع يحيّر معظم الأمريكيين. فأسماء الشوارع تتغير أثناء تقدُّم المرء. لنأخذ على سبيل المثال شارع Rue St.-Honore الذي أصبح Rue du Faubourg St.-Honore ثم Avenue du Ternes ومن ثم Avenue du Roule. إن طفلاً نشأ في باريس لن يجد صعوبة في تعلُّم هذا النظام أكبر من الصعوبة التي يجدها أحد أطفالنا عند تعلُّم نظامنا. إننا نعلّم أطفالنا أن يلاحظوا نقاط التقاطع والاتجاهات وأنه عندما يحدث شيء ما ـ هذا يعني أنه عندما يوجد تغيُّر في المسار عند إحدى هذه النقاط ـ فعليك أن تتوقع أن يتغير الإسم. يتعلم الطفل في باريس أنه أثناء مروره بعلامات حدود معينة ـ مثل الأبنية المعروفة جداً أو التماثيل ـ فإن الاسم يتغير.

إنه أمر ممتع ومُثقِّف أن تراقب أطفالاً صغاراً جداً أثناء تعلمهم ثقافتهم. إنهم يستوعبون سريعاً حقيقة أنه توجد لدينا أسماء لبعض الأشياء ولا توجد لأخرى. أولاً، يحددون الشيء كله أو المجموعة ـ غرفة على سبيل المثال؛ ثم يبدأون بتركيز اهتمامهم على أشياء أخرى منفصلة مثل الكتب ومنفضة السجائر وفتحات الرسائل والطاولات وأقلام الرصاص. وبقيامهم بذلك يحققون شيئين: أولاً، يكتشفون إلى أي مدى باتجاه أسفل المقياس يجب أن ينزلوا لكي يعرِّفوا الأشياء. ثانياً، يتعلمون ما هي الوحدات الصغرى والأنماط لمعالجة الحيِّز وتسمية الأشياء. الأطفال البكر يكونون غالباً مواضيع أفضل من الأطفال المولودين ثانياً لكونهم تعلموا بالطريقة الصعبة فإن الطفل الأول سيعلم الطفل الثاني بدون تدخُّل الآباء.

ستسأل الطفلة: "ما هذا؟" وهي تشير إلى قلم رصاص. فتجيبها: "قلم رصاص." تكون الطفلة غير راضية بهذا وتقول: "لا، هذا" وهي تشير إلى قصبة القلم وتجعل الأمر واضحاً بأنها تقصد القصبة. لذا تقول لها: "آه، هذه قصبة قلم الرصاص." عندئذ تحرِّك الطفلة إصبعها ربع إنش وتقول: "ما هذا؟" وتقول أنت: "القصبة." ويتم تكرار هذا العملية وأنت تقول: "تلك ماتزال هي القصبة؛ وهذه هي القصبة. هذه كلها قصبة قلم الرصاص. هذه هي القصبة وهذا هو الرأس وهذه هي الممحاة وهذه الصفيحة الصغيرة التي تحمل الممحاة عليها." عندئذ ربما تشير إلى الممحاة وأنت تكتشف أنها ماتزال تحاول أن تكتشف أين هي الخطوط الفاصلة. وتتدبر الطفلة في أن تكتشف بمزيد من الأسئلة المبطنة حقيقة أن للممحاة جزءاً علوياً وطرفين ولكن ليس أكثر. وتتعلم أيضاً أنه يوجد فرق بين أحد الجوانب والذي يليه وأنه لا توجد علامات ملصقة على أجزاء الرأس، بالرغم من أن الاختلافات هي بين الرصاص وباقي القلم. وقد تدرك من ذلك أن المواد تختلف بعض الوقت ولا تختلف في وقت آخر. إن المناطق التي تبدأ فيها الأشياء وتنتهي جديرة بأن تكون هامة، بينما النقاط فيما بينها تُهمَل غالباً.

إن أهمية هذا كله كانت ستفوتني بلا ريب لولا تجربة في جزيرة (تروك). في سلسلة دراسات مفصلة نوعاً ما في التكنولوجيا تقدَّمت إلى درجة الاضطرار للحصول على مصطلحات التسمية لقارب التجديف ولوعاء الطعام الخشبي. عند هذه النقطة كان من الضروري بالنسبة لي أن أمر بما مر به الأطفال ـ أعني، أن أشير إلى أجزاء مختلفة بعد أن أكون قد اعتقدت

أنني استوعبت النمط وأسأل إذا كنت قد تلقيت الاسم بشكل صحيح. وكما اكتشفت سريعاً أن نظامهم في نحت حيز صغير جداً كان مختلفاً بشكل جذري عن نظامنا. فالتروكيون يعالجون المساحات المفتوحة، بدون خطوط تقسيم (كما نعرفها نحن) كأنها منفصلة تماماً وكل منطقة لها اسم. من ناحية أخرى، لم يطوّروا مصطلحات تسمية لحواف الأشياء بشكل مفصّل كما فعل الغربيون. يكفي أن يفكر القارئ فقط في حواف الأكواب وعدد الطرق المختلفة التي يمكن أن يُشار بها إليها. توجد الحافة نفسها. يمكن أن تكون مربعة أو مستديرة أو بيضاوية بقسم متقاطع، أو مستقيمة أو متماوجة أو منحنية إلى الداخل أو سادة أو مزخرفة، ومتماوجة أو مستقيمة. هذا لا يعني أن التروكيين لم يطوّروا الحواف. لقد فعلوا، ولكنه يعني فقط أنه توجد لدينا طرق للحديث حول ما نفعل و لا يوجد الكثير من الطرق للحديث حول ماذا يحدث لمنطقة مفتوحة كما يفعلون. يفصل التروكيون الأجزاء التي نعتبرها "البنية الداخلية" للشيء.

إن زخرفة معينة أو نحتاً على كل طرف من أطراف وعاء طعام على شكل قارب تعتبر على أنها منفصلة أو متميزة عن الحافة التي تم نحتها فيها. إن لها كينونة خاصة بها. على طول قعر القارب توجد للنقش، المسمى تشونفاتش، صفات يُزين بها القارب. القارب هو شيء، والتشونفاتش هو شيء آخر. إن الأماكن المفتوحة التي تكون بدون علامات على جانب الوعاء لها أسماء. ومثل هذه الاختلافات في تقسيم الحيّز تجعل متطلبات الإقامة على الأرض معقدة بشكل لا يصدّق في تلك الجزر. على سبيل

المثال، تعتبر الأشجار منفصلة عن التربة التي تنمو منها. يمكن أن يمتلك الرجل الأشجار ويمتلك الآخر التربة التي تحتها.

يذكر (بنجامين ورف)، وهو يصف كيف أن مفاهيم الـ (هوبي) عن الحيّز تنعكس في اللغة، غياب مصطلحات للأماكن الداخلية ثلاثية الأبعاد، مثل كلمات للغرفة، حجرة، قاعة، ممر، داخلي، خلية، سرداب، قبو، سقيفة، مخزن، قنطرة. هذا لا يغيّر من حقيقة أن الـ (هوبي) يمتلكون مساكن متعددة الغرف، حتى أنهم يستخدمون الغرف لغايات خاصة مثل التخزين وطحن الذرة وما شابه.

يشير (ورف) كذلك إلى حقيقة أنه من المستحيل بالنسبة للـ (هوبي) أن يضيفوا ضمير ملكية إلى الكلمة التي تعني غرفة وأنه في جدول الأشياء للـ (هوبي) "غرفة" بالمعنى الدقيق للكلمة ليست اسماً ولا تتصرف كإسم.

نظراً لوجود وفرة بالمعلومات عن كم هي قوية مشاعر الـ (هوبي) تجاه الأشياء التي تخصّهم، يجب على المرء أن يستبعد عنصر الملكية في إشارات (ورف) إلى عدم مقدرتهم على قول "غرفتي". هذا لمجرد أن لغتهم مختلفة. يمكن أن يُقاد الشخص ليفترض بذلك أن الـ (هوبي) كانوا آنذاك سيفتقرون إلى إحساس بالإقليمية. مرة ثانية، ليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة. كل ما في الأمر أنهم يستخدمون الحيّز ويفكرون به بشكل مختلف. إننا نعمل من نقاط وعلى طول خطوط. وهم بوضوح لا يفعلون ذلك. على الرغم من أنه يبدو غير ذي صلة بالموضوع، فإن هذه الاختلافات سببت مشاكل

مقلقة لا تعد ولا تحصى للمراقبين البيض الذين كانوا يديرون الأراضي المخصصة لل (هوبي) في الجزء الأول من هذا القرن.

لن أنسى أبداً اكتشافي أثناء توجهي بالسيارة نحو إحدى القرى عند طرف هضبة أن أحد الأشخاص كان يبني بيتاً وسط الطريق. ثم تطوّر الأمر فيما بعد حيث كان المذنب (في نظري) رجلاً عرفته لبعض الوقت. قلت: "(بول)، لماذا تبني بيتك وسط الطريق؟ يوجد الكثير من الأماكن الجيدة على طرفي الطريق. بهذه الطريقة يضطر الناس أن يصدموا أسفل سياراتهم وهم يقودون فوق الحجارة لكي يصلوا إلى القرية." كان جوابه مقتضباً وفي الصميم: "أعرف، ولكنه حقي." لقد كان له حق ملكية منطقة معينة تم وضعه قبل وقت طويل من وجود طريق. إن حقيقة أن الطريق استُخدم لعدة سنوات لم يكن يعني شيئاً بالنسبة له. إن استخدام أو إهمال الحيّز بلغتنا ليس له علاقة بأفكاره عن الملكية.

الحيّز كعامل في اتصال الثقافة

يعاني الأمريكي من حالة معروفة بـ"صدمة ثقافة"، كلما انتقل إلى دولة أجنبية. إن صدمة الثقافة هي ببساطة إزالة أو تحريف للعديد من الإشارات الخفية المألوفة التي يواجهها المرء في الوطن واستبدالها بإشارات خفية أخرى غريبة. إن قدراً كبيراً مما يحدث في تنظيم الحيّز واستخدامه يزوّد بأدلة هامة عن تلك الإشارات الخفية المسؤولة عن صدمة الثقافة.

يُبنى المنزل اللاتيني عادة حول فناء بجانب الرصيف ولكن متوار عن الدخلاء خلف جدار. ليس من السهل أن تصف الدرجة التي تؤثر بها

الاختلافات المعمارية الصغيرة كهذه على الغرباء. إن فنيي النقطة الرابعة الأمريكيين الذين يعيشون في أمريكا اللاتينية اعتادوا أن يشتكوا من أنهم كانوا يشعرون بأنهم "مهمشون" عن الأشياء، وبأنهم كانوا "مفصولين". واستمر آخرون يتساءلون عن ماذا كان يحدث "خلف تلك الجدران". من ناحية أخرى، يكون التجاور في الولايات المتحدة هو أساس عدة علاقات جيدة. بالنسبة لنا الجار هو في الحقيقة قريب جداً. وكون الشخص جاراً يمنحه حقوقاً معينة وامتيازات، وكذلك مسؤوليات. يمكنك أن تستعير أشياءً بما فيها الطعام والشراب، ولكن يجب عليك كذلك أن تأخذ جارك إلى المستشفى في حالة الطوارئ. فيما يتعلق بهذا الشأن فإن الجيران لهم متطلبات عليك كابن العم. ولكل ذلك ولأسباب أخرى يحاول الأمريكيون أن ينتقوا جيرانهم بعناية، لأنهم يعرفون أنهم سيوضعون في اتصال حميمي مع الناس. عندما نسكن بجانب أناس في الخارج لا نفهم لماذا لا يتماشى التشارك بالحيّز دائماً مع نمطنا الخاص. فمثلاً في فرنسا وانجلترا تميل العلاقات بين الجيران لأن تكون أبرد مما هي عليه في الولايات المتحدة. مجرد القرب المكاني لا يربط الناس ببعضهم. ففي انجلترا لا يلعب أولاد الجيران كما يفعل أولاد الجيران عندنا. وعندما يلعبون تُتخَذ أحياناً إجراءات قبل شهر وكأنهم كانوا يحضرون من الجهة الأخرى من المدينة!

مثال آخر يتعلق بطريقة تنظيم المكاتب. في هذه الحالة يلاحظ المرء تفاوتاً كبيراً بيننا وبين الفرنسيين. إن جزءاً من نمطنا الكليّ في الولايات المتحدة هو أن تأخذ مقداراً معيناً من الحيّز وتقسمه بالتساوي. وعندما

يُضاف شخص جديد إلى المكتب، سيحرِّك كل شخص تقريباً مكتبه بحيث يحصل القادم الجديد على حصة من الحيِّز. هذا قد يعني انتقالاً من المواقع التي كانت مشغولة لوقت طويل وبعيداً عن المناظر المفضلة من النافذة. إن الفكرة هي أن قوة المكتب ستقوم بعمل تعديلاتها طوعياً. في الحقيقة إنها إشارة على أنهم اعترفوا بوجود القادم الجديد عندما بدأوا بإعادة ترتيب الأثاث. وإلى أن يكون ذلك قد حدث، يمكن للرئيس أن يكون متأكداً بأن الشخص الجديد لم يتم دمجه في المجموعة.

بإعطائهم مساحة كبيرة بما فيه الكفاية، سيقوم الأمريكيون بتوزيع أنفسهم حول الجدران، تاركين المركز مفتوحاً لنشاطات المجموعة مثل المؤتمرات. هذا يعني أن المركز يخص المجموعة وعادة يكون معلَّماً بطاولة أو شيء ما موضوع هناك من أجل الاستخدام وتوفير الحيِّز. عند نقص طاولة مؤتمرات سينقل الأفراد مقاعدهم بعيداً عن مكاتبهم ليشكِّلوا "اجتماعاً" في الوسط. إن نمط انتقال الشخص من مكانه ليجتمع يُرمَز إليه في لغتنا بتعابير مثل: "كان علي أن أتخذ موضعاً جديداً عند هذه النقطة." أو "إن وضع المكتب عند هذه النقطة هو ..."

وبالمقارنة، فإن الفرنسيين لا يفسحون الطريق لبعضهم البعض بالطريقة غير الملفوظة والمسلّم بها التي نقوم بها نحن. إنهم لا يتقاسمون الحيِّز مع الزميل الجديد. بدلاً من ذلك ربما يعطوه كارهين مكتباً صغيراً في ركن مظلم يواجه الحائط. هذا التصرف يتحدث ببلاغة عن الأمريكيين الذين وجدوا أنفسهم يعملون في خدمة الفرنسيين. إننا نشعر أن عدم

"إفساح مكان" يؤكد الاختلافات في المنزلة. إذا كانت إعادة الترتيب التي تعبِّر عن ما يلي: "الآن نحن نقبلك في المجموعة، وستبقى" تفشل في الحدوث، فمن المحتمل أن الأمريكان سيشعرون بعدم الطمأنينة بشكل خطر. في المكاتب الفرنسية، الشخصية الرئيسة هي ذلك الشخص الذي في الوسط والذي يضع أصابعه على كل شيء بحيث يسير كل شيء بسلاسة. هناك تحكُّم مركَزي. إن النظام التعليمي الفرنسي يُدار من المركز إلى درجة أن جميع الطلاب في جميع أنحاء فرنسا يأخذون الحصة نفسها في الوقت نفسه.

لقد تم سابقاً ذكر أن الترتيب هو عنصر هام في الأنماط الأمريكية. وكقاعدة عامة، عندما تكون الخدمات طرفاً في الموضوع فإننا نشعر أن الناس يجب أن يصطفوا في طابور حسب ترتيب الوصول. هذا يعكس المساواتية الأساسية لثقافتنا. ومثل هذا النظام الترتيبي قد لا يكون موجوداً في ثقافات يوجد فيها نظام طبقي أو بقاياه. هذا يعني عندما يحدد المجتمع مراتب لأغراض معينة، أو عندما تكون المراكز طرفاً في الموضوع، فإن معالجة الحيّز ستعكس ذلك.

تقديم الخدمة للناس بدون اعتبار للمنزلة التي يحملونها في مجموعتهم الوظيفية يعتبر ميزة ديمقراطية بالنسبة لنا. فيمنح الغني والفقير على حد سواء فرصاً متساوية في أن يشتروا وأن تُقدَّم لهم الخدمة حسب ترتيب الوصول. إن السيدة (غوتروكس) ليست أفضل من أي شخص آخر في صف الطابور عند المسرح. ومع ذلك، بعيداً عن الإنجليز

الـذين نتشـارك معهـم بأنمـاط الاصـطفاف في الطـابور، فـإن العديـد مـن الأوروبيين قد ينظرون إلى الوقوف في صف كانتهاك لشخصيتهم الفرديـة. هذا يذكرني بشخص بولندي تصرّف بتلك الطريقة. لقد وصف الأمريكيين بالماشية، ومجرد التفكير بهذه السلبية كان من المحتمل أن يجعله يبدأ بالاندفاع في صف الطابور عند أي مكان كان يرغب فيه. مثل هؤلاء الناس لا يمكن أن يحتملوا بقاءهم تحت سيطرة الامتثال الجماعي وكأنهم أشخاص آليّون. ظن الأمريكيون الذين كانوا يراقبون البولندي أنه كان "عدوانياً". لم يهتم بأن يخفي حقيقة أنه اعتبر أننا كنا خانعين جداً. واعتاد أن يقول: "ماذا يهم لو كان هناك قليل من الفوضى ويحصل بعض الناس على الخدمة قبل آخرين؟"

أساليب الحيّز الرسمي

حسب الثقافة التي نتكلم عنها، فإن التشكيل الرسمي للحيّز يمكن أن يتخذ درجات متغيرة من الأهمية والتعقيد. على سبيل المثال، في أمريكا لا يتخذ اتجاه واحد الأسبقية على اتجاه آخر إلا بمفهوم تقني أو منفعي. في ثقافات أخرى يكتشف المرء بسرعة أن بعض الاتجاهات مقدّسة أو مفضلة. فأبواب هنود (نافاهو) يجب أن تواجه الشرق، ومساجد المسلمين يجب أن توجه نحو مكة، والأنهار المقدسة للهند تتدفق جنوباً. يركز الأمريكيون انتباههم على الاتجاه بمفهوم تقني، ولكن ليس لديهم تفضيل رسمي أو غير رسمي. ونظراً لأن حيّزنا مُصمَم على الأغلب من قِبل أشخاص تقنيين، فإن البيوت والمدن والطرق الرئيسة تكون عادة موجهة وفقاً لإحدى النقاط على

البوصلة. والشيء نفسه ينطبق على الطرق والطرق السريعة الرئيسة عندما يكون ذلك مسموحاً طبوغرافياً، كما يحدث في الامتدادات الواسعة في إنديانا وكانساس. هذا التنميط التقني يتيح لنا أن نحدد المواقع بواسطة إحداثيات (نقطة على الخط). "إنهم يقيمون في 1321 شارع ك شمال غرب " تخبرنا هذه الجملة أنهم يسكنون في الجزء الشمالي الغربي من المدينة في المربع الشارعي الثالث عشر غرب الخط الذي يقسم المدينة إلى نصفين شرقي وغربي، والمربع الشارعي الحادي عشر شمال الخط الذي يُقسم المدينة إلى نصفين شمالي وجنوبي، وعلى الجانب الأيسر من الشارع، حوالي ربع الطريق على المربع الشارعي.

في الريف سنقول: "أخرج من المدينة على بعد عشرة أميال غرباً على الطريق السريع 66 إلى أن تصل إلى أول شارع معبّد يلتف شمالاً. انعطف إلى اليمين في ذلك الشارع ثم إمشِ سبعة أميال. إنها المزرعة الثانية على يسارك. لا يمكنك أن تخطئها."

إن مفهومنا عن الحيّز يفيد في استخدام حدود الأشياء. إذا لم يكن هناك أي حدود، نقوم بصنعها عن طريق إنشاء خطوط مزيفة (خمسة أميال غرباً وميلين شمالاً). يُعامَل الحيّز بشروط النظام الإحداثي. بالمقارنة، فإن اليابانيين وشعوباً أخرى عديدة يعملون داخل مناطق. إنهم يطلقون أسماء على "الفضاءات" ويميّزون بين فضاء والذي يليه أو بين أجزاء فضاء ما. الفضاء بالنسبة لنا فارغ - يمكن للمرء أن يدخله بتقسيمه بخطوط.

إن نمطاً تقنياً يمكن أن يكون قد نشأ من قاعدة غير رسمية هو ذلك

الخاص بقيمة الموقع أو المنزلة. لقد مجَّدنا فكرة قيمة الموقع في كل مظهر في حياتنا تقريباً، إلى حد أن الأطفال في سن الرابعة مدركون تماماً لتطبيقاته ويميلون إلى الشجار مع بعضهم البعض ليحددوا من سيكون الأول.

بالإضافة إلى قيمة الموقع، يشدد النمط الأمريكي على التساوي والتوحيد القياسي للأجزاء التي تُستخدَم لقياس الحيّز أو التي يُقسَّم بها الحيّز، سواء أكانت مسطرة أو تقسيمات ضواحي. إننا نحب أن تكون أجزاؤنا الأساسية قياسية ومتساوية. إن حجارة أبنية المدينة الأمريكية تميل لأن تتخذ أبعاداً موحدة في حين أن المدن في عدة أجزاء أخرى من العالم تُصمَم بحجارة أبنية غير متساوية. هذا يوضّح أنه لم يكن مصادفة أن الإنتاج على نطاق واسع، والذي أصبح ممكناً بالتوحيد القياسي للأجزاء، تعود أصوله إلى الولايات المتحدة. هناك أولئك الذين كانوا سيجادلون بأنه توجد أسباب تقنية قاهرة للإنتاج على نطاق واسع والتوحيد القياسي للأجزاء . من ناحية أخرى، إن تجربة الممارسة الفعلية تدل على أن الأوروبيين أنتجوا سيارات في الماضي ـ وسيارات جيدة جداً أيضاً ــ والتي كانت فيها السلندرات كلها ذات أحجام مختلفة. إن الاختلاف في الأبعاد لم يكن كبيراً، بالطبع، مسألة بضعة أجزاء من الألف من الإنش. ومع ذلك فقد كان هذا الأمر كافياً لأن يجعل السيارة تُحدث صوت ضجيج وتستهلك كثيراً من الوقود إذا قام بتصليحها تقني أمريكي غير مطلع على الأنماط الأوروبية التي تفتقر إلى تماثل الوحدات الصغرى.

في اليابان كذلك لديهم شغف بالتماثل بالرغم من أنه أحياناً مختلف

عن التماثل الخاص بنا إلى حد ما . فكل قطع بساط *(تاتامي)* الموجودة على أرض البيوت اليابانية وجميع ألواح النوافذ والأبواب هي عادة ذات أبعاد متماثلة في مقاطعة معينة . وفي إعلانات الجرائد عن منازل للبيع أو للإيجار فإن المقاييس تُعطى عادة وفقاً لعدد البسط لمنطقة معينة . وبالرغم من هذا المثال عن التماثل ، فإن اليابانيين يختلفون عنّا بطريقة يمكن أن يكون لها نتائج إقتصادية هامة .في إحدى الحالات ، مثلاً ، صنعوا طلبية هائلة من القطع الإلكترونية وفقاً لمواصفات صارمة والتي كانوا قادرين تماماً على تنفيذها . عندما وصلت البضاعة إلى الولايات المتحدة ، تبيَّن أن هناك اختلافات بين دفعات متنوعة من هذه الأجزاء . وكنتيجة لذلك اكتشف الزبون فيما بعد أنه في الوقت الذي تم فيه التحكُّم بعملية التصنيع الداخلية ، فإن اليابانيين فشلوا في توحيد أدوات قياسهم! ليس مصادفة أن يوجد مكتب للمقاييس في الولايات المتحدة . إن معظم نجاح المهارة التقنية والإنتاجية لهذه البلاد ، والذي نحاول أن نمرره إلى أمم أخرى ، يستند إلى هذه المقاييس وإلى أنماط شبيهة غير مُصرّح بها .

كيف يتواصل الحيّز

تعطي التغييرات المكانية طابعاً للإتصال ، إنها تؤكده ، وفي بعض الأحيان تهيمن حتى على الكلمة المنطوقة . إن تغيُّر المسافة بين الناس والحركة المستمرة فيها أثناء تفاعلهم مع بعضهم البعض هو جزء لا يتجزأ من عملية الاتصال . إن مسافة المحادثة الطبيعية بين غرباء توضِّح كم هي مهمة ديناميكيات التفاعل المكانيّ . إذا اقترب شخص ما كثيراً ، فإن

التفاعل يكون فورياً وآلياً ـ والشخص الآخر يتراجع. وإذا اقتربا كثيراً مرة ثانية، يتم التراجع مرة أخرى. لقد راقبت أمريكياً يتراجع على طول رواق طويل كامل في حين أن الأجنبي الذي كان يُعتبرعدوانياً يحاول أن يلحق به. هذا المشهد كان يحدث بشكل متواصل ـ أحد الشخصين يحاول أن يزيد المسافة ليكون مرتاحاً، في حين أن الآخر يحاول أن يقلّصها للسبب نفسه، ودون أن يكون أي منهما مدركاً بما كان يجري. لدينا هنا مثال على العمق الهائل الذي تستطيع الثقافة أن تكيّف به السلوك.

أحد الأشياء التي تحيرنا وتعترض طريق فهم الاختلافات الثقافية هو أنه توجد أوقات في ثقافتنا الخاصة عندما يكون الناس إما غير وديين أو عدائيين في استخدامهم للحيّز. لذلك فإننا ببساطة نربط الغريب بالمألوف، أعني أولئك الناس الذين تصرفوا بطريقة لفتت إنتباهنا إلى أفعالهم. إن الخطأ هو في التسرّع في الاستنتاج بأن الأجنبي يشعر بالطريقة نفسها التي يشعر بها الأمريكي حتى لو كانت تصرفاته العلنية مماثلة.

كل ذلك تم توضيحه فجأة عندما حالفني حسن الحظ بأن زارني رجل مميز جداً ومثقف وكان لعدة سنوات دبلوماسياً رفيع المقام يمثل دولة أجنبية. بعد مقابلته لعدة مرات، أصبحت متأثراً بحساسيته الاستثنائية للتفاصيل الصغيرة في السلوك والتي كانت مهمة في عملية التفاعل. كان الدكتور (إكس) مهتماً ببعض الأعمال التي كان يقوم بها العديد منا في ذلك الوقت وطلب إذناً بحضور إحدى محاضراتي. عند نهاية المحاضرة حضر إلى مقدمة غرفة الصف للحديث حول عدد من النقاط التي تم طرحها

في الساعة السابقة. أثناء حديثه استغرق جداً بالمعاني المتضمنة للمحاضرة وكذلك بما كان يقوله. بدأنا مواجهة بعضنا البعض وأثناء حديثه أصبحت مدركاً بضجر أنه كان يقف قريباً جداً وأنني بدأت أتراجع. لحسن الحظ أنني كنت قادراً على كبت أول حركاتي الناشئة عن الدفع وبقيت ثابتاً لأنه لم يكن هناك شيء يدلُّ على العدائية في تصرفه سوى المسافة التي تتم فيها المحادثة. كان صوته حماسياً وتصرفه فيه إصرار، وهيئة جسمه نقلت فقط اهتماماً وحماساً للحديث. وخطر لي كذلك في ومضة أن شخصاً كان ناجحاً جداً في مدرسة الدبلوماسية القديمة كان من غير المحتمل أن يترك نفسه يوصل شيئاً مُهيناً إلى الشخص الآخر إلا إذا كان خارجاً عن إدراكه المدرَّب بشكل رفيع المستوى.

وبالتجربة كنت قادراً على أن ألاحظ أنني عندما تحركتُ مبتعداً قليلاً، كان هناك تغيير في أسلوب التفاعل. لقد كان يجد مشكلة أكبر في التعبير عن نفسه. وإذا انتقلت إلى حيث كنت أشعر بأريحية (حوالي واحد وعشرين إنشاً)، كان يبدو متحيراً ومستاءً جداً، وكأنه كان يقول تقريباً: "لماذا يتصرف بهذه الطريقة؟ ها أنا أقوم بعمل كل شيء أقدر عليه للتحدُّث إليه بأسلوب ودّي وفجأة ينسحب. هل فعلت أي شيء خطأ؟ قلتُ شيئاً ما كان يجب أن أقوله؟" عند تحققي أن المسافة كان لها تأثير مباشر على محادثته، توقفت مكاني وتركته يحدد المسافة.

ليست فقط الرسالة الصوتية هي التي يتم تعديلها في التعامل مع المسافة، ولكن جوهر المحادثة يمكن غالباً أن يتطلب معالجة خاصة للحيّز.

هناك أشياء معينة من الصعب التحدث عنها إلا إذا كان الشخص داخل منطقة التحادث المناسبة.

منذ فترة ليست بالطويلة استلمتُ هدية تتكون من بعض البذور والكيماويات مع معلومات بأنني إذا زرعت البذور فإن الكيماويات ستجعلها تنمو. ولمعرفتي القليلة عن الزراعة بالماء باستثناء أن النباتات يجب أن تعلّق فوق السائل المذاب فيه الكيماويات، بدأت البحث عن إناء للورد مناسب. وفي كل محل بيع زهور كنت أقابَل بشكوك وأجبَر على المرور في روتين يتضمن شرحاً مفصّلاً عن ماذا كنت أريد وكيف تعمل الزراعة بالماء (Hydroponic).

إن جهلي بالزراعة بالماء ومحلات بيع الزهور جعلني أشعر بإحراج إلى حد كبير، لذا لم أتواصل بالطريقة التي استخدمها عندما أتحدث عن موضوع مألوف في وضع مألوف. إن الدور الذي تلعبه المسافة في حالة تواصل ما تم توضيحها بالنسبة لي عندما دخلت إلى متجر كانت الأرض فيه مليئة بالمقاعد الخشبية المتباعدة عن بعضها بمسافات فاصلة تصل إلى حوالي عشرين إنشاً. وعلى الجانب الآخر من المقاعد كانت صاحبة المتجر. عندما دخلت مدّت عنقها وكأنها تريد أن ترى من فوق المقاعد، ورفعت صوتها قليلاً لتوصله إلى الدرجة المناسبة وقالت: "ما الذي كنت تريده؟" حاولت مرة واحدة. "إن ما أبحث عنه هو إناء زهور للزراعة بالماء." "أي نوع من أواني الزهور؟" ومازال الرقبة ممدودة. عند هذه النقطة وجدت نفسي أتسلق فوق المقاعد الخشبية في محاولة جاهدة

لتقريب المسافة. ببساطة كان من المستحيل بالنسبة لي أن أتحدث حول موضوع كهذا في وضع من هذا النوع على بعد خمسة عشر قدماً. ولم أكن قادراً على الكلام بدرجة من الراحة إلى أن أصبحت على مسافة ثلاثة أقدام.

مثال آخر سيكون مألوفاً للملايين من المدنيين الذين خدموا في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية. إن الجيش بحاجته ليكون تقنياً بشأن أمور تُعالج عادة بشكل غير رسمي، ارتكب خطأ في الأنظمة الخاصة بالمسافة المطلوبة لقراءة تقرير لضابط أعلى. كل شخص يعرف أن العلاقة بين الضباط والأفراد المجندين لها عناصر معينة تتطلب مسافة وتجرداً من العلاقة الشخصية. هذا ينطبق على ضباط ذوي رتب مختلفة عندما تكون بينهم علاقة في القيادة مع بعضهم البعض. إن تعليمات تقديم تقرير لضابط أعلى كانت بأنه يجب على الضابط الأدنى رتبة أن يواصل سيره إلى نقطة تبعد ثلاث خطوات أمام مكتب الضابط، ويقف ثم يؤدي التحية ويصرِّح برتبته واسمه وعمله: "الملازم أول إكس، أقدم تقريراً كما أمرت، سيدي." الآن، ما هي المعايير الثقافية التي ينتهكها هذا الإجراء، وماذا يوصل؟ إنه ينتهك الأعراف في استخدام الحيِّز. المسافة كبيرة جداً، بقدمين على الأقل، ولا تناسب الوضع. إن مسافة الحديث العادية لأمور العمل، حيث تتضمن التجرد من العلاقة الشخصية في بداية المحادثة، هي خمسة أقدام ونصف إلى ثمانية أقدام. إن المسافة المطلوبة في أنظمة الجيش تبلغ حافة ما قد ندعوه "بعيداً". إنها تثير استجابة آلية للصراخ. هذا يقلل من الاحترام المفترَض أن يقدَّم للضابط الأعلى. هناك بالطبع العديد من

المواضيع التي من المستحيل تقريباً أن نتحدث عنها من هذه المسافة، وضباط أفراد الجيش يدركون هذا عن طريق طمأنة المجندين والضباط الأدنى رتبة، فيُطلَب منهم الجلوس أو يُسمح لهم أن يقتربوا أكثر. ومع ذلك كان الإنطباع الأول أن الجيش كان يقوم بالأشياء بصرامة.

بالنسبة للأمريكيين تكون التغييرات التالية في الصوت مرتبطة بمجالات معينة للمسافات:

1. *قريب جداً* (3 إنش إلى 6 إنش)	همس خفيف؛ سري جداً.
2. *قريب* (8 إنش إلى 12 إنش)	همس مسموع؛ خصوصي جداً.
3. *مجاور* (12 إنش إلى 20 إنش)	داخلي، صوت خافت؛ خارجي، صوت مرتفع؛ خصوصي.
4. *حيادي* (20 إنش إلى 36 إنش)	صوت خافت، جهارة صوت منخفضة؛ موضوع شخصي.
5. *حيادي* (4 ونصف قدم إلى 5 أقدام)	صوت مرتفع؛ معلومات عن أمور غير شخصية.
6. *مسافة عامة* (5 ونصف قدم إلى 8 أقدام)	صوت مرتفع مع صخب قليل؛ معلومات عامة ليسمعها الآخرون.
7. عبر *الغرفة* (8 أقدام إلى 20 قدم)	صوت عالٍ؛ حديث لمجموعة.

8. *مد حدود المسافة* — 20 قدم إلى 24 قدم. داخلياً؛ وحتى 100 قدم خارجاً؛ مسافة الترحيب، مغادرة.

إن مسافة التفاعل في أمريكا اللاتينية هي أقل بكثير مما هي عليه في الولايات المتحدة. في الواقع أن الناس لا يمكنهم التحدث بأريحية مع بعضهم البعض إلا عندما يكونون قريبين جداً للمسافة التي تثير مشاعراً جنسية أو عدوانية عند الأمريكي الشمالي. والنتيجة هي أنه عندما يقتربون نحن ننسحب ونتراجع. وكنتيجة لذلك يعتبرون أننا غير ودودين أو باردين، ومنطوين على أنفسنا وعدائيين. من ناحية أخرى، نحن نتهمهم باستمرار بملاحقتنا ومزاحمتنا والبخ في وجوهنا.

إن الأمريكيين الذين قضوا بعض الوقت في أمريكا اللاتينية دون أن يتعلموا هذه الاعتبارات المكانية يقومون بتكيفات أخرى، كأن يحصنوا أنفسهم وراء مكاتبهم، مستخدمين الكراسي وطاولات الآلات الطابعة ليبقوا الأمريكي اللاتيني على ما يُعتبر بالنسبة لنا المسافة المريحة. النتيجة هي أنه يمكن حتى أن يتسلق الأمريكي اللاتيني فوق العوائق إلى أن يكون قد حقق مسافة يمكن أن يتحدث منها بأريحية.

11

التحرر من السيطرة

إن أول فهم علمي عميق لطبيعة الثقافة يرجع إلى حوالي مائة عام. ومع ذلك حتى اليوم يُقاوم مفهوم الثقافة أو يتم تجاهله من قِبل عالم تقبَّل العديد من الأفكار المجردة والمعقدة. لماذا؟ من الغريب أن الاختلافات بين الثقافات ليست هي ما يسبب المقاومة. فهي عادة مقبولة. إن سنوات من الخبرة في محاولة تبليغ الاكتشافات الأساسية بالثقافة علمتني أن المقاومة التي يواجهها المرء فيها الكثير من الأشياء المشتركة مع المقاومة التي تعرَّض لها التحليل النفسي التي كانت قوية جداً في أول عهده. بالرغم من أن مفاهيم الثقافة (كذلك كانت الخاصة بالتحليل النفسي) هي نظرية، يثبت في النهاية أنها وثيقة الصلة بالاهتمامات الشخصية الأكثر عمقاً. إنها تمس تلك القضايا الخاصة جداً لدرجة أنه يتم تجاهلها غالباً في ذات اللحظة التي يبدأ الناس بإدراك معانيها الضمنية. إن القبول التام لحقيقة الثقافة قد يكون له نتائج ثورية.

وكوسيلة لمعالجة المعلومات المعقدة التي تواجهنا بها الثقافة، فقد عالجت الثقافة كوسيلة اتصال. هذا المدخل له معانٍ ضمنية واسعة لدراسة مستقبلية، ولكنه لا يقدّم طريقاً سريعاً لفهم كامل. إن العالم لا يتخلى عن أسراره بسهولة، والثقافة ليست استثناءً. ومع ذلك فهذا الإصرار على الثقافة كوسيلة اتصال له مظاهره التطبيقية. إن معظم الصعوبات التي يواجهها الناس في التعامل مع بعضهم البعض يمكن عزوه إلى التحريفات في الاتصال. إن النية الحسنة التي يُعتمَد عليها كثيراً لحل المشاكل، تُبدَد غالباً بشكل غير ضروري بسبب الفشل في فهم ما يتم التواصل بشأنه.

بتوسيع مفهومنا للقوى التي تكوّن حياتنا وتسيطر عليها، لا يمكن أن يحدث للناس العاديين مرة ثانية أبداً أن يعلقوا بقبضة السلوك المنمَّط الذي ليس لديهم أي إدراك له. شبّه (ليونيل تريلينغ) الثقافة ذات مرة بسجن. إنها في الحقيقة سجن إلا إذا كان المرء يعرف أنه يوجد مفتاح لفتح قفله. في حين أنه أمر صحيح أن الثقافة تقيّد البشر بعدة طرق غير معروفة، فإن التقييد الذي تمارسه هو روتين السلوك ولا شيء آخر. الكائنات البشرية لا يطوّرون الثقافة كوسيلة لخنق أنفسهم ولكن كوسيلة ليتنقلوا ويعيشوا ويتنفسوا بها ويطوروا بها تفردّهم. ومن أجل استغلالها يحتاجون لأن يعرفوا الكثير جداً عنها.

إن إدراك أن الثقافة الرسمية يمكن أن تُمارس تأثيراً موازناً على حياتنا لا يجب أن يُعتبر خطأً على أنه مقاومة التغيير. في الحقيقة، أن تقدير طبيعة وغاية الثقافة الرسمية يجب أن يمنع في نهاية المطاف قبولنا الأعمى

لتعاليم علماء النفس والمثقفين الذين، بحماسهم لتصحيح أخطاء سالفة في النظام، يصرون على أن نفسد أولادنا بعدم وضع أي حدود وبالإفراط في التساهل. هذا التساهل يعني فقط أن شخصاً آخر، ربما رجل شرطة أو قاضٍ، يجب أن يوضّح الحدود في الحياة والتي لا يُسمح للناس ببساطة تجاوزها. يجب أن ندرك أن الأطفال يجب أن يتعلموا الحدود تماماً كما يجب أن يتعلموا أنه توجد أشياء معينة يمكنهم دائماً الاعتماد عليها.

إن فهماً حقيقياً لما هي الثقافة يجب أن يُضرم من جديد اهتمامنا في الحياة، وهو اهتمام يتناقص غالباً بشدة. إنه سيساعد الناس في اكتشاف أين هم ومن هم. وسيمنعهم من أن يتم التآمر عليهم من قِبل أبناء جنسهم الأكثر شرهاً ونهباً وانتهازية الذين يستغلون حقيقة أن العامة ليسوا عادة مدركين لتلك المعايير الرسمية المشترَكة التي تعطي تماسكاً وترابطاً لمجتمعنا. هؤلاء الأشخاص الذين يعوزهم الانسجام والتكيُّف مع المجتمع والذين يفتقرون إلى أمان الدعم الذي توفره الثقافة الرسمية يريدون أن يدمروا أشياءً وأن يبنوا نفوذاً حول أنفسهم. إن قضية السناتور الراحل (مكارثي) كانت مثالاً رائعاً لهذا النوع من الانتهازية. لو كان لدى الشعب الأمريكي إدراك أكبر بأن المعايير الرسمية ليست فردية ولكن مشتركة، لربما كانوا قد أنقذوا أنفسهم من (المكارثية) بأي من مظاهرها المستقبلية.

ربما أن الفكرة الأصعب للوصول إليها ولتوضيحها هي أن الثقافة ليست فقط مفروضة على الإنسان ولكنها الإنسان بمعناه الواسع. الثقافة هي الصلة بين البشر والوسيلة التي يجب أن يتفاعلوا بها مع بعضهم البعض.

إن القيمة النفيسة ذات المعنى لحياة الإنسان هي نتيجة للملايين من التمازجات الممكنة المتضمنة في ثقافة معقدة.

كما ذكرت في المقدمة، فإن التشابه جزئي مع الموسيقى مفيد في فهم ثقافة ما. فالنوتة الموسيقية مشابهة للأوصاف التقنية للثقافة التي يبدأ عالِم الإنسان بوضعها. في كلتا الحالتين يُمكِّن نظام الرموز، أعني المفردات، الناس من التحدث عن ماذا يفعلون. موسيقياً، إن عملية وضع نوتات موسيقية مختصرة (قصيرة) لا يقلل من شأن الفنانين بأية طريقة. إنها ببساطة تمكّنهم من أن ينقلوا إلى الآخرين غير الحاضرين ماذا يفعلون عندما يعزفون. إنها، في الموسيقى، تمكّننا من أن نشارك ونحفظ العبقرية التي كانت ستصل بطريقة عادية فقط إلى أولئك الذين كانوا في الحضور أمام الفنان نفسه. إن (باخ) و(بيتهوفن) و (برامز) كان يمكن أن يكونوا غير معروفين بالنسبة لنا لو لم تكن متوفرة تحت تصرفهم إمكانيات لكتابة الموسيقى.

ومثل المُلحن المبدع، فإن بعض الناس يكونون موهوبين في الحياة أكثر من آخرين. فلديهم تأثير على من حولهم، ولكن العملية تتوقف هناك لأنه لا توجد طريقة لوصف ما الذي يفعلونه بعبارات تقنية، فمعظمه خارج عن الإدراك. في وقت ما في المستقبل، بعد وقت بعيد جداً جداً من الآن عندما تكون الثقافة مُكتشفَة بشكل أكمل، ستكون هناك القطع الموسيقية المكافئة التي يمكن تعلُّمها، كل منها لنوع مختلف من الرجال أو النساء في أنواع مختلفة من الأعمال والعلاقات، وللوقت والمكان والعمل واللهو. إننا نرى أشخاصاً ناجحين وسعيدين اليوم، ولديهم أعمال مرضية

ومنتجة. ما هي المجموعات والوحدات الصغرى والأنماط التي تميّز حياتهم عن أولئك الأقل حظاً؟ إننا نحتاج لامتلاك وسيلة لجعل الحياة أقل مصادفة وأكثر إمتاعاً. في الواقع أننا كأمريكيين قد تقدمنا شوطاً طويلاً جداً على هذا الطريق، مقارنة بشعوب عرب الشرق الأوسط والأتراك، على سبيل المثال. اكتشف البروفيسور (دانييل ليرنر)، وهو متخصص بعلم الاجتماع في معهد ماساشوسيتس للتكنلوجيا (M.I.T)، عندما قابل قرويين في (تركيا) أن فكرة تحقيق السعادة لم تكن تعني أي شيء بالنسبة لهم. ولم يدخل في عقولهم أبداً أن السعادة كانت أحد الأشياء التي كان لهم حق بأن ينتظروها من الحياة وأنه كان من المفترَض أن يكافحوا ليحققوها. هذا لا يعني أن هؤلاء القرويين لم يحصلوا على لحظات سعادة أبداً. على العكس تماماً. إنه يعني فقط أن ثقافتهم لا تتضمن هذه الوحدة الصغرى.

طوّرت جميع الثقافات قيماً فيما يتعلق بما دعوته أنظمة التراسل الأولية. على سبيل المثال، إن القيم في ثنائية الجنس تتمركز حول أنواع الرجال والنساء المفضلة وغير المفضلة، ونماذج مثالية لكي يتبعها الأطفال من كلا الجنسين. معظم هذه النماذج تكون رسمية، وبعضها غير رسمي. من ناحية أخرى، إن ما لا تفعله معظم الثقافات هو توفير أي شيء أكثر من صفات للأنواع المختلفة من الذكور والإناث الذين هم النماذج لأولادهم. إن المجتمع العصري قد عقَّد الأمور بسبب العدد المتزايد للبدائل التي يُزوَّد بها الشباب. إذا أخذ المرء بالاعتبار هنود (كومانشي) السهول الغربية القديمة، على سبيل المقارنة مع أميركيي الوقت الحاضر، فمن

الممكن أن تحصل على فكرة ما عن كيف أصبحت الحياة معقدة جداً. لقد عرف صبي كومانشي أنه كان لديه خياران فقط. كان يمكن أن يكبر ليصبح محارباً أومتشبِّهاً بالنساء (رجل يلبس ملابس النساء ويقوم بأعمالهن). كل شخص كانت لديه فكرة واضحة عما كان يعني أن يكون محارباً والمزايا التي ترافق ذلك. فإذا افتقر الصبي لسبب أو لآخر إلى الشجاعة والجرأة الضروريتين ليكون محارباً جيداً وكان خائفاً من أن يفشل كمحارب، كان البديل أن يلبس ثوب إمرأة وأن يحترف أعمال الخرز. لقد كان في حياة الكومانشي نموذجان فقط بالنسبة للبالغين؛ إما محاربون أو نساء. إن الحياة في الثقافة الأمريكية ليست بهذه السهولة. فلا توجد حتى قائمة مفصلة مقنعة لفئات الذكور والإناث للثقافة الأمريكية، على الرغم من أن بعض هذه الأنواع معروفة جيداً بدون شك بسبب الاهتمام المتواصل بهذا الموضوع من جانب الروائيين المعاصرين. لا يجب علينا فقط أن نعرف أكثر عن البدائل التي ترضي كلاً منا في حياتنا اليومية، ولكن يجب علينا كذلك أن نعرف النمط الكليّ للحياة.

أود أن أقول إنني أشعر بقوة أنه بالنسبة للرجل العادي وللعالِم فإنه يجب علينا أن ندرك ونفهم العملية الثقافية. إننا لا نحتاج إلى المزيد من الصواريخ والقنابل الهيدروجينية بالدرجة التي نحتاج فيها إلى المزيد من المعرفة الدقيقة عن أنفسنا كمشاركين في الثقافة.

ملحق I

خطة لعلماء الاجتماع

بالنسبة لعلماء الاجتماع تكمن المساهمة الأساسية لهذه الدراسة في ثماني أفكار ذات علاقة متبادلة:

1. الثقافة هي إتصال والإتصال هو ثقافة.

2. إن الثقافة ليست شيئاً واحداً، ولكن عدة أشياء. لا توجد وحدة أساسية أو جزيء أولي، ولا وحدة صغرى مفردة لكل الثقافة. توجد على الأقل عشر قواعد للثقافة، جميعها متجذرة بعمق في الماضي البيولوجي، وتفي بمطالب المعيار الصارم المفروض باستخدام نموذج لغوي للثقافة.

3. إن دراسة المؤسسات وبناءها ودراسة الأفراد وبنيتهم النفسية تم استثناؤهما من الدراسة الخاصة للثقافة كما هي مستخدَمَة هنا، على الرغم من أنهما متضمنتان على مستوى تنظيمي أعلى.

4. يعمل الناس على ثلاثة مستويات مختلفة: الرسمي وغير الرسمي

والتقني. كل منها موجود في أي حالة، ولكن أحدها يهيمن في أي فترة مفترضة من الزمن. إن الانتقالات من مستوى إلى مستوى تكون سريعة، ودراسة هذه الانتقالات هي دراسة عملية التغيير.

5. تهتم الثقافة بالرسائل أكثر من اهتمامها بأنظمة التحكُّم والشبكات. ويوجد للرسالة ثلاثة عناصر: مجموعات ووحدات صغرى وأنماط. إن المجموعات تتم ملاحظتها وتكوِّن نقطة الدخول إلى أي دراسة ثقافية. إنها محدودة العدد فقط حسب التوافيق المنمَّطة من الوحدات الصغرى التي تتكون منها. وتُستَخلَص الوحدات الصغرى من المجموعات بعملية مقارنة مجموعات على مستوى المعنى التفاوتي. يتم البدء بالتجارب المتحكَّم بها ويُسأل الشخص الخاضع للتجربة إذا ميّز بين الحدث أو الأحداث ب، ج، د، هـ، وهلم جراً، إلى أن يتم فصل جميع الفروق التي أوجدَها. وتكون الوحدات الصغرى محدودة العدد. تظهر الأنماط للعيان وتُفهَم كنتيجة للتمكُّن من المجموعات والوحدات الصغرى في سياق ذي معنى. والأنماط كذلك محدودة العدد.

6. هناك مبدأ لا تحديد في الثقافة. فالوحدات الصغرى تتحول إلى مجموعات عندما تتم دراستها بالتفصيل ولذلك تكون تجريدية. *كلما كان المراقب دقيقاً على مستوىً ما، فإنه سيكون أقل دقة على مستوىً آخر*. يمكن أن تتم دراسة مستوىً واحد بدقة في أي وقت معين، ويمكن وصف مستوىً واحد فقط في المرة الواحدة.

7. هناك كذلك مبدأ النسبية في الثقافة، تماماً كما يوجد في

الفيزياء والرياضيات. إن الخبرة هي شيء يُسقطه الناس على العالم الخارجي أثناء اكتسابهم لها بشكلها المحدد ثقافياً. يغيّر الناس *الخبرة وفقاً للحياة. ولا توجد خبرة مستقلة عن ثقافة والتي يمكن أن تُقاس الثقافة بها.*

8. إن اللا تحديد الثقافي والنسبية الثقافية ليستا مفهومين سهلي الاستيعاب. إنهما يعنيان أكثر من أن ما هو جيد وفقاً لمجموعة معايير ما قد يكون سيئاً وفقاً لمجموعة أخرى. إنهما يعنيان أنه في كل حالة يجب أن يتم تشكيل صيغة ستمكّن العلماء من موازنة الحادث أ² في ثقافة أ¹ مع ب² في ثقافة ب¹. يجب أن يبدأ تحليل ثقافي مناسب مع تحليل ثقافي محلي على مستوى الجزء المنفصل حالما يكون قد تم إدراك المجموعات.

ملحق II

خارطة الثقافة

إن أحد المنتجات الثانوية لدراساتنا حول الثقافة كوسيلة اتصال هي جدول أثبت أنه مفيد في إحدى مراحل عملنا. لقد تم تعلُّم قدَر كبير أثناء تطويره وما يزال يمثل الشيء الوحيد من نوعه الموجود اليوم. وأنا أضعه في متناول آخرين قد يكونون مهتمين بالأمر.

عملنا، زميلي (تراجر) وأنا، على فرضية أن الثقافة كانت ذات أساس بيولوجي وتتدفق ينابيعها من عدد من النشاطات دون الثقافية. لقد كنا متأكدين بدرجة معقولة أننا امتلكنا عناصر الثقافة الأساسية نظراً لأن جميع الأنظمة التي طورناها أوفت بشروط المعايير الضرورية. ولكن ما هو المغزى من كل ذلك؟ مع توفر هذه الأنظمة، هل يمكنك أن تُنشئ ثقافة من أساس كهذا؟ تذكَّر أن أحد معاييرنا للأنظمة الثقافية كان يوجِب على كل نظام أن يكون منعكساً في باقي الثقافة كما يجب أن يعكس جميع أنظمة الثقافات الأخرى. هذا أدى إلى ابتكار جدول يُظهر في مكان واحد التوافيق المتنوعة لأنظمة التراسل الأولية مع بعضها البعض. لقد بدأنا بترتيب شبكة ثنائية الأبعاد مع أنظمة التراسل الأولية على اليسار ونظائرها الإجرائية على طول الجزء الأعلى (أنظر الجدول).

بهذه الطريقة كان من الممكن أن نرى أنواع النشاطات الناتجة من التوافيق المختلفة لأنظمة التراسل الأولية، وبجدول ثبت في النهاية أنه نوع من المكافئ الثقافي للجداول الدورية للكيمياء. أخذنا نظامي تراسل أوليين مثل موارد الإعاشة والتفاعل وسألنا أنفسنا السؤال التالي: "ما هي الامتدادات الاقتصادية للتفاعل والسؤال المعاكس له، *الامتدادات التفاعلية لموارد الإعاشة*؟" لقد خرجنا بـ"التبادل" و "جماعة البيئة". *أنماط* ترابط اقتصادية وأنماط *تنظيمية* لموارد إعاشة أعطتنا "أدواراً اقتصادية" و"تجمعات مهنية"؛ والنتائج التعليمية *لموارد الإعاشة* والنتائج الاقتصادية للتعلُّم أعطتنا "التعلُّم من العمل" و"مكافآت للتعليم والتعلُّم". في بعض الحالات كنا محتارين في البداية حول إلى ماذا نشير تحت عنوان معين. فأساليب الحماية الإقليمية تسببت في توقفنا لفترة لا بأس بها إلى أن خطر لنا أن هذا كان، بالطبع، "خصوصية" على المستوى الشخصي الفردي، في حين أن *أساليب الدفاع* الإقليمي لها علاقة بتنظيم الإقليم كجزء من نظام دفاع (حواجز طبيعية كالأنهار والجبال والوديان والغابات، إلخ).

لقد تم اكتشاف أنه في العمل بالشبكة فرض أسلوب التحليل قوانينه الخاصة. أياً كان ما قررناه في أحد الأجزاء يجب أن يكون متسقاً مع كل شيء آخر. على سبيل المثال، لقد فكرنا لبعض الوقت أن الامتدادات الترفيهية *للتفاعل* كانت متعة، ولكن النمط الكلّي للجدول بالإضافة إلى بعض مظاهر الفحص الذاتي أشار إلى أن "المشاركة في الفنون والرياضة" كانت اختياراً أفضل.

إن ملاحظة مظاهر الفحص الذاتي المذكورة أعلاه حدثت بالطريقة التالية: بالالتفات إلى الجدول سيلاحظ القارئ أنه يوجد خط قطري من الجزء الأيسر العلوي إلى الجزء الأيمن السفلي مُشكّلاً بواسطة تقاطع كل نظام تراسل أولي مع نظيره الإجرائي.

خارطة الثقافة

أنظمة التراسل الأولية	تفاعلي 0	تنظيمي 1	اقتصادي 2	جنسي 3
تفاعل 0	اتصال صوتي لغة حركية لغة 00	منزلة و دور 01	تبادل 02	كيف يتفاعل الجنسان 03
اتحاد 1	جمعية 10	مجتمع، فئة منغلقة طبقة اجتماعية حكومة 11	أدوار اقتصادية 12	أدوار جنسية 13
موارد إعاشة 2	جماعة بينية 20	تجمعات توظيف 21	عمل عمل رسمي صيانة وظائف 22	تقسيم العمل حسب الجنس 23
ثنائية الجنس 3	جنس اجتماعي (فئة، نسب) 30	تجمعات زوجية 31	عائلة 32	الجنسان مذكر مقابل مؤنث جنس (بيولوجياً) جنس (تقنيا) 33
إقليمية 4	إقليم جماعي 40	إقليم مجموعة 41	مناطق اقتصادية 42	مناطق رجال ومناطق نساء 43
زمنية 5	فترات زمنية جماعية 50	فترات زمنية لمجموعة 51	دورات زمنية اقتصادية 52	نشاطات دورية للرجال وأخرى للنساء 53
تعلّم 6	مجموعة معارف أو تقاليد جماعية ـ ما يتم تعليمه وتعلمه 60	تجمعات تعلّم ـ معاهد تعليمية 61	مكافأة للتعليم والتعلّم 62	ماذا يتم تعليم الجنسين 63
لعب 7	لعب مشترك ـ الفنون والرياضة 70	مجموعات لعب ـ فرق ومغنون وممثلون 71	ترفيه ورياضة محترفين 72	لعب ولهو ومباريات للرجال وأخرى للنساء 73
حماية 8	حماية جماعية ـ أنظمة حماية منظّمة 80	مجموعات حماية ـ شرطة، صحة عامة، دين منظّم 81	أنماط اقتصادية للحماية 82	ما يدافع عنه الجنسان (المنزل، والشرف، إلخ) 83
استغلال موارد طبيعية 9	شبكات اتصال 90	شبكات تنظيمية (مدن، مجموعات أبنية) 91	طعام وموارد ومعدات صناعية 92	ما يهتم به الرجال وما تهتم به النساء وما يمتلك كل منهما 93

تشبث بالأرض 4	زمني 5	تعليمي 6	ترفيهي 7	حماية 8	استثماري لمورد طبيعي 9
أماكن التفاعل 04	أوقات التفاعل 05	تعليم وتعلُّم 06	مشاركة في الفنون والرياضية (إيجابيا وسلبياً) 07	حماية واحتماء 08	استخدام الهاتف الإشارات الكتابة، إلخ. 09
أدوار مجموعة محلية 14	أدوار مجموعة عمرية 15	معلمون ومتعلمون 16	فنانو ترفيه ورياضيون 17	حماة (أطباء، رجل دين، جنود، شرطة، إلخ.) 18	استخدام ممتلكات جماعية 19
أين يأكل الفرد ويطبخ، إلخ. 24	متى يأكل الفرد ويطبخ، إلخ. 25	التعلُّم من العمل 26	متعة من العمل 27	عناية بالصحة حماية الرزق 28	استفادة من الطعام والموارد والأدوات 29
مناطق موزعة على الأفراد حسب الجنس 34	أوقات موزعة على الأفراد حسب الجنس 35	أدوار تعليمية وتعلُّمية حسب الجنس 36	مشاركة في الترفيه حسب الجنس 37	حماية الجنس والخصوبة 38	استخدام الجنس في تمييز الديكور والتزيين 39
حيِّز حيِّز رسمي حيِّز غير رسمي حدود فاصلة 44	جدولة الحيِّز 45	تعليم وتعلُّم تعيين الحيِّز الفردي 46	ترفيه، لعب، مباريات، إلخ.. حسب شروط الحيِّز 47	خصوصية 48	استخدام الأسيجة والعلامات 49
دورات محددة إقليمياً 54	وقت متتاليات دورات تقويم 55	متى يتعلم الفرد 56	متى يلعب الفرد 57	راحة إجازات عطل 58	استخدام وسائل لإخبار بالوقت، إلخ. 59
أماكن للتعلُّم 64	جدولة التعلُّم (مجموعة) 65	اكتساب الثقافة تربية، تعليم تعلُّم غير رسمي 66	جعل التعلُّم متعة 67	تعلُّم الدفاع عن النفس والحفاظ على صحة جيدة 68	استخدام معونات التدريب 69
مناطق ترفيه 74	مواسم لعب 75	لعب تعليمي 76	ترفيه، متعة لعب مباريات 77	تمرين 78	استخدام مواد التسلية (ألعاب) 79
أي الأماكن يُدافع عنها (تتم حمايتها) 84	وقت الحماية 85	تدريب علمي وديني وعسكري 86	تمارين جماعية وألعاب عسكرية 87	حماية دفاع رسمي دفاع غير رسمي دفاعات تقنية 88	استخدام مواد للحماية 89
ملكية ـ ما يتم حصره وتعداده وقياسه 94	أي الفترات مضبوطة ومسجلة 95	مبانٍ مدرسية وسائل تدريب 96	سلع ترفيهية ورياضية وصناعاتها 97	تحصينات أسلحة حربية أدوات طبية ووسائل سلامة 98	مادة أنظمة اتصال مع البيئة سلوك حركي تكنولوجيا 99

لاحظنا أثناء تعبئة الفراغات في الشبكة، أن تلك النشاطات في أعلى الخط القطري كانت تهتم بالشخصية الفردية، وتلك التي في أسفل الخط القطري تهتم بنظيرها بالنسبة للمجموعة. لذا فإن *نتائج الجماعة الترفيهية* هي "فنانو ترفيه ورياضيون"، في حين أن *نتائج اللعب التنظيمية* هي "مجموعات لعب وفِرَق مغنين أو ممثلين."

إن الجدول كما يبدو في شكله المطبوع الآن، بالإضافة إلى قوانين استخدامه، هو في الواقع نوع من رياضيات الثقافة التي ستكون مفيدة للمختصين كما سيكون لها تطبيقات أخرى جديرة بالذكر. إنه بالطبع محدد بحقيقة أن له بعدين فقط. ويمثل الجدول ثلاثي الأبعاد الخطوة المنطقية التالية إلا أنها ستكون معقدة أكثر بكثير.

بالنظر إلى الجدول سيلاحظ القارئ أنه ليس له محتوى أو مادة وأنه مقيّد بشكل كامل بالعناوين. إن إمكانيته الحالية هي كنظام تصنيف وكقائمة تدقيق لعلماء النفس السلوكي، الذين يمكن أن يكونوا واثقين أثناء عملهم في مشاريع كبيرة أنه لم يتم إغفال أي فئات رئيسة. وهو كذلك نوع خاص من خرائط فئات النشاطات البشرية. وكخارطة يمكن أن يكون مفيداً في توزيع وتسلسل مسؤوليات العمل في مشاريع جماعية عن طريق تحديد منطقة معينة لكل عامل. كما يمكن أن يجد الطالب الناضج إثارة في إجراء تجارب على هذا الجدول وماذا يمكن أن يُنجَز به. يوجد أكثر من محور تم توضيحه بواسطة الأنظمة الأساسية التي تتقاطع. إن المناطق المتنوعة في المخطط تهتم بأشياء مختلفة تماماً؛ فالقسم العلوي

الأيسر يُعنى بالنشاطات الرسمية، والقسم الأوسط يُعنى بالنشاطات غير الرسمية، وكل القسم السفلي الأيمن يُعنى بالنشاطات التقنية. في حين أنه من الواضح جداً أن كل فئة منفصلة، فإن النشاطات ذات العلاقة تحدث في مناطق متجاورة. عندما تطوّر بالتفصيل عن طريق تجزئة كل فئة إلى جوانبها الرسمية وغير الرسمية والتقنية، فإنه يتم إضافة أبعاد جديدة.

في السنوات الأخيرة، كانت المشكلة التي يتكرر حدوثها باستمرار هي تصنيف وترميز المعلومات التي تتكدس بسرعة أكبر مما يمكن لمعظم الناس أن يعالجوها. إن النظام المُقدَّم هنا فيه 100 شق رئيس، كل منها يمثل مجموعات نشاطات مركبة يمكن فصلها بشكل غير محدد. وكل عدد ينتمي بشكل ثابت إلى حقل رئيس ــ0، تفاعل؛ 2، موارد إعاشة، 6، تعلُّم؛ -8، دفاع، وهكذا. كل من الفئات المائة يمكن أن تُقسَّم بسرعة إلى 10 أجزاء وكل من الفئات الفرعية الناتجة يقسم إلى 10 مرة ثانية. لذا فإن 80 هي دفاعات جماعية، و 80.2 هي المظاهر الاقتصادية للدفاعات الاجتماعية و 80.5 هي المظاهر الزمنية. إن ميزة مثل هذا النظام على أنظمة أخرى هي أن له أساساً نظرياً يعطيه ثباتاً تفتقر إليه النماذج التجريبية المبنية على الملاحظة والإختبار.

عند هذه النقطة من المهم أن نلفت انتباه القارئ إلى حقيقة أن الترتيب الذي تُعطى به أنظمة التراسل الأولية يبدو أنه مهم جداً. تم اختيار هذا النظام أصلاً، مع توفر هذه النشاطات، لأنه كان الأقرب إلى ترتيب النشوئينوعي الحقيقي؛ هذا يعني أن النشاطات يتم تعلمها ودمجها

في تاريخ حياة كل كائن حي. الترتيب نفسه يمكن أن يوجد في تطور ذلك الكائن. وبإنشاء هذا الترتيب فقد لاحظنا مؤخراً كذلك أن كل نظام يزدوج وظيفياً مع نظام آخر، بمعنى الزمان مع المكان، والعمل مع اللعب. كما يتوافق الترتيب مع هذه العلاقات المزدوجة. معلومات عرضية مشوّقة عن الترتيب هي أن معظم المجتمعات تصنّف الأنظمة بشكل مختلف عن الترتيب المحدد. إن التصنيف الذي يحدده المجتمع للأنظمة يوفر طريقة سريعة للوصول إلى لمحة ثقافية يمكن مقارنتها مع ثقافات أخرى. على سبيل المثال، إن المخبرين الأميركيين الذين تم الاستفهام منهم عن هذا الأمر حادوا عن الترتيب الأساسي فيما يتعلق بالمواد والتسلية وثنائية الجنس. وكما كان يمكن التنبؤ به بالنسبة للأمريكيين، فقد تم وضع المواد بالقرب من الجزء العلوي، وتنافست التسلية وثنائية الجنس على الموقع الأخير. إن المخبر العربي يختلف بشكل كبير عن الأمريكان. كان يفصل الزمان والمكان، واضعاً الوقت في النهاية وصنّفت المواد بمرتبة أدنى، في حين صنّفت أنظمة الدفاع مع الاتصال في الأعلى.

إن تصميم خارطة ثقافة هي طريقة فذة للتقدم. في الماضي لم تكن معلوماتنا ملائمة لتقديمات من هذا النوع. إن نظرية الثقافة كلها كما تم تقديمها في هذا الكتاب تختلف في كثير من المجالات الهامة عن أي فكر سابق. والاختلافات الرئيسة هي: (أ) الاستخدام لنموذج لغوي؛ (ب) الملاحظة لكل الثقافة كوسيلة اتصال؛ (ج) مفهوم أنظمة التراسل الأولية المتأصل في البيولوجيا؛ (د) أنواع التكاملات الرسمية وغير الرسمية والتقنية؛ (هـ) مشتقات تلك التكاملات: مجموعات ووحدات صغرى وأنماط.

وجد الكاتب وزملاؤه الذين عملوا معه في تطوير هذا التحليل أن العمل به مُعَزِّز وأنه منوِّر ومفض إلى مزيد من البحث. لقد أوفى بمطالبنا في الدقة والواقعية وقابلية التدريس. كما اكتشفنا، بالالتزام بواحد من أنظمة التراسل الأولية في كل مرة أثناء العمل مع مخبر، أنه من الممكن أن تحتفظ بأساس راسخ وقوي في الشيء المعلوم في الوقت نفسه الذي يدخل المرء فيه مناطق جديدة ومجهولة. على سبيل المثال، إن الوحدات الزمنية الصغرى للتنوع غير الرسمي كما يُظهرها العربي، تلقي ضوءاً جديداً كذلك على القيم العربية بطريقة كان يمكن أن تكون صعبة التحقيق بغير ذلك.

يرجى أن يفي هذا الشرح الموجز بهدفين: أن ينير غير المتخصص المهتم بأمر معالجة عدة ثقافات فيما يتعلق في طبيعة الثقافة وأن يحث الطلاب على المزيد من العمل. هناك حاجة لتحقيق الكثير من التقدم في تعريف الوحدات الثقافية الصغرى كوسيلة لمعالجة القيم. ويبدو أنه يوجد لدينا هنا بعض المبادرات حول كيف يمكن أن يتم عمل هذا.

ملحق III

ثلاثة أمثلة للتغيير

هذا الملحق تمت إضافته للمتخصص، ويصوِّر دراسات تحليلية لثلاث حالات تغيير. إنها توضِّح التعاقب من النظام الرسمي إلى غير الرسمي إلى التقني. إن تقديم حرف V في بداية الكلمة إلى الإنجليزية من الفرنسية في القرن الحادي عشر هو مثال للانتشار من ثقافة إلى أخرى. وحالة سن البرغي الموحد الذي تم اتخاذه عندما تخلّى مصنعون مختلفون عن تصميم سن البرغي غير الرسمي الخاص بهم وكانوا مستعدين لأن يخضعوا للتوحيد القياسي للأسلوب التقني. بينما حالة صناعة الخزف في الجنوب الغربي هي الأكثر تقنية ويتم إعادة ذكرها هنا بسبب اهتمام الزملاء بطرق جديدة في اختبار إعادة بناء تاريخي للماضي. إنها تُعنى بتحوّل عملية تكنولوجية كاملة بحيث يكون من الممكن أن تحصل على صورة خطوة بخطوة للطريقة التي أصبحت فيها التكنولوجيا الجديدة مندمجة، وللطريقة التي أصبحت فيها، في لحظة معينة، محررة من روابط العرف، وكيف أصبحت فيما بعد مُقيَّدة ولكن في إطار مرجعي جديد.

في إنجلترا، وقبل الاحتلال النورمندي، كان حرفا v و f حرفين مختلفين للفظ نفسه (ما يدعوه اللغوي ألوفون للفونيم نفسه). اتجه حرف f لأن يُستخدَم في موقع ابتدائي في الكلمات، في حين كان حرف v يُستخدَم بشكل أكثر شيوعاً في الوسط. من ناحية أخرى، استخدم الفاتحون الفرنسيون هذين الحرفين كلفظين منفصلين تماماً، كما نفعل اليوم بالضبط.

من ضمن المعوقات الثقافية التي جلبها الفرنسيون إلى إنجلترا كان الطعام المنوّع. ومن ضمنه كان لحم العجل. كان يجب على الإنجليز الذين يتكلمون الفرنسية أن يتعلموا التمييز بين v و f لأن ذلك الآن لا يوجد فقط فرقاً بالنسبة للغة الفرنسية المنمّقة (شديدة العناية بالتفاصيل)، ولكن يجب أن تُميَّز كلمة إنجليزية جديدة. بلا شك أن الإنجليز من الطبقة الأدنى استمروا بالتحدّث في ذلك الوقت وكأنه لم يكن يوجد هناك فرق. أخيراً تم جعل هذه التكيفات غير الرسمية للغة الإنجليزية تقنية، وبدأ حرفا v و f كحرفين ساكنين ابتدائيين يظهران بشكل طباعي في كلمات إنجليزية وكذلك في كلمات فرنسية مُنكلزة (أصبحت إنجليزية). واليوم حرف v الابتدائي هو جزء من نظامنا الرسمي ولا يخطر بالبال أن أي شخص سيفكر بشكل جدّي بالعودة إلى الشكل القديم. إن حقيقة أننا نعتبره صحيحاً وطبيعياً يعلّمه على أنه رسمي.

التوحيد القياسي لسن البرغي

قد لا يخطر على البال أن شيئاً تقنياً وعادياً مثل سن البرغي

للصمولات والبراغي من الممكن أن يوضّح، وفقاً لتاريخه، كيف أن التغييرات لا تتم في مرحلة واحدة من الزمن وتُقاوَم بشدة في مرحلة أخرى. إن حقيقة أن هناك حاجة واضحة للتغيير لا تعني بالضرورة أن التغيير يحصل. إن كيفية حدوث التغيير تعتمد على ما اذا كان البند الثقافي المحدد تتم معالجته بشكل رسمي أو غير رسمي أو تقني.

إن تاريخ سن البرغي يبدأ بشكل جاد مع الثورة الصناعية في إنجلترا وفي هذه البلاد. في الأيام المبكرة للتصنيع صمم كل مصنع صمولاته وبراغيه. ولم يكن هناك توحيد قياسي. من الواضح أن هذه الحالة لم يكن من الممكن أن تستمر إلى ما لا نهاية. ومع ذلك حدثت ثورة حقاً عندما قام مخترع أمريكي وصناعي، (وليام سيلرز) من معهد فرانكلين، بتوحيد قياسي لتصاميم السن للأمريكيين في سن واحد والذي أُقرَّ من قِبل جمعية مهندسي صناعة السيارات. عندما كان (سيلرز) يخطط مصير الصمولات والبراغي الأمريكية، كان رجل إنجليزي باسم (ويتويرث) يقوم بالعمل نفسه للإنجليز. إن حلول كلا الرجلين التقنية لمشكلة التوحيد القياسي كانت متقاربة الى درجة أن المنتجات النهائية كانت متماثلة تقريباً ولكن ليس تماماً. لم يكن ذلك مزعجاً كثيراً لأي كان حتى قيام الحرب العالمية الأولى عندما بدأت الولايات المتحدة بإنتاج سلع حربية للإنجليز والعكس بالعكس. عندما كان أحد الطرفين يصنع مدفعاً رشاشاً للآخر، كان يجب إما إعادة عمليات قص أسنان البراغي كلها أو صنع منتج كان مثبتاً مع بعضه بصمولات وبراغ لم تكن ستناسب أي شيء آخر يوجد لدى

المُستخدم من الجانب الآخر. إن الخزين الاحتياطي المكدّس وإعادة تصنيع البراغي والصمولات التي كانت متماثلة تقريباً، ولكن ليس تماماً، بلغت قيمته عدة ملايين من الدولارات. وأدرك كل شخص أنه سيكون من المنطقي أكثر للدولتين أن تصلا إلى قرار حول تصميم مشترك للسن، ولكن الفكرة تعرضت لمقاومة شديدة. عالج المهندسون والمدراء المشكلة كمشكلة تقنية. في الواقع أنه حالما تم التوصل إلى الحلول التقنية للتوحيد القياسي بشكل منفصل من قِبل (سيلرز) و(ويتويرث)، عاملت كل دولة تصميم سن البراغي الخاص بها كمسألة رسمية. كان هذا يعني أن أولئك الذين كانوا طرفاً كانوا سيقاومون الحجج المنطقية والتقنية بكل أشكال التبرير والذي لم يكن لأي منها شرعية تقنية.

حربان عالميتان وأرواح أعداد غير معروفة لجنود ماتوا لأنهم لم يتمكنوا من تنظيف قطع المدفعية في ساحة المعركة، وملايين الدولارات في نفقات إضافية، كل هذا فشل في إحداث تغيير.

بشكل غير رسمي، حاول أفراد مختلفون أن يوجدوا حلولاً. ولكن ليس قبل الحرب العالمية الثانية حيث استطاع (وليام إل. بات)، وهو مهندس أمريكي ومدير أعمال تنفيذي، أن يتدبّر حشد دعم كاف ليحصل على موافقة على تصميم سن برغي كان سيستخدم من قِبل الشعبين في صناعة المعدات التي كان سيستخدمها الطرف الآخر. في نهاية المطاف، وبتنازل الإنجليز أكثر من الأمريكان، تم تحقيق تسوية. لقد وُلِد سن البرغي تقنياً ومرّ خلال مرحلة رسمية طويلة وفي النهاية عاد إلى الحقل التقني.

وبالطريقة نفسها إلى حد كبير فإن المقاومة الأمريكية لتبني النظام المتري (اختراع نابوليوني) هي بلا منطق. لا يوجد سبب لماذا كان يجب أن نرفض التفاهم، إلا لأن الأوزان والمقاييس هي أنظمة رسمية بالنسبة لمعظم الناس. وكأمريكيين فقد استجبنا بشكل غريزي لفكرة أنه كان يجب علينا أن نتخلى عن الرطل الإنجليزي ونستبدله بالكيلوغرام، بالرغم من حقيقة أن النظام المتري كان يسود تدريجياً في العلوم والهندسة.

حالة مبكرة للمساعدة التقنية

المثال التالي يأتي من آثار جنوبية غربية ويُعنى بتحوّل صناعة الخزف من مجموعة إلى أخرى قبل حوالي خمسة عشر قرناً مضت. إن صناعة الخزف هي موضوع جيد لدراسة التغيير لأن أجزاء الخزف لا يمكن إتلافها عملياً. هذا بالإضافة إلى أن الصلصال له خواص بحيث أنه من المستحيل تقريباً صناعة الخزف بدون ترك قدَر جيد من الدلائل على طريقة التصنيع. علاوة على ذلك، تقدِّم صناعة الخزف سجلاً طويلاً وغير منقطع لأي ثقافة.

يبدأ المثال هنا في وقت عندما كانت إحدى ثقافات ما قبل التاريخ الرئيسة في الجنوب الغربي تصنع الخزف لعدة مئات من السنين. هؤلاء الناس يعرفون في الأدب بالـ (موغولون). يرجع هذا الاسم إلى المنطقة حيث اكتشفَت بقاياهم لأول مرة. وكان جيران الموغولون الشماليون، أسلاف هنود (بويبلو) الحاليين، معرفين بـ (أناسازي)، وهو مصطلح خاص بالنافاهو يعني "الشعب القديم".

في وقت ما قريباً من بداية العصر المسيحي، تعلّم الموغولون صناعة الخزف، ربما من شعب إلى الجنوب منهم. فيما بعد اقتبس الأناسازي صناعة الخزف من الموغولون . تخبرنا طبيعة الصلة الثقافية بين الموغولون والأناسازي كما تم تدوينها في الأواني الخزفية المصنوعة في ذلك الوقت شيئاً عن تقاليد هذين الشعبين وتوفر كذلك بعض الاستبصارات النفسية في مواقفهم تجاه التغيير.

بالإضافة إلى صناعة آنية على دولاب، يمكن صنعها بلولب من الصلصال أو تلصق ببعضها أو مطروقة من كرة. استخدم الموغولون لولباً رفيعاً جداً بقطر يتراوح ما بين ربع إلى نصف إنش، ومبتدئين بالآنية إما من قاعدة آنية أخرى (أو سلة) أو عن طريق لف اللولب حلزونياً على شكل صفيحة معدنية ثم ترفع الحواف إلى الأعلى بشكل وعاء أو إبريق. كل لولب كان يلتصق بآخر أسفل منه بواسطة قَرص الإثنين مع بعضهما على مسافات فاصلة قصيرة. وقبل أن يكون الصلصال قد جفّ، تكون علامات القَرص التي تُركَت كنتيجة لعملية التصنيع قد أُصبحت مخفية بشكل جزئي وليس بشكل تام بصقلها بحصاة ناعمة. وتترك التموجات المصقولة بإفراط سطحاً منقراً يميّز الأواني الخزفية للموغولون. بعدئذ تُخبز الآنية في جو مؤكسِد والذي كان يحوّل أي حديد في الصلصال إلى أحمر ساطع. إن طريقة الخَبز كانت تضمن احمرار الخزف في أغلب الحالات، لأن صلصال الجزء الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة يحتوي دائماً على حديد تقريباً. هذه العمليات تم توطيدها ولم تتغير كثيراً لمدة ثلاثمائة إلى

أربعمائة سنة في الوقت الذي تم فيه أول اتصال مع الأناسازي في الفترة 500 ـ 600 ميلادي.

من الممكن أن نعيد بناء قدْر كبير عن العملية التي حدثت عندما اقتبس الأناسازي تقنيات صناعة الخزف من الموغولون. من الواضح أن الأناسازي لاحظوا صناعة الخزف عملياً إلا أنه لم يتم تعليمهم تقنياً، ربما بسبب حاجز اللغة. وقد يكون كذلك أن الرجال رأوا نساء الموغولون يصنعن الأواني ونقلوا ذلك إلى زوجاتهن وأخواتهن. والسبب يجعلنا نعرف أنه من غير الممكن أن يكون هناك تعليم هو بسبب أن لون الأواني الخزفية للأناسازي بدلاً من أن يكون أحمر، *انقلب* رمادياً، مما يبين أنه قد خُبِز في جو مختزل بدون أوكسجين. نحن نعلم أن الأناسازي نظروا إلى ذلك على أنه خطأ في تقنيتهم، لأنهم كلفوا أنفسهم عناء إيجاد صلصال أحمر قاموا بطحنه إلى مسحوق ناعم مدهون استخدموه لدهان سطح الأواني الرمادية كاملاً. لقد كانت فكرتهم عن الآنية المناسبة أنها يجب أن تكون حمراء. حتى بعد مئات السنين من التعرض للظروف المناخية فإن آثاراً دقيقة لهذا الصلصال المدهون بالمسحوق يمكن رؤيتها تلتصق على الجوانب ذات الندب الصغيرة في سطح هذه الأواني القديمة. لم يكن من الممكن صقل الصلصال الأحمر غير المخبوز لأنه كان قد وضع على سطح مخبوز سابقاً. أظهرت جميع أواني الموغولون بعض الصقل.

في الفترة 800 ـــ 900 ميلادي كان من الواضح أن الاتصال بين الشعبين كان أقرب قليلاً، وحصل بعض التعلُّم الحقيقي، على الأقل أصبح

الأناسازي أكثر تقنية في تقليدهم لتقنيات الموغولون. لقد تعلموا أن يخبزوا في جو مؤكسِد على نطاق واسع، مما مكّنهم كذلك من صقل الأواني الحمراء قبل خبزها. ومن المثير للاهتمام أنهم بتعلمهم كيف يخبزون الآنية الحمراء، فإنهم لم يتخلوا عن تقنيتهم في الخَبز المختزل الأصلي، ولكن حافظوا على الأسلوبين في الخَبز جنباً إلى جنب لعدة مئات من السنين بعد ذلك. في الوقت نفسه تعلموا أن يصْنعوا الخزف ذا العنق الملتف المعقد والمميَّز لجيرانهم الجنوبيين. ومن أجل عمل هذا النوع من الأواني الخزفية، يجب أن يُترَك اللولب المنبعج غير مخفي ومصقول برمته بطريقة خاصة. وعلى العكس من المولوغون، لم يكن لدى الأناسازي عُرف لصقل سطح اللوالب والانبعاجات، ورأوا الإمكانيات في الاحتفاظ بالخطوات المبكرة في العملية. بالنسبة لهم كان لعلامات القَرْص قيمة تزيينية. في البداية ربما لم يروا سبباً للمرور خلال الخطوات الإضافية لصقل علامات القَرص ثم إتباع ذلك بالطلي عند استخدام الوعاء كقِدْر للطبخ. كانت بعض النماذج الأولية عن هذه الآنية غير متقنة بشكل كاف لتعطي المرء هذا الانطباع. لم يستغرقوا وقتاً طويلاً لتطوير التجعدات إلى فن بحد ذاته، وحتى أنهم ذهبوا لأبعد من هذا بحيث كانوا ينوعون علامات القَرص بحيث ينتجون تصميماً مشابهاً لذلك الذي نراه على السلال. هذه واحدة من عدة حالات تتحرر بواسطتها العملية من التقاليد (الرسمي) أثناء انتقالها عبر حد ثقافي فاصل وتصبح مسألة تقنية.

يمكن لعالم الآثار أن يرى العُرف (الرسمي) يعمل بوضوح جداً لدى كل من المولوغون الأناسازي ويمكنه أيضاً أن يرى في المرحلة نفسها كيف

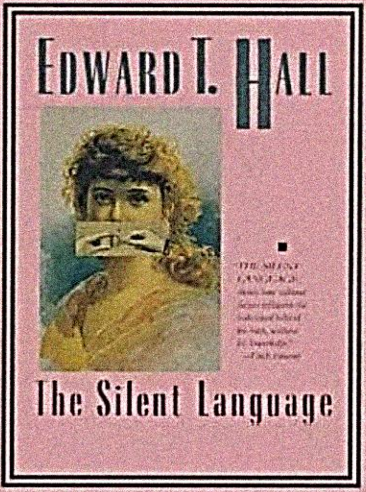
أن تكيفاً غير رسمي ـ استخدام القشرة الحمراء المطلية بعد ما تم خَبز الآنية ـ استمر استخدامه حتى بعد أن عرف الأناسازي كيف ينتجون لوناً أحمر ثابتاً بالخَبز. إن تطور التجعيد بحد ذاته كان تكيفاً غير رسمي والذي تم جعله تقنياً فيما بعد وأصبح في النهاية شكلاً تقليدياً لصناعة الخزف الجنوبية الغربية. الشيء نفسه ينطبق على أسلوبي الخَبز، أحدهما وصل بأسلوب غير رسمي ولكن فيما بعد تم جعله تقنياً وفي النهاية تم تحويله إلى نظام رسمي جديد استمر لعدة مئات من السنين.

إن أحد أهم مظاهر دراسة تغيير من هذا النوع هو أنه يمكن أن يستخدَم لدراسة نظريات متعلقة بالتاريخ الثقافي للجنوب الغربي. لسنين عديدة كان هناك اختلاف كبير في الرأي حول ما إذا شكَّل المولوغون فرعاً للأناسازي أو كانوا ثقافة منفصلة فعلياً. من ناحية أخرى بدا من الواضح أن لكل ثقافة مجموعة من الصفات المشتركة لكليهما. من ناحية أخرى، لكل منهما طرق مميزة لعمل الأواني، والبيوت والأدوات الحجرية. إذا كان من الممكن أن نرى التحول الفعلي لصناعة الخزف بمعنى ديناميكي كوظائف لعملية التغيير، لما كان من الممكن أن يكون هناك شك حول حقيقة أن كلاهما كان في الواقع مختلفاً جداً بالرغم من أن أحدهما اقتبس من الآخر. كان لدى المولوغون تقاليد مختلفة وكانوا كذلك على اتصال متقطّع فقط مع الأناسازي. في ضوء هذا سيكون من الصعب مناقشة اشتراكهما في الثقافة.

نبذة عن المؤلف

حصل عالِم الإنسان (إدوارد تي. هول) على درجة الدكتوارة من جامعة كولومبيا عام 1942 وقام بأبحاث ميدانية مع النافاهو والهوبي والأمريكيين الإسبان والتروكيين. كان أثناء السنوات الحاسمة لبرنامج المعونة الخارجية في الخمسينيات مديراً لبرنامج النقطة الرابعة التدريبي التابع لوزراة الخارجية الأميركية. من عام 1959 وحتى عام 1963 أدار مشروعاً لبحوث الاتصالات في كلية واشنطن للطب النفسي. وقد علّم في جامعة دنفر وفي كلية بيننغتون وكلية التجارة بجامعة هارفارد ومعهد إلينوي للتكنولوجيا وفي جامعة نورثويسترن. والدكتور (هول) هو زميل في اتحاد علم الإنسان الأميركي وفي جمعية علم الإنسان التطبيقي، وعضو سابق في المجلس الاستشاري لأبحاث البناء للأكاديمية القومية للعلوم.

أكثر ما اشتهر به هو عمله في الاتصالات البينثقافية، وهو استشاري لوكالات تجارية وحكومية. يعيش جزءاً من السنة في (سانتا في) بولاية، نيومكسيكو، حيث يؤلف ويجري أبحاثه.



أخذ وعطاء غير ملفوظ في العلاقات الإنسانية اليومية، إنها اللغة الصامتة التي تلعب دوراً هاماً جداً. هنا يقوم عالم إنسان أمريكي بارز بتحليل الطرق المتعددة التي "يتحدث" بها الناس مع بعضهم البعض بدون استخدام كلمات.

ترتيب النقر في قن الدجاج، والتنافس العنيف في ملعب المدرسة وكل تصرف وإيماءة غير مقصودين - هذه هي مفردات *"اللغة الصامتة"* بحسب الدكتور (هول) تكون مفاهيم *المكان والزمان* أدوات يمكن لجميع الكائنات البشرية نقل رسائل بواسطتها على سبيل المثال، المكان هو نتاج دفاع غريزي لحيوان ما عن مخبئه، وينعكس في المجتمع البشري في الدفاع الغيور لموظف عن مكتبه، أو في ساحة فناء منزل أمريكي لاتيني باحة مسوّرة. وبشكل مماثل فإن مفهوم الوقت، الذي يختلف من دقة غربية إلى غموض شرقي، يتوضح من قبل رجل أعمال يترك عميلاً ينتظر بدون إحساس، أو أحد سكان جزيرة في جنوب المحيط الهادي يقوم بقتل جاره من أجل ظلم عانى منه قبل عشرين سنة.

ISBN 9957-31-227-8
9 789957 312275

الأهلية
للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
بجانب مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٧ م
• الغلاف : علي الحسيني